مد احمد باشميل

موسوعة الغزوات الكبرى

الله أكبر

غزوة مؤتة

المكتبة السلفية

محمد احمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

-٧-

غزوة مؤتة



الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

عنيت بطبعه

دار المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة ــ القاهرة . تليفون : ٨٤٠٣٦٤

غَزْوَةُ مُؤْتَة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وصل اللهم على خيرة خلقك نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

— ١ —

وبعد أيها القارئ الكريم ، فهذا هو الكتاب السابع من سلسلتنا التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة) ، إن هذا الكتاب يقدم لك (بصفة رئيسية) دراسة عن أول عمل عسكرى ضخم تقوم به القوات الإسلامية فى العهد النبوى ، خارج الجزيرة العربية ، وداخل أراضى الشام ، التابعة يوم ذاك للإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطا) . التى هى أعظم دولة فى العالم آن ذاك .

— ٢ —

ولصلة العرب بالشام صلة موغلة فى القدم حيث يعتبر الكثير (ومنذ عهد عاد الثانية وعبر آلاف السنين) الرقعة الممتدة من بحر العرب على المحيط الهندى مروراً بالقوس الممتد من رأس الخليج عند البصرة فى الشرق ورأس

الخليج عند أيلة (أيلات) فى الغرب حتى جبل اللكام فى آسيا الصغرى (تركيا) فى الشمال ، والمسمى بالهلال الخصيب أرضاً عربية لا يتجزأ بعضها عن بعض[1] .

ولكون المصادر التاريخية أثبتت أن الشعب الرئيسى (دائماً) من سكان الشام عبر القرون ــ حتى ظهور الإسلام ــ هم من العرب ، رغم تعاقب المتسلطين الأجانب عبر الأحقاب على الشام ــ فقد عقدنا فصلاً خاصاً (وهو الفصل الأول من هذا الكتاب) تحدثنا فيه بإيجاز ، عن تاريخ العرب فى الشام قبل الإسلام .. لا سيما وأن معركة (مؤتة التاريخية التى هى موضع دراستنا فى هذا الكتاب ، كان رأس الحربة فيها ضد الجيش الإسلامى ، هم العرب المتنصرة من قضاعة وغسان وغيرهم ، بدليل أن مالك بن رافلة المتنصر الذى قتل فى معركة (مؤتة بأيدى المسلمين كان يقود مائة ألف عربى كانوا إلى جانب الرومان ضد الإسلام ، كما أن سدوس بن عمرو ، أخا شرحبيل بن عمرو الغسانى ــ عامل الرومان على البلقاء ــ قد لقى مصرعه داخل الجزيرة العربية قرب وادى القرى وهو يقوم بأعمال الاستخبارات والاستطلاع لحساب وزارة الحرب الرومانية التى كان رجالها يحتشدون جنوب الشام لملاقات المسلمين .

ــ ٣ ــ

أسباب غزوة مؤتة

كان الرسول ﷺ وحتى السنة الخامسة من الهجرة ، منهمكاً فى الانشغال فى الداخل بأعداء رئيسيين ثلاثة ، هم :

أ ــ قريش جنوب المدينة .

ب ــ غطفان ومن لف لفها من قبائل نجد الخطيرة شرق المدينة .

ج ــ يهود خيبر شمالى شرق المدينة .

غير أنه ﷺ عقب انتصاره السوقى التاريخى فى معركة الصمود الحاسمة ،

---

(١) انظر كتابنا « العرب فى الشام قبل الإسلام »

معركة الأحزاب (الخندق) على ذلك الثلاثى المتحالف ، شعر ، وشعر أيضاً أعداؤه أن الإسلام أخذت جذوره تضرب بعيداً فى الأعماق داخل الجزيرة العربية ، وكان الخوف والرعب منه قد أخذ ينوش قلوب أعدائه بمختلف فئاتهم .

فأمن جانب غطفان ، أخطر أعدائه ، وذلك بعد أن أنهكهم بالحملات العسكرية السريعة التي كان يجردها عليهم ، وكانت خاتمة المطاف فى خضد شوكتهم وإعطائهم درساً عملياً بأن المسلمين أقوى مما يتصور أولئك الأعراب الأقوياء المحاربون الأشداء .. هى فشلهم فى عملية الأحزاب العسكرية الشهيرة التى كانت غطفان فيها العمود الفقرى .. ستة آلاف منهم كانوا فى قوة الأحزاب البالغ عددها عشرة آلاف حشدها اليهود بغية إنهاء الوجود الإسلامى فى السنة الرابعة للهجرة .

— ٤ —

ففى السنة الخامسة من الهجرة شعر المسلمون بأن قوتهم الذاتية (بعد اجتياز محنة الأحزاب الرهيبة) قادرة على الصمود والتصدى عسكرياً لأية قوة فى الجزيرة ، تريد النيل منهم ، ومنعهم أىَّ حق يستحقون مباشرته .

وكانوا — منذ هاجر النبى ﷺ إلى المدينة — محرومين من زيارة البيت فى مكة بسبب الحظر المتعسف الذى فرضته قريش — عندما كانت فى مركز القوة — على المسلمين ومنعتهم بموجبه من دخول مكة حتى وإن كانوا معتمرين أو حجاجاً .

ففى هذه السنة تحرك من المدينة ألف وأربعمائة من المسلمين تحت قيادة الرسول الأعظم ﷺ متجهين جنوباً نحو مكة بقصد العمرة (زيارة البيت العتيق) ، فصدهم المشركون عند حدود الحرم ومنعوهم من دخوله ، فجرت بين الفريقين مراسلات ومفاوضات أدَّت فى النهاية (بعد مشادات كادت تؤدى إلى حرب شاملة) أدَّت إلى ذلك الصلح التاريخى المسمى (صلح الحديبية) .

كان من أهم مكاسب المسلمين فى هذا الصلح ، اعتراف قريش بالمسلمين كأمة ذات كيان ، وإنهاء حالة الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنين ، وتسليم مشركى مكة بحق المسلمين فى زيارة البيت والقيام بنسك العمرة رغم بقاء مكة تحت سيطرة الوثنية .

— ٥ —

من الناحية السياسية استفاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية بأن أمن جانب قريش (فترة من الزمن) استطاع فيها أن ينجز أعمالاً جساماً ، كان القيام بها ذا أثر فعّال فى تثبيت كيان الإسلام وتدعيم مركز المسلمين . أهم هذه الأعمال :

١ — التفرغ ليهود خيبر الذين كانوا مع المسلمين فى حالة حرب .. أنهى الرسول ﷺ وجودهم فى أوائل السنة السادسة للهجرة بعد معارك عنيفة استمرت حوالى شهرين[١] .

٢ — الاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط لإسماعهم صوت الإسلام ودعوتهم إلى الدخول فيه وإلفات نظرهم إلى قيام أمة جديدة ذات خطر وكيان تسمى أمة الإسلام[٢] .

٣ — التفرغ للجار الخطر (الرومان) وإلقاء درس حربى عملى عليهم بأن اجتاز جند الإسلام (ولأول مرة) حدود الشام ، وقاتلوا الرومان على أرضهم حيث نشبت فى الشام معركة (مؤتة) الحاسمة التى هى موضوع دراستنا الرئيسية فى هذا الكتاب .

— ٦ —

هكذا حدثت معركة مؤتة فى فترة الصلح القائم بين المسلمين وبين

---

(١) انظر تفاصيل هذه المعارك فى كتابنا السادس من هذه السلسلة (غزوة خيبر) .
(٢) انظر تفاصيل هذه الاتصالات فى هذا الكتاب .

قريش ، وذلك قبل أن ينقض القرشيون وحلفاؤهم هذا الصلح .

كانت الهدنة فرصة (كما قلنا) بالنسبة للمسلمين لابد من الاستفادة منها ، فقد قرر النبى الحكيم والقائد السياسى والعسكرى المحنك ـــ وقد تراءت فى الأفق أطماع الإمبراطورية الرومانية فى المسلمين والسيطرة على جزيرة العرب وصار عملاؤهم العرب المتنصرة يقتلون أصحاب النبى ﷺ غدراً وبالجملة ـــ رأى أن يبعث بقوة حربية من خيرة أصحابه (هى أكبر قوة استطاع حشدها حتى ذلك الوقت منذ ظهور الإسلام) رأى أن يبعث بهذه القوة الحربية إلى مشارف الشام لتتوغل داخل ذلك البلد الذى يعتبر بعضاً من ممتلكات الدولة البيزنطية ، ويطأها غازياً ، لإعطاء الرومان وعملائهم المتنصرة من العرب درساً حربياً قاسياً يشطب من أذهانهم جميعاً ما رسخ فيها مما آلفوه عن المقاتل العربى قبل أن يدين بالإسلام ، والذى كان (بصورة رئيسية) إنما يقاتل كرًّاً وفرّاً وفى حركات خاطفة بغية السلب والنهب فقط ، ثم ينسحب سواء كسب أم خسر . إنه أسلوب بدائى فى القتال لا يتناسب وأساليب اللجيونات والتفوق التكنولوجى الذى يمتاز بها الجيش الرومانى .

— ٧ —

كان الرومان وعملاؤهم العرب المتنصرة ينطلقون فى معاملتهم المسلمين من هذه النظرة الخاطئة ، وعلى أساس هذه النظرة الخاطئة ، قتلوا (غدراً أو غيلة) خمسة عشر من فضلاء الدعاة المسلمين من أصحاب النبى ﷺ فى مكان يقال له ذات الطلح داخل الشام ، قتلوهم ، وهم فى مهمة سلمية إنسانية ، هدفها نشر الإسلام بالحسنى وطريق الإقناع ، فكان ذلك من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى نشوب معركة (مؤتة) الفاصلة ، والتى استشهد فيها قادة الجيش الإسلامى الثلاثة ، وتعرض الجيش النبوى الصغير فيها لمحنة قاسية لم يخلصه منها إلا مهارة القائد الفذ المحنك خالد بن الوليد الذى يشترك ولأول مرة جندياً ثم قائداً فى جيش إسلامى .

— ٨ —

فللأسباب التى ذكرنا ، حشد الرسول ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل من أصحابه من أهل البادية والحاضرة وعيَّن لهم (قبل أن يتحرّكوا من المدينة) قادة ثلاثة بالتناوب .

١ — زيد بن حارثة مولاه .

٢ — جعفر بن أبى طالب ابن عمه إذا قتل زيد .

٣ — إذا قتل جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصارى .

وقد اجتازت القوة النبوية حدود الشام عبر (معان) المدينة التاريخية الشهيرة حتى وصلت منطقة الكرك (لواء البلقاء اليوم فى المملكة الأردنية الهاشمية) ، وهناك فى مشارف قرية يقال لها (مؤتة) دارت المعركة التاريخية الفاصلة التى سميت واشتهرت فيما بعد فى التاريخ بمعركة (مؤتة) .

— ٩ —

لقد كانت معركة (مؤتة) بحق معركة رهيبة طاحنة ، ولا أدل على ذلك من أن القادة الثلاثة للجيش الإسلامى قتلوا جميعهم الواحد تلو الآخر ، كما قتل كذلك بشر كثير من المسلمين لم يحص عدده ، وسقط أيضاً خلق أكثر من القوات الرومانية وحلفائها ، كما صرع قائد المتنصرة العرب المرتزقة مالك بن رافلة ، وسدوس بن عمرو ، أخو حاكم المنطقة شرحبيل بن عمرو الغسانى .

واستمرت المعركة (على ما ذكره ابن برهان الدين فى السيرة الحلبية) ستة أيام ، أبدى فيها المسلمون من ضروب الشجاعة والتضحية والثبات والفداء مالا مزيد عليه .

— ١٠ —

وللحقيقة والتاريخ فقد هزم المسلمون — بعد مصرع قادتهم الثلاثة —

هزيمة منكرة لم يهزم مثلها قوم (قط) .

غير أن خالد بن الوليد لما توّلى القيادة بعد الهزيمة ، أعاد للجيش الإسلامى تنظيمه ، ثم جعله ينزل بالرومان هزيمة منكرة لم يهزموا مثلها . ثم أنقذ الجيش الإسلامى الصغير ، فانسحب به (فى غمرة الاضطراب الذى ساد صفوف الجيش الرومانى) .. انسحب به على تعبئة تامة وانتظام كامل ، فاستحق بذلك أعلى وسام يمنحه الرسول ﷺ مسلماً من أصحابه (سيف الله) .

لأن خالداً بتوفيق الله ، ثم بمهارته العسكرية ، وشجاعته النادرة ، وصلابة إرادته ، تمكن من أن يسحب رؤوس ثلاثة آلاف مقاتل مسلم من تحت مطرقة الموت التى أخذ مائتا ألف مقاتل رومانى وحليف عربى يهوون بها على رؤوس أفراد ذلك الجيش الإسلامى الصغير الذى أنهكته الحرب ، وفقد قادته الثلاثة وسقط لواؤه على الأرض فتمزق شمل وحداته تمزقاً مريعاً .

— ١١ —

إن معركة مؤتة — على ما أصاب المسلمين فيها من كرب وبلاء . وعلى ما تعرضوا له فيها من أخطار ، وأقدموا عليه من مجازفة بلغت فى عرف هذا العصر حد الانتحار ، تحمل أروع صور الصمود والتضحية والثبات ، وفيها الدروس كل الدروس عن معانى العقيدة الحقيقية الصحيحة ، ومعطياتها السخية ، ودفقاتها الزاخرة بروافد الإيمان التى تجعل من حاملها إعصاراً يزلزل الشوامخ ، وجبلاً يهزأ بأعتى الأعاصير .

فالتمسك بالعقيدة — عقيدة الإسلام — وعلى ذلك المستوى الذى بلغه أبطال مؤتة ، هو الذى به يستطيع المسلمون (عرباً كانوا أم غير عرب) استعادة الحقوق المسلوبة ، والحفاظ على الكرامات المعرضة للهدر والضياع .

فكم هو جدير بأصحاب الأيديولوجيات المستوردة إلى الشرق لجعلها منطلقاً لاسترجاع ثالث الحرمين وما ضاع من حقوق المسلمين فى فلسطين

وغير فلسطين ، كم هو جدير بهم أن يدرسوا الأيديولوجية التي من فوق أرضها الصلبة ثبت ثلاثة آلاف مقاتل سبعة أيام يصارعون جيشاً قوامه مائتا ألف مقاتل ، فأبدوا من ضروب الشجاعة والبذل والتضحية والفداء ، ما يجعل الذي يتغنى به الماركسيون من بطولات عصابات تشى غيفارا وهوشى منّه وماوتسى تونغ صفراً من اليسار فى حساب البطولات .

— ١٢ —

إن تاريخ أمتنا العربية التى هى جزء من أمتنا الإسلامية الكبرى طافح بأعمال البطولات الخالدة التى يجب أن تكون معقد اعتزازنا عند الافتخار ، ومرجع دراستنا عندما يجيء دور الاقتداء والاتعاظ والاعتبار. فنحن مستغنون كل الاستغناء عن التغنى بأمجاد غيرنا ، والتأسى والاقتداء برجال لا يمتون إلينا ولا إلى تاريخنا بأية صلة .

وكم هو رائع (بل وعظيم) أن يفطن لمثل هذه الحقيقة ويدعو للتمسك بها أمثال (اللواء الركن مصطفى طلاس) فيقول ــ معقباً فى غير ارتياح على احتفال بعض بنى قومه بالعيد المئوى لزعيم الشيوعية العالمية فلاديمير لينين ــ.. « فى التاريخ أمثلة تدل دلالة قاطعة على أن ما من أمة تعرّضت أراضيها للغزو الأجنبى والاحتلال ، إلا هبَّت تنشد ماضيها وتبحث عما فيه من أمجاد . لعلها تجد ما يبعث الحياة فى حاضرها ، فتبرهن على أصالتها ودورها فى الحضارة الإنسانية . وحسب معلوماتى التاريخية ليس ثمة أمة داهمها الغزو كما ذكرت ، واحتلت أجزاء من أراضيها احتلالاً استيطانياً ، بل وربما هددت بالسحق والإبادة والتشريد ، ثم انبرت تفاخر بتاريخ غير تاريخها وتحتفل بقادة غير قادتها ، وهى إن فعلت ذلك ، إذن كان مثلها (مثل القرعاء ، تتباهى وتفاخر بشعر جارتها) .

أقول هذا عندما رأيت الصور والملصقات تغص بها الشوارع فى دمشق العربية ، لرجل لا يمتّ إلى تاريخنا بصلة غير صلة الإنسانية ، مع تقديرى

العميق لمناقبه الفذة ، قررت أن أكتب شيئاً مهما كان قليلاً فى ذكرى الرسول العربى »[1] .

حقاً إنه ليس أحد أحق بالرثاء من أمة تتجاهل تاريخها الزاخر بالأمجاد والبطولات والطافح بذكرى الأبطال الخالدين ثم تدلج فى ظلام المبادىء الهدامة المستوردة باحثة عن نفايات البشر وشذاذ الآفاق والسفاحين الملحدين لتجعل منهم مثلها الأعلى فى النضال وقدوتها المثلى فى التربية والسلوك .

إن نتيجة مثل هذا التصرف ، لن تكون إلا كما كانت ، الاندحار يتلوه الاندحار ، والهزيمة تتلوها الهزيمة حتى تعود أمة محمد ﷺ إلى الانتهال من منبع الإسلام الصافى الشافى الذى انتهل منه أبطال معركة (مؤتة) فسجلوا من الانتصارات فى العهد النبوى وما تلاه من عهود زاهرة ، ما حشى فم التاريخ بذكراهم العاطرة ، التى ظلت وستظل إلى الأبد أنشودة الدهر المفضلة التى يتغنى بها ..

إلى الإسلام من جديد أيها المسلمون (عرباً كنتم أم غير عرب) إلى حقيقة الإسلام المتمثلة فى التمسك به قولاً وعملاً ، لا إلى القشور التى لا تعدو الانتساب إلى هذا الدين الخالد فحسب ، إلى الإسلام الحقيقى إن كنتم تتوقون حقاً إلى أن يكون الله معكم لينصركم على أعدائكم . وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم فلا عزة لكم ولا نصر بغير الإسلام . وتذكروا دائماً قول الفاروق عمر بانى دولة الإسلام العظمى .. « من طلب العزة بغير الإسلام أذله الله » .

نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً لما فيه فلاحنا فى الدنيا ونجاتنا فى الآخرة إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

محمد أحمد باشميل

جدة ... المملكة العربية السعودية

١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م

---

(١) الرسول العربى وفن الحرب ص ١٥ من مقدمة مؤلفه اللواء الركن مصطفى طلاس .

الفصل الأول

- العرب فى الشام قبل الإسلام .
- ملوك آل عاد فى الشام .
- صلة الرومان بعرب الشام .
- مملكة الأنباط .
- مملكة آل أذنية (تدمر) .
- مملكة قضاعة .
- مملكة الغساسنة .
- عرب الشام ومعركة مؤتة .

قبل الدخول فى تفاصيل معركة مؤتة الفاصلة ، نرى أنه لابد من إعطاء القارئ الكريم (أولاً) لمحة عن صلة العرب بالشام (قبل الإسلام) حكاماً أو مواطنين .. محكومين أو مالكين حاكمين .

وثانياً عن ارتباطهم بالرومان الذين سيطروا على الشام قبل الميلاد وبعده وخاصة فى عهود الأباطرة البيزنطيين الذين كان الصدام بينهم وبين المسلمين أول ما كان فى معركة مؤتة التاريخية ، والتى كان العرب المتنصرة والمرتزقة الوثنيين الموالين للرومان رأس الحربة فى القتال الذى دار فى هذه المعركة التاريخية (معركة مؤتة) التى هى موضوع كتابنا هذا .

الشام بلد عربى منذ آلاف السنين .

هناك ما يشبه التظافر بين الأخباريين المسلمين والأجانب المستشرقين والإسرائيليين وغيرهم على أن الشام كانت موطناً للعرب قبل الميلاد بل وقبل ظهور بنى إسرائيل بعدة قرون ، وأنهم أول من حكم الشام وأن ملوك الأرض الذين أول من ملك الشام فى التاريخ إنما كانوا من العرب .

إلى هذا الرأى ذهب وقال به فيلسوف التاريخ المشهور الإمام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى الكندى المغربى ، وكذا المؤرخ الرحالة الجغرافى الشهير المسعودى(١) .

ويسند هذا الرأى كثير من المستشرقين الذين يؤكدون أن القوس المتكوّن من العراق والشام والمسمى بالهلال الخصيب هو امتداد طبيعى لجزيرة العرب وأن ما يحتويه هذا الهلال الخصيب من أقطار هو وطن للعرب منذ قرون عديدة قبل الميلاد وقد عد المستشرقون الهلال الخصيب هذا من الناحية الطبيعية وحدة لا يستطاع فصلها عن الجزيرة (العربية) وامتداداً طبيعياً لها منذ فجر التاريخ(٢) .

وقد ذكر الباحثون المختصون بتاريخ العرب قبل الإسلام (مثلاً) أن ملكاً عربياً اسمه جندب « Cindibu..... » كان أحد ملوك الشام العظام فى عام ٨٥٣ ق . م . وإنه أقام تحالفاً عسكرياً مع أحد ملوك الأرميين وانضم إلى هذا الحلف اثنا عشر ملكاً من ملوك المناطق المجاورة . جميعهم كوّنوا حلفاً عسكرياً لمواجهة شلمنصر الثالث أحد ملوك الآشوريين الجبابرة الذى غزا الشام وأوقع بالملك العربى (جندب) وحلفائه فى معركة (قرقر) وهى مدينة

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٣ ، ص ٣٤ ومروج الذهب ج ٢ ص .

(٢) قال الدكتور جواد على فى كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام (تذييلا) fertile crescent اصطلاح أطلقه H. breasted لأول مرة بهذا المعنى على القوس المتكون من العراق و (الشام) . وإذا قلنا الشام قصدنا سورية ومعها لبنان وفلسطين والأردن S.A. Huzeyyin, Arepia and the far East.

تقع شمال حماه ، ، وأن الملك جندب قدَّم لقوات الحلفاء التى هو أحد قادتها ألف بعير واشترك بنفسه فى الحرب مع سبعين ألف جندى ضد شلمنصر الثالث ملك آشور ، الذى هزم الملك العربى وحلفاءه فى هذه الحرب عام ٨٥٣ قبل الميلاد[١] .

وتفيد تقارير المؤرخين غير الإسلاميين . أن خسارة الملك العربى جنيدب (أو جندب) وحلفائه فى معركة قرقر (وحسب رواية شلمنصر ملك آشور التى دونها على أحد الأعمدة فى بابل) بلغت خمسة وعشرين ألفاً وخمسمائة مقاتل[٢] .

المملكة العربية التى حاربت الآشوريين قبل الميلاد

كذلك تفيد مصادر التاريخ الأوربى أن ملكة عربية اسمها زبيبى (زبيبة) كانت حوالى ٧٣٨ ق . م قد انضمت فى حلف عسكرى إلى أعداء ملك آشور من ملوك الطوائف فى الشام فسيطرت على طرق القوافل المارة بها إلى بابل فى العراق . فجرد عليها ملك آشور (تغلث فلاسر الثالث) حملة عسكرية قوية فقاتلته ولكنه تغلب عليها فى النهاية حتى أخضعها فاضطرت لعقد صلح معه دفعت بموجبه الجزية للأشوريين . وذلك عام ٧٣٨ ق . م[٣] .

كذلك تشير المصادر الأفرنجية إلى أن ملكةعربية أخرى اسمها سمسى . Samchi (شمس) كان مقر ملكها (مؤاب وفلسطين) قد عقدت حلفاً عسكرياً مع ملك (دمشق) المعادى لملك آشور فصارت قواتها من رجال البادية تغير على قوافل الآشوريين الآتية من الجنوب وتستولى عليها . فجهز ملك آشور عليها قوات ضخمة فانتصر عليها بعد أن احتل مدينتين رئيسيتين من مدن مملكتها وتغلب على معسكرها . فاضطرت لأن تخضع وتدفع الجزية له

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٢ ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ــ ٣٠١ .

(٢) Koniga, S. 140, weiss., S. 597 أدى شير ص ٦٩ ــ ٧٠ عن جواد على ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٣) Musil, Deéerts, 477 .

(إبلا جمالا ونوقاً) بعد أن خسرت فى المعارك التى خاضتها ضد ملك آشور مائة ألف مقاتل وثلاثون ألف جمل وعشرون ألفاً من الماشية .. وجدت هذه الأرقام فى نصوص دونها ملك آشور (تغلب فلاسر) نفسه على لوحة من اللوحات سجل عليها هذا الملك الآشورى تاريخ حياته الحربى[١] .

بقايا العمالقة

وإذا صح ما جاء فى هذه المصادر الأجنبية (وحسب ما دون فى اللوحات الملكية الآشورية) فإن الملك العربى جنيدب (جندب) والملكتين (زبيبة) و(شمس) يكونون من العمالقة الذين ظلت بقاياهم تتواجد فى الشام وتتناسل حتى ظهرت منهم عائلة آل أذينة المالكة فى البادية كقوة عربية ذات شأن عظيم .. قبيل الميلاد بحوالى ٧٠ عاماً . وظلت تتعاظم قوتها الحربية حتى أسست مملكة (تدمر) التاريخية الشهيرة التى أدخلت الرومان بعد الميلاد وقضت على سلطانهم فى المشرق وخاصة فى عهد الملك أذينة بن أذينة وزوجه الداهية ذات الهمة العالية زينوبيا (الزباء) التى بلغ بها الطموح وعلو الهمة وقوة العزيمة إلى أن تعبر بقواتها مضيق البوسفور وتضرب الحصار على القسطنطينية ، واضعة أمام نصب عينيها احتلال روما عاصمة الأمبراطورية الرومانية العتيدة[٢] .

العرب أول من ملك الشام من البشر .

يدل سياق الإخباريين أن العرب أول من ملك الشام ، وكان أول مَلك منهم حكم الشام بل ومصر والهند وسائر ممالك المشرق هو شداد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . الذى كانت قاعدة ملكه الأحقاف (حضرموت) بجنوب الجزيرة العربية . وعاد هذه التى ملكت الشام وهى عاد الثانية وهى قبيلة عربية . ويصنفها الإخباريون ضمن العرب العاربة والعرب البائدة . وقد ظلت عاد ملوكاً للشام حتى عتوا وطغوا فأهلكهم الله على نحو

---

(١) Olmstead, History of Assyria, P. 199 - 200.

(٢) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

ما جاء فى القرآن الكريم . هكذا تقول مصادر الإخباريين الإسلامين العرب ومن هاجر إليهم ودخل فى الإسلام من بنى إسرائيل الذين يمكن الاعتماد على نقلهم ، لأن أهل الكتاب من بني إسرائيل أقرب من غيرهم إليهم وأوعى لأخبارهم[1] .

وفى المصادر التاريخية الغربية الأجنبية . إشارات واضحة تعضد ما يقوله الإخباريون الإسلاميون من أن عادا كانوا قد استوطنوا الشام وسينا وحكموا تلك المناطق .

فقد ذكر بطليموس (Forster. Woi. 2 82) أن عادا قد كان لهم وجود فى المناطق الممتدة من الشمال الغربى لجزيرة العرب مروراً بأيلة (إيلات) على رأس ساحل خليج العقبة حتى المنطقة التى تسمى (بتيه بنى إسرائيل) وهى فى شبه جزيرة سيناء . قال الدكتور جواد على فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام)[2] ولا يبعد هذا الموضع عن أماكن (ثمود) الذين ارتبط اسمهم باسم عاد . وقد أيد هذا الرأى (شبنكر) وجماعة من المستشرقين وهو أقرب الآراء إلى الصواب .

كما دلت الحفريات على أن الأقرب إلى الصواب إلى أن (إرم ذات العماد) التى ذكرها القرآن عند التعرض لذكر قوم عاد هى فى الشام لا فى جنوب الجزيرة العربية . وهذا يوافق ما ذهب إليه المسعودى (وهو من أشهر المؤرخين والجغرافيين العرب) فقد ذكر أن جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم وهو الذى بنى فى الشام (إرم ذات العماد) وهو الذى اختط دمشق ومصرها عندما كان ملكاً على الشام[3] أما (موريتس) البحاثة . فقد أيد أيضاً ما ذهب إليه (بطليموس) من أن إرم (أى إرم ذات العماد) هى فى مكان ما من الشام الذى كان خاضعاً لحكم قوم عاد العرب ــ قبل ثمود وقبل ظهور بنى إسرائيل وقد سماه باللاتينى (Aramaua) وقد ساند موسل رأى

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها طبعة مطبعة السعادة . وانظر أيضاً تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٣ ــ ٣٤ ــ ٣٥ .

(٢) ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٥ .

(موريتس) فى مطابقة المكان الذى ذكره (بطليموس) .

وقد أظهرت الحفريات التى قام بها المعهد الفرنسى فى القدس ما يسند القول بأن عاداً كانوا ملوكاً للشام . وإن لهم وجوداً أكيداً فيها . إذ ورد فى الكتابات النبطية التى عثر عليها فى خرائب معبد اكتشف على جبل (رم) أن اسم الموضع هو (إرم)[1] فيتضح من هذه الكتابات النبطية أن هذا الموضع من حافظ على اسمه القديم الذى صار يعرف أخيراً برم بدلاً من (إرم)[2] .

وفى عام ١٩٣٢ م . قام (Horsfield) من دائرة الآثار فى المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات فى موضع جبل (رم) ، ويقع على مسافة « ٢٥ » ميلاً إلى الشرق من العقبة ، ويقع المكان الذى بحث فيه عند وادى ، وعلى مقربة منه (عين ماء) ووجد فى جانب الجبل آثار جاهلية قديمة ، وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات « Sayignac » التى قام بها فى ذا المكان ، واكتشافات « كليدن HaroldW. Gljdden » على القول .. إن هذا المكان هو موضع « إرم » الوارد ذكره فى القرآن الكريم[3] والذى كان قد حل به الخراب قبل الإسلام ، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام — مصر — الحجاز[4] .

وينفى الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه — العرب قبل الإسلام — ص ٧٦ أن يكون المنقبون عن الآثار وجدوا فيما عثروا عليه من آثار أى ذكر يتعلق (بعاد) . ويظهر أنه لم يطلع على ما اطلع عليه الدكتور جواد على مما أثبتته

(١) BOASOR ? Number 73. P, 15 .

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ ص ٢٣٤ .

(٣) من الواضح البين أن القرآن الكريم لم يحدد فى الأرض موضع (إرم ذات العماد) التى يقترن اسمها بعاد قال تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ الفجر آية ٦ ، ٧ ، ٨ . ولهذا كان تحديد موقع (إرم ذات العماد) إنما هو محاولة اجتهادية (بمختلف الوسائل) من المفسرين . فليس (إذن) بعيداً عن الصواب أن تكون (إرم ذات العماد) موجودة فى مكان (ما) من الشام وهو ما ذهب إليه بعض الإخباريين الإسلاميين .. وعند ما نقول الشام (تعنى الأقطار المسماة اليوم بـ (فلسطين والأردن وسورية ولبنان) .

(٤) BOASOR ? Number 73. P, 15 .

الحفريات فى الشام من ذكر صريح لعاد (إرم ذات العماد) وما قاله عنهم المؤرخ الشهير (بطليموس) كما تقدم .

ورغم بعض الاضطراب الذى يعتور حديث الإخباريين عن الكيفية التى ملك بها قوم عاد الشام ، فإن هناك ما يشبه الاتفاق بين المؤرخين الإسلاميين واللاتينيين واليونان على أن هناك وجوداً كان لعاد فى الشام ، لا سيما بعد العثور على الآثار التى أظهرتها الحفريات فى فلسطين والأردن والدالة على الاسم الذى يطابق الاسم الذى أطلقه القرآن عليهم وهو اسم (إرم) .

ولا ينفى كون الحفريات أثبت وجود اسم عاد (إرم) مكتوب على الآثار فى فلسطين والأردن وهى (حسب التقسيم الجغرافى القديم) جزء من الشام .. لا ينفى أن تكون هناك آثار أخرى مكتوبة فى مناطق أخرى من الشام كمنطقة (دمشق) التى ذكر بعض الإخباريين العرب أن ملوك عاد (العرب) هم الذين أول من أسسها وبناها .. لا ينفى أن تكون هذه الآثار الدالة على وجودهم موجودة ولكن التنقيبات لم يعثر القائمون بها على شىء منها حتى الآن . وقد يعثرون فى المستقبل عليها . كما عثر عشاق البحث عن الآثار . عن مدن عظيمة فى أمريكا الجنوبية وبعض مناطق آسيا يعود تاريخها إلى آلاف السنين .

المدة التى ملكت عاد الشام فيها

أما المدة التى استمرت فيها الشام فى ظل ملوك (عاد) فلم نر فيما بين أيدينا من مصادر إسلامية أو غير إسلامية ممن أشاروا إلى وقوع الشام ضمن دائرة الجبابرة من ملوك (عاد) — لم نر أحداً فى هذه المصادر ، ذكر المدة والتاريخ اللتين خلالهما استمر ملوك (عاد) حكاماً للشام . وكل ما وجدناه فى هذه المصادر هو الإشارة فقط إلى عناصر من أجيال (عاد) كانوا قد ملكوا الشام .

وبما أن بحثنا فى هذا التمهيد . إنما هدفه إيضاح الصلة الوثيقة القديمة التى كانت للعرب بالشام قبل الإسلام بعدة قرون . مما يؤكد أن الشام كانت

بلداً عربياً قبل الإسلام بالآف السنين ، فإننا نكتفى بهذا القدر من تاريخ (عاد) تلك القبيلة الجبارة العاتية التى لم تبلغ أمة من الأمم حتى اليوم مثلها فى قوة الجسم ومتانة البنية . ومن أراد الاطلاع على تفاصيل تاريخ ملوك هذه القبيلة التى أهلكها الله بالريح الصرصر بعد أن كفرت بالله وكذبت نبيها وأخاها هود (عليه السلام) فليرجع إلى مصادر التاريخ الرئيسية مثل الطبرى والمسعودى وابن خلدون والدينورى وأمثالهم من أئمة التاريخ .

العرب هم سكان الشام الأصليون منذ فجر التاريخ

إنه بعد النظر فى مختلف المصادر التاريخية (إسلامية ولاتينية ويونانية وغيرها) تبين لنا بكل وضوح أن الشام كانت (وظلت) موطناً للعرب منذ عهد (عاد الثانية) حتى سيطرت عليها جيوش الإسلام فى عهود الخلفاء الراشدين . وأن أجيالاً من العرب « رغم تقلب الأحوال فى الشام وتعاقب الأنظمة المختلفة والمد والجزر للذين تعرض لهما سلطان العرب عبر العصور السحيقة جداً فى الشام » ظلت هذه الأجيال العربية هى العنصر الأساسى الذى يتكون منه سكان الشام الأصليون ، وما الرومان وقبلهم الإسرائيليون الذين يظن البعض أنهم سكان الشام الأصليين إلا عناصر دخيلة على الشام بأقاليمها الأربعة (فلسطين والأردن وسورية ولبنان) جاءوا ، إما مما وراء البحار (كالرومان) وإما مما وراء شرقى نهر الفرات أو غربى سيناء (مصر الفرعونية) كالإسرائيليين .

فترات حكم العرب للشام قبل الميلاد وبعده . قبل الإسلام

لقد استدرجنا البحث والتنقيب فى مختلف المصادر عن تاريخ العرب فى الشام قبل الميلاد وبعده ـــ قبل الإسلام ـــ إلى أن نؤلف كتاباً خاصاً بهذا الشأن اسمه (العرب فى الشام قبل الإسلام) ذكرنا فيه بالتفصيل كل ما عثرنا عليه من معلومات على الوجود العربى فى الشام منذ أقدم العصور ابتداء بعهد عاد الثانية حتى ملوك الغساسنة الذين كانوا آخر من حكم الشام من العرب (باسم الرومان) قبل الإسلام .

فليرجع إلى هذا الكتاب . من يهمه الإلمام بتفاصيل الوجود العربى فى هذا الجزء الحيوى من العالم (الشام) الذى يسميه الجغرافيون القدامى (سُرة معالم) . لكونه يحتل مكان وسط المعمورة فى تلك العصور .

أما فى هذا التمهيد ، فإننا سنتحدث (باختصار) عن الوجود العربى فى الشام قبل الإسلام (وبصفة خاصة عن الوجود السياسى والعسكرى) .

عهود الحكم العربى فى الشام قبل الإسلام

يمكننا ــ حسب ما توفرت لدينا من معلومات فى مختلف المصادر التاريخية الإسلامية والإسرائيلية والفارسية واللاتينية واليونانية ــ أن نقسم الوجود العربى الحاكم فى الشام قبل الإسلام إلى عهود رئيسية ثلاثة هى :

١ ــ عهد ما قبل بنى إسرائيل .

٢ ــ عهد ما قبل الميلاد وبعد ظهور بنى إسرائيل .

٣ ــ عهد ما بعد الميلاد حتى دخول الشام فى حوزة الإسلام .

عهد ملوك عاد

فالعهد الأول هو عهد ملوك عاد ولم يعثر أحد حتى الآن من المؤرخين (وبأية وسيلة من الوسائل) على معلومات يمكن عن طريقها معرفة التاريخ الذى به ابتدأ وانتهى ملك هؤلاء العاديين للشام . كما أن أحداً من المؤرخين (شرقيين وغربيين) لم يستطع الحصول على عدد محدد لملوك عاد الذين ملكوا الشام . وكل ما ذكره الإخباريون الإسلاميون أن شداد بن عاد بن عوض بن إرم ابن سام بن نوح ــ والمعبر عنه بعاد الثانية ــ هو أول من انضوت الشام تحت ملكه .

ونظر الكون نبى الله نوح (عليه السلام) هو الجد الرابع لشداد بن عاد الذى هو أول من ملك الشام من العرب (على رأى الإخباريين) ــ وإذا أخذنا بعين الاعتبار الرأى القائل بأن إنسان عصر نوح وعصر جيل العاديين يعيش أكثر

من ألف سنة — وهو رأى صحيح يسنده القرآن الكريم —[1] فأنه يمكن القول .. أن عاداً ملكوا الشام قبل الميلاد بأكثر من عشرة آلاف سنة .

وقد تحدثنا ما أمكننا التحدث عن ملك (عاد) للشام فيما مضى من هذا التمهيد فلنكتف بهذا القدر .

عهود العمالقة

ورغم بعض الاضطراب الذى يعترى حديث المؤرخين عن من الذى ملك الشام من العرب بعد هلاك قوم عاد وانتهاء ملكهم فإنه يكاد يكون من المؤكد أن جيلاً من العمالقة هم الذين ملكوا الشام بعد (عاد) وأن منهم الشاسو (الهكسوس) الذين يطلق عليهم بعض المؤرخين اسم (الرعاة) الذين غزوا مصر عبر سينا وقهروا المصريين ، وأن ملكاً لهؤلاء العمالقة كان فى مصر والشام حوالى ٣٥٠٠ ق. م وأن منهم أيضاً ملوكاً كانوا يحكمون الشام حوالى ٢٠٠٠ ق . م .

ويؤكد المؤرخ اليهودى (يوسفوس) أن الشاسو (الهكسوس) هم من العرب الذين جاءوا من الشام (حسبما نقل عن المؤرخ الإسكندرى مانثون) وغلبوا على مصر وضربوا الجزية على أهلها . وكانوا يصدون محاولات الآشوريين لغزو مصر . وأن هؤلاء الهكسوس (العرب) الذين عبروا سينا إلى مصر من الشام . أقاموا لهم حامية فى مصر فى الحصون والقلاع بلغت ٢٤٠٠٠٠ جندياً .

---

(١) جاء فى القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن نبى الله نوح (وهو الجد الرابع لشداد بن عاد ملك الشام قد ظل يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ ١٤ العنكبوت . فليس إذن من الخرافة ما أشار إليه المؤرخون الإسلاميون من أن ملوك عاد كان الواحد منهم يعيش أكثر من ألف سنة ومنهم عاد بن عوص الذى عاش ألفاً ومائتى عام وأنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد (مروج الذهب ج ٢ ص٤٠-٤١) وأن ابنه شداد استمر ملكه تسعمائة عام . فالقرآن يشهد أن جيل عاد لهم من قوة البنية ما ليس لغيرهم من البشر .

كذلك يذكر الإمام ابن خلدون أن العمالقة كانوا حوالى ٢٠٠٠ ق م ملوكاً للشام وأن القبط استنصروهم . فسيطروا على مصر واستعبدوا القبط . فكان من نسلهم فرعون إبراهيم وفرعون يوسف وفرعون موسى . وإن فرعون إبراهيم اسمه (سنان بن الأشل) وفرعون يوسف اسمه (الريان بن الوليد) وفرعون موسى اسمه (الوليد بن مصعب) . وهى أسماء عربية صريحة .

العمالقة السكان الأصليون للشام

وإذا كان هناك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين (من مختلف الأجناس) على أن ملكاً عظيماً كان للعمالقة فى الشام وما حواليها كمصر والعراق وجزيرة العرب منذ ٤٥٠٠ ق م فإن أحدا من المؤرخين (فيما وصل إلى علمنا) لم يضع أية قائمة لملوك هؤلاء العمالقة الموغلين فى القدم ، ولا جدولاً لسنى حكمهم التى استمروا طوالها ملوكاً على الشام . كما أن أحداً من المؤرخين لم يذكر شيئاً مفصلاً ذا بال عن أعمالهم فى الشام فى تلك العهود السحيقة التى مضى على بدئها أكثر من خمسة آلاف سنة . اللهم إلا ما كان لأحفادهم من الأنباط والتدمريين الذين تحدث المؤرخون (وخاصة المغربيون) عن أعمالهم وعدد ملوكهم وسنى حكمهم بإسهاب وتفصيل .

إلا أن مما لا مشاحات فيه أن نسل العمالقة ظلوا (منذ آلاف السنين) حتى عهد آل أذينة من ملوك (تدمر) هم السكان الأصليين للشام . وأن ملوكاً من أعقابهم ظلوا يحكمون الشام كلها وأجزاء منها أحياناً عبر أحقاب طويلة . كان الملك فيهم (على ما يبدو) بين مد وجزر إلى أن برزت من أعقابهم على مسرح التاريخ بروزاً كبيراً إمبراطوريتان عظيمتان فى الشام هما إمبراطورية (الأنباط) الذين جاء ذكرهم فى التاريخ (كمحاربين) أول ما جاء فى القرن السابع قبل الميلاد . وإمبراطورية آل أذينة الذين أخذ ذكرهم فى الشهرة والنبوغ حوالى عام ٧٠ م إلى أن بلغوا ذروة المجد والسؤدد فى أواخر القرن الثالث للميلاد فى عهد الإمبراطورة زينوبيا (الزباء)[1] .

(١) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) ففيه أوسع التفاصيل عن هاتين الإمبراطوريتين العربيتين .

كذلك مما يدل على أن عنصر العمالقة ظل ذا شأن فى الشام عبر الأحقاب ، ورغم تغلب بعض الأمم الأخرى على الشام . هو أن ما أشار إليه المؤرخون الإفرنج أن ملكاً اسمه (جنيدب) وملكتين اسم إحداهما (زبيبة) والأخرى سمسى (شمس) كانوا يحكمون أجزاء من الشام عام ٨٥٣ ـــ ٧٣٠ ق . م وكانوا جميعاً قد حاربوا الأشوريين(١) . كما تقدم فى هذا التمهيد .

ملوك الأنباط

أما العهد الرئيسى الثانى من العهود الرئيسية للعرب الذين ملكوا الشام فهو عهد الأنباط الذين هم من أحفاد العمالقة العرب .

فقد ظهر هؤلاء الأنباط فى الشام كشعب شديد الشكيمة وذا مقدرة قتالية فائقة كقبائل بدوية شديدة المراس ثم ملوك كوَّنوا لهم إمبراطورية مترامية الأطراف . ظهروا هكذا حوالى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وتعاقب منهم على الملك فى الشام ١٨ ملكاً ، أولهم الحارث الأول تسنم سدة الملك فى منطقة البطرا (البتراء) عام ١٦٩ ق . م وآخرهم ، مالك الثالث تولى الملك من عام ١٠١ حتى ١٠٦ بعد الميلاد .

وقد ازدهر ملك العمالقة الأنباط بالتدريج حتى تحول إلى إمبراطورية مترامية الأطراف شملت الشام كلها وسيناء وجانباً من دلتا النيل . غرباً وما بين النهرين فى العراق شرقاً . وحتى وادى القرى وتبوك وديار ثمود فى الجزيرة العربية جنوباً(٢) .

محاربة الأنباط لليونان

كما قلنا . كان الأنباط شعباً بدوياً محارباً قوى الشكيمة وحتى قبل أن تتكون مملكتهم وينصب عليها ملوك ذو تيجان كانوا كعشائر محاربة قوية الشكيمة . يحاربون الإمبراطوريات ويهزمون جيوشها ففى حوالى عام ٣١٢ ق . م هزمت عشائر الأنباط جيوش الإسكندر المقدونى التى كان يقودها قائد جيوشه

---

(١) Musil, Deserte P. 477, Olmstead, History of Assyria, P. 199.

(٢) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

الشهير (أنطيغونس) حيث أبادوا قوات هذا القائد الذى كان يقودها للسيطرة على عاصمتهم بطرا (البتراء) فهزموه شر هزيمة فنجا بجلدته (وما كاد) ولم يبق معه من جيشه على قيد الحياة سوى خمسين مقاتلاً ، رغم أنه كان يقود فى ذلك الهجوم أربعة آلاف جندى من المشاة ، وستمائة فارس أبيدوا على أيدى عشائر الأنباط ولم يبق منهم سوى قائد الجيش وخمسين جندياً . وذلك على أثر مطاردة عنيفة قام بها عشائر الأنباط للجيش اليونانى . الذى كان قد باغت ديارهم فى حالة غياب المحاربين عنها . فأحرز بعض الانتصارات حيث جاس خلال الديار . وقتل كل من قاومه من الأنباط الذين هاجمهم جيشه وباغتهم فى ديارهم بعد منتصف الليل . واستولى على كل ما وصلت إليه يده من الماشية والذهب والفضة والبخور والتوابل وكل المنقولات . ثم انسحب تاركاً بلاد الأنباط خراباً . فتعقبه المقاتلون منهم الذين كان أكثرهم غائباً ساعة هجوم المقدونيين . فانتقموا من جيش الإسكندر شر انتقام حيث أبادوه عن بكرة أبيه ولم ينج منه سوى خمسين فارسا تمكنوا من الإفلات على صهوات الخيل من بينهم قائد الجيش (أنطيغونس)[١] .

هجوم الأنباط على اليهود واحتلالهم القدس

وكما انتصر الأنباط على المقدونيين عام ٣١٢ ق . م ولقنوهم درساً لا ينسونه . فإنهم (وبقيادة ملكهم الحارث) حاربوا اليهود وأنزلوا بهم الهزائم حتى ضربوا الحصار على أورشليم وطوقوها بخمسين ألفاً من المشاة والفرسان وكادت تسقط فى أيديهم لولا اضطرار الملك الحارث لفك هذا الحصار . ليسوى مابينه وبين الرومان الذين احتل قائدهم (سكورس) دمشق التابعة لمملكة (بطرا) وذلك عام ٦٦ ــ ٦٥ ق . م وفعلاً سوى الملك الحارث ذلك النزاع فصالح الرومان فى ذلك . وعاد الملك الحارث فى ذلك الوقت إلى ضرب الحصار على القدس ، فاحتلها بالاشتراك مع جيوش الرومان الذين نكلوا باليهود وشردوهم بعد أن دمروا أورشليم وخربوا الهيكل وأزالوه من الوجود[٢] .

---

(١) Booth, P. 649, Book, xix, Y1, Kennedy, P. 30-31

(٢) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) بحث تاريخ مملكة الأنباط .

صلة الأنباط بالرومان

أما صلة الأنباط (العرب) بالرومان (قبل الميلاد وبعده) فقد كانت متقلبة ، فقد كان أباطرة روما ، قبل الميلاد وبعده يحاولون القضاء على مملكة الأنباط واحتلال عاصمتهم بطرا (البتراء) لتتم لروما السيطرة الكاملة على الشام ومصر . ولكنهم كثيراً ما يصطدمون بمقاومة عنيفة من ملوك دولة البادية القوية الشكيمة فيكفون عن عدوانهم . فيلجؤون إلى المهادنة وأحياناً إلى محالفة ملوك (البتراء) وعندما يرون أن الفرصة قد سنحت لهم لضرب ملوك الأنباط والإطاحة بهم لا يترددون فى ذلك لذلك كانت الحرب (إن نشبت) بين عرب البتراء وبين الرومان سجالاً . وكثيراً ما يُلحق الأنباط أشنع الهزائم بالرومان ومن يحالفهم ضد ملوك (البتراء) مثلما فعلوا بـ (هيروديس اليهودى) عميل الرومان وعاملهم على مملكة (يهوذا) والذى (بمساندة الرومان) حاول إخضاع الملك العربى (الحارث) ملك بطرا (البتراء) فاصطدمت جيوش الحارث بجيوش (هيروديس) على حدود مملكة الأنباط . وتم النصر الساحق لملك الأنباط (الحارث) على هيروديس . حيث شتت شمل جيوشه . فاستنجد (هيروديس) بسيده (طيباريوس) قيصر روما ليعينه للقضاء على الملك العربى (الحارث) فحاول القيصر إنجاد (هيروديس عميله) لتدمير مملكة الأنباط . فتحرك القائد الرومانى فيتليوس (Vitellius) بأمر من القيصر لنجدة (هيروديس) ومساندته فى محاولته القضاء على ملك الأنباط (الحارث) . ولكن القائد الرومانى عجز عن تنفيذ المهمة . فلم يتمكن من إنجاد (هيروديس) فظل مكسور الجناح يجتر آلام الهزيمة الشنعاء التى أنزلها به ملك البتراء العربى الحارث . حتى تضعضع حال الملك (هيروديس) فقبض عليه الرومان ــ بعد أن غضبوا عليه ــ ثم نفوه إلى أسبانيا مبعديه بذلك عن عرشه فى مملكة إسرائيل الواقعة ضمن دائرة النفوذ الرومانى .

حدثت هذه الأحداث الخطيرة عام ٣٦ ــ ٣٧ بعد الميلاد .. هكذا جاء فى تاريخ اليهودى (يوسيفوس) ص ٢١٤ ــ ٢١٥[١] .

(١) انظر مزيداً من التفاصيل فى كتاب العلامة البحاثة جواد على (تاريخ العرب قبل الإسلام) ج ٣ ص ٤٠ وما بعدها . وانظر أيضاً كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

كما أن الأنباط تضطرهم الظروف أحياناً إلى مهادنة الرومان وبصورة أقرب إلى الخضوع والتبعية . وأحياناً إلى المصادقة والتحالف والمشاركة فى حروب ضد عدو مشترك .

الرومان يزحفون إلى بطرا فيصالحهم ملكها العربى

ففى حوالى عام ٤٧ قبل الميلاد وفى عهد ملك الأنباط (مالك الأول) تعاظم سلطان الرومان فى الجهات الشمالية من الشام . فطمع قائدهم (سكورس Scaurus) فزحف بجيوش كثيفة قاصداً إسقاط الملك النبطى (مالك الأول) وتدمير عاصمة ملكه بطرا (البتراء) وبقية مدنه .

فلما بلغ الملك (مالك) نبأ هذا الزحف الشامل ــ وكان مالك هذا حكيماً بعيد النظر ــ قام بمعادلة بين قواته وبين قوات (سكورس) الرومانى الزاحفة . فرأى أنه من الانتحار مقاومة الرومان والإصرار على محاربتهم لأن جيوش المملكة غير قادرة على مقارعة جيوش القيصر . فراسل القائد الرومانى وجرت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالصلح بين الأنباط والرومان على أن يدفع ملك الأنباط للرومان مبلغاً من المال . وتم على أثر ذلك التحالف بين الرومان والأنباط . كان موقف الأنباط فى هذا التحالف (دونما شك) أشبه بموقف التابع . رغم بقاء المملكة مستقلة فى البتراء .

يدل على هذه التبعية القائمة فى صورة تحالف . أن ملك الأنباط (مالك الأول) شارك بقوات من جيشه جيوش يوليوس قيصر فى حصارها للإسكندرية عام ٤٧ قبل الميلاد . وذلك فى عهد ملكة مصر الخليعة (كلوبطره) صاحبة أنطونيو والتى قضى القيصر عليها وأزال ملكها .

الرومان يطيحون نهائياً بمملكة الأنباط

ورغم ما يبديه الرومان من صداقة لملوك الأنباط . فإن أطماعهم فى السيطرة على مملكة البتراء العربية ظلت كامنة فى نفوسهم . فظلوا لذلك يتحينون الفرص لإزالة هذه المملكة العظيمة من الوجود . فكانوا يفشلون فى كل محاولة يقومون بها لتحقيق أطماعهم . بسبب تماسك الأنباط وقوة شكيمتهم لكون الروح البدوية القتالية فى نفوسهم متأصلة باقية ، والبادية فى كل زمان ومكان يكونون أشد الناس صبراً على القتال وحفاظاً على الكرامة .

غير أن الترف وروح الدعة والتمتع بلذائذ التمدن القاتلة حلت (بمرور الزمن) محل التقشف وخشونة البادية بين مختلف طبقات الشعب النبطى ، فهبطت الروح القتالية العالية التى كان يمتاز بها الجند البدوى النبطى وكانت مصدر هيبته التى كانت تملأ نفوس الرومان فيتهيبون الاعتداء على الأنباط رغم قلة عدد المحاربين من هؤلاء الأنباط . وكثرة الرومان الغامرة .

وعندما شعر الرومان بركون الأنباط إلى الترف وبهبوط روحهم القتالية التى كانوا يمتازون بها . قامت جيوشهم (بمساندة المصريين) بالزحف على مملكة الأنباط ، فلم يجدوا منهم تلك المقاومة الشرسة التي يلقونها منهم فى مختلف العصور . لذلك أزال الرومان (وبسهولة) مملكة الأنباط من الوجود بعد أن احتلوا (ولأول مرة) عاصمة ملكهم الصخرية الجبلية (البتراء) وذلك فى عهد الإمبراطور (تراجان) عام ١٠٦ بعد الميلاد وكان الملك النبطى الذى قضى الرومان على المملكة فى زمانه هو مالك الثالث وهو الثامن عشر من ملوك الأنباط[١] .

مملكة تدمر العربية

تدمر (بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم) مدينة صحراوية بالشام وهى تقع فى أطراف البادية التى تفصل الشام عن العراق ، وكأنها واحة فى الصحراء أو جزيرة فى الماء ، تبعد عن دمشق ١٥٠ ميلا نحو الشمال الشرقى ، ونحو مائة ١٠٠ ميل من حمص ، وسفر خمسة أيام على الإبل من الفرات ، شكلها منبسط تحيطها جبال تفصل بينها وبين صحراء البادية الممتدة من أطرافها .

فتدمر عبارة عن أطراف بادية من الشمال ، فكل ما وراءها نحو الجنوب رمال قاحلة ، لا ماء فيها ولا نبات ، كانت تلك البادية مثلثاً . رأسه (تدمر) فى الشمال وساقاه حدود العراق فى الشرق ، ومشارف الشام فى الغرب وقاعدته شمالى جزيرة العرب[٢] .

---

(١) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .
(٢) العرب قبل الإسلام ص .

متى بنيت ومن الذى بنى تدمر ؟

إن هدفنا من هذا التمهيد إنما هو إعطاء القارئ لمحة عن صلة العرب (بتدمر العتيدة) ثم صلة عرب تدمر بالشام كلها ، ثم صلة عرب تدمر بالرومان قبل الإسلام . ومع ذلك فإننا لا نرى مانعاً من أن نتحدث (باقتضاب) عن كيف ومتى ومن الذى قام ببناء مدينة (تدمر) .

تدمر وملك آل أذينة

أما العهد الرئيسى الثالث من عهود الوجود العربى فى الشام وأعظمها « قبل الإسلام » فهو عهد أسرة آل أذينة التى كانت عاصمة ملكهم « تدمر » بالشام .

وآل أذينة من جيل عربى صميم يرجح أنهم من بقايا العمالقة الذين كان لهم دور عظيم (بعد هلاك قوم عاد) فى حكم الشام والعراق والناحية الشرقية من مصر والشمالية والوسطى من جزيرة العرب .

وكذلك شعب تدمر هو شعب عربى صميم « ورغم بعض الأقوال الواهنة التى تزعم أن الزباء ملكة تدمر هى من نسل رومانى أو فرعونى »[(١)] .

فهناك اتفاق بين الإخباريين الإسلاميين والباحثين المؤرخين الغربيين من رومان ويونان على أن أهل مملكة « تدمر » ــ شعوباً وملوكاً هم عرب أقحاح . رغم وجود بعض الجاليات غير العربية بينهم كاليهود وأمثالهم من الأجناس الأخرى .

فوجود هذه الجاليات غير العربية أمر طبيعى فى مدينة عظيمة ذات ازدهار تجارى عظيم مثل تدمر التى كانت « لقرون طويلة المضخة التجارية الرئيسية التى منها وعبر قنواتها تتلقى أسواق العالم الرئيسية السلع والبضائع » .

شعب تدمر العربى

أما الشعب العربى الذى يمثل سكان مملكة تدمر . فهو خليط من بقايا مختلف قبائل العرب الموغلة فى القدم « العمالقة عاد ، نهد ، قضاعة ، سليح ،

---

(١) انظر تحقيق المقام فى هذا الشأن كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

وحلوان » وكذلك الجيش الرئيسى للمملكة يتكون من هؤلاء العرب هكذا صرح العلامة ابن خلدون فى تاريخه[1] .

والإخباريون الإسلاميون جميعهم . « تقريباً » يقولون هذا القول الذى يقوله ابن خلدون .

وقد نسب ابن خلدون والمسعودى أسرة آل أذينة « حكام وملوك تدمر » إلى العمالقة ، فقال كلاهما فى نسب زينوبيا « الزباء » أعظم ملوك آل أذينة شأناً . قالا .. هى الزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوثر العملاقى[2] .

أما المؤرخون اليونان والرومان . فلا خلاف بينهم فى أن شعب تدمر « حكاماً ومحكومين » هم من العرب . وقد استنتجوا هذه الحقيقة وأثبتوها بطريقة لا تقبل الشك . من الكتابات والنقوش التى وجدوها على آثار تدمر القائمة حتى اليوم والتى حل خبراؤهم رموزها وترجموا أحرفها ، فوجدوها مسجلة أسماءاً عربية لشخصيات بارزة من الملوك والقادة والأمراء والمعبودات لديهم .

وقد أكد البحاثة الكبير المختص ببحث تاريخ العرب قبل الإسلام الدكتور جواد على فى كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » وكذلك الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه « العرب قبل الإسلام » كلاهما أكدا ، أن مملكة تدمر مملكة عربية رغم الطابع الرومانى اليونانى والآرامى الغالب على كثير من حالاتها الثقافية والعمرانية[3] .

من الذى بنى مدينة تدمر ؟

لقد اختلف الإخباريون الإسلاميون فى من الذى بنى مدينة « تدمر » كما اختلفوا فى تحديد الوقت الذى بنيت فيه هذه المدينة الموغلة فى القدم ، واسم الذى كان أول من بناها .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤ ٤ ٥ نشر دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣ ٩ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٣) انظر أوسع التفاصيل عن مملكة (تدمر) فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

وتلك عادة المؤرخين والإخباريين فيما يختص بتاريخ الشعوب والمدن التى كانت قبل الإسلام بعهود طويلة ، وخاصة إذا كانت خارج محيط جزيرة العرب .

فقد ذكر ياقوت فى معجمه أن البعض يزعم أن تدمر مما بنته الجن لنبى الله سليمان بن داود (عليه السلام) ، ويعقب ياقوت على هذا الزعم فيقول .. ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن ومن ناحية أخرى يزعم أهل تدمر أن بناء مدينتهم كان قبل نبى الله سليمان بأكثر مما بيننا وبين سليمان وقيل سميت « تدمر » باسم امرأة اسمها « تدمر بنت حسان ابن أذينة بن السميدع بن نزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح » ثم يقول ياقوت وهى من عجائب الأبنية ، موضوعة على العمد الرخام(١) .

وهناك أقاويل كثيرة يذكرها الإخباريون حول من الذى شيد هذه المدينة العظيمة « تدمر » .

والذى لا خلاف فيه هو أن آثار تدمر العظيمة الباقية حتى اليوم تدل على قوة وعظمة الأمة التى قامت ببناء هذه المدينة .

ويدل فحص الخبراء المختصين لآثار تدمر على أن هذه المدينة قد بنيت وأسست قبل الميلاد بقرون طويلة ، ويرجح أنها كانت منذ القرن السادس « قبل الميلاد » محطة للقوافل التجارية بين الشرق والغرب . وبين مناطق الشرق نفسها ـــ جزيرة العرب والعراق وإيران ومصر والهند وآسيا الصغرى والحبشة أيضاً ـــ إلا أنها لم تبلغ أوج مجدها السياسى والتجارى إلا فى أوائل القرن الثالث للميلاد وحتى أواخر هذا القرن حيث قضى الإمبراطور « أورليانوس » على مملكة تدمر التى بلغت من العظمة والقوة إلى أن زحفت ملكتها الداهية الشجاعة زينوبيا (الزباء) بجيوشها فعبرت البوسفور وحاصرت القسطنطينية قاصدة احتلال روما نفسها فصمد لها الإمبراطور المذكور ، فأخرجها عن التراب الأوروبى ، وما زال أمرها فى تأخر . حتى تحصنت فى عاصمتها « تدمر » ثم استسلمت للرومان بعد حصار دام ثلاث سنوات ، وبعد ضروب من الشجاعة والبسالة والثبات أذلت مجلس الشيوخ فى روما . وجعلت

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ١٧

الإمبراطور الذى كان يحاصرها يكتب لمجلس الشيوخ فى روما ـــ حين وجهوا إليه اللوم لعجزه ثلاث سنوات عن اقتحام مدينة تتولى مسئولية الدفاع عنها امرأة ـــ « .. إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب . إننى أحارب وأحاصر امرأة إذا حاربت فهى أرجل من الرجال »[1] .

تدمر قبل ملوك آل أذينة

مما لا جدال فيه أن بقايا العمالقة من العرب كانوا هم المسيطرين على مدينة تدمر وما حواليها من الصحراء وكانوا يحكمون تلك المنطقة قبل الميلاد بعدة قرون . إلا أنه لا فى التاريخ الإسلامى ولا فى التاريخ الأوروبى وجد « قبل ملوك آل أذينة » اسم حاكم من حكام تدمر ، رغم مرور قرون عديدة قبل الميلاد على الوجود العربى فى هذه المدينة وما حواليها من بادية الشام .

غير أن سياق المؤرخين الغارفين من المصادر اليونانية والرومانية تشير إلى أن تدمر كانت عريقة فى الحضارة والسيادة والملك وأنها كانت قبل الميلاد تحكم من قبل مجلس شيوخ من أهلها العرب ، على الطريقة اليونانية وإنها كانت مملكة نموذجية فرئيس مجلس الشيوخ فى « تدمر » قبل الميلاد « وقبل أن يتسلط عليها الرومان » يسمى « البرويدروس » .

وهو تعبير يونانى[2] .

تدمر والرومان

وطوال قرون متعاقبة حاول الرومان إدخال « مملكة تدمر العربية » ضمن ممتلكات ما وراء البحار التابعة لروما ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً حتى عام ١٣٠ بعد الميلاد إذ استولى عليها الإمبراطور هدريان وغير اسمها إلى هادريانا بالميرا .

وكانت آخر محاولة فاشلة قام بها أباطرة الرومان قبل الميلاد للاستيلاء على مملكة تدمر هى تلك المحاولة التى قام بها الإمبراطور « ماركس أنطونيوس » فى

(١) انظر كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

(٢) العرب قبل الإسلام . . تعليقاً للأستاذ حسين مؤنس . . وانظر مزيداً من التفاصيل عن هذا الموضوع فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، حيث قاومه وهزمه جيش تدمر بقيادة مشايخ من العمالقة الذين منهم تنحدر أسرة آل أذينة أبرز ملوك تدمر الذين فى عهدهم « فى القرن الثالث بعد الميلاد » بلغت تدمر قمة الحضارة والسيادة والمجد .

بين البتراء وتدمر

ويظهر أن شأن « تدمر » كان فى عهود ملوك بطرا « البتراء » من الأنباط خاملاً بسبب عظمة سلطان إمبراطورية الأنباط الذين تقع عاصمتهم فى جنوب الشام نفسها والتى كانت طوال عدة قرون قبل الميلاد وبعده فى صراع مع روما التى قضى أباطرتها عليها عام ١٠٦ ب . م كما فصلناه فيما مضى من هذا التمهيد .

غير أنه يمكن القول .. أن « تدمر » أخذت « منذ أواخر القرن الأول بعد الميلاد » تستعيد حيويتها ونشاطها . حيث أخذت مملكة الأنباط فى ذلك العهد فى الضعف والتفكك . وما زالت تدمر تأخذ صعداً فى النمو والازدهار حتى صارت أعظم محطة للقوافل التجارية وقلب العالم الوحيد النابض بالتجارة بين مختلف أقطار الشرق والغرب . وخاصة فى عهود الأسرة المالكة من آل أذينة .

ملوك تدمر البارزين

ومما لا جدال فيه أنه كان هناك « منذ أن سيطر هدريان على تدمر عام ١٣٠ ب. م » صراعاً بين شعب تدمر وبين المحتلين الرومان ولكن لم يصل إلى علمنا كيف كان مستوى هذا الصراع اللهم فى عهود آل أذينة الذين قضوا فى النهاية على سلطة الاحتلال الرومانى .

وإذا كانت بطرا (البتراء) عاصمة الأنباط العرب قد دلت آثارها « جنوب الشام » على أن ١٨ ملكاً تعاقبوا على عرش مملكة الأنباط ، فإن تدمر « رغم أنها أعظم شأناً من البتراء سواء من الناحية السياسية أو الحضارية أو العسكرية » فإنه لم يرتبط اسمها (فى مجال شهرة الحكم والسياسة والحرب) إلا بأسماء أشخاص أربعة من أهلها العرب العمالقة وهم :

١ ــ أذينة وهو الأكبر .. ولم يذكر المؤرخون « على ما وصل إلى علمنا » هو أذينة ابن من . وإنما يطلق عليه اسم أذينة الأكبر . على أساس أن له ابناً خلفه فى الملك والسلطان اسمه أذينة أيضاً .

٢ ــ أذينة بن أذينة . وهو أذينة الأصغر .

٣ ــ وهب اللات بن أذينة الأصغر .

٤ ــ الزباء واسمها عند الرومان واليونان « زينوبيا » وهى زوجة أذينة الأصغر ووالدة وهب اللات والوصية عليه باعتباره خلف أباه على العرش وهو قاصر لم يبلغ مبلغ الرجال .

العصر الذهبى فى تاريخ تدمر بعد الميلاد

رغم أن آثار « تدمر العربية » تدل على أنها كانت ذات حضارة عريقة ومجد تليد عريقين فى القدم ، إلا أن العصر الذهبى الذى عاشته « تدمر » ــ كما هو فى مصادر التاريخ الرومانى واليونانى لا العربى الذى كانت مصادره ليس فيها شىء ذو بال عن هذا العصر الذهبى ــ العصر الذهبى هذا الذى عاشته « تدمر » بعد الميلاد يمكن القول إنه بدأ بعهد أذينة الأكبر وتعاظم فيه مجد أسرة آل أذينة حتى بلغ القمة فى عهد الملكة الأسطورة زينوبيا « الزباء » .

يبدأ هذا العصر فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث للميلاد . أى فى عهد الملك أذينة الأكبر . وهو أول حاكم من آل أذينة أطلق عليه اسم « ملك » بعد الميلاد ، وبعد أن أخضع الإمبراطور « هدريان HEDRIAN شعب تدمر لسلطان روما وقضى على حكمه الوطنى

الرومان يغتالون أول ملوك تدمر

فمنذ عام ١٣٠ بعد الميلاد « وهو العام الذى تمت فيه السيطرة الكاملة للرومان على تدمر » والشعب التدمرى ذو النجدة والبأس يتململ تحت وطأة الحكم الأجنبى ، ولا يخفى نفوره وتبرمه بسيطرة الرومان الغرباء على بلاده .

ولم تغب هذه الحقيقة عن بال أباطرة « روما» ، فكانوا لذلك يخشون هذا الشعب المحارب الشرس القوى البدوى ذا الروح القتالية الجارية فيه مجرى الدم فى عروقه . فهو من نسل العرب العمالقة الذين كانوا « ولقرون طويلة » سادة

المشرق « مصر والعراق وأرمينيا وآسيا الصغرى وشمال ووسط وشرقى الجزيرة العربية » .

لذلك ولكى يكبحوا من جماح هذا الشعب العربى المحارب .. صاروا يتوددون إلى زعيمه آن ذاك « أذينة الأكبر » .

ففى أواخر الأربعينات من القرن الثالث للميلاد . منحت روما « أذينة الأكبر » الحاكم باسمها على « تدمر » ، منحته لقب عضو مجلس شيوخ .

ولكن ذلك لم يعجبه كوطنى مخلص وفىّ لبلاده وشعبه ، يرفض « فى قرارة نفسه » أن يكون أداة — عن طريق هذا اللقب لقب عضو مجلس الشيوخ — لقهر شعبه وإخضاعه للاستعمار الرومانى .

لذلك تخلّى عن عضويته فى مجلس الشيوخ أى أنه رفض قبول هذا المنصب الذى منحته روما إياه .

ولم يكتف أذينة الأكبر بتحدى الرومان حين رفض اللقب الذى منحوه وهو عضوية مجلس الشيوخ ، بل ذهب فى التحدى إلى أبعد من ذلك . حيث خلع على نفسه « بمساندة شعب تدمر » اسم « ملك » .

وكان أذينة الأكبر شجاعاً باسلاً أحبه قومه من أهل المدينة الخالدة « تدمر » وأيده وأعطاه ولاءه كل مشايخ قبائل البادية المحيطين فى الصحراء بالعاصمة « تدمر » . وكانوا جيلاً محارباً ذا قدرة قتالية ممتازة .

فصار يعمل سراً « وبمساندة شيوخ القبائل وأهل تدمر نفسها » على التخلص من كابوس الاستعمار الرومانى الذى جثم على صدر شعب « تدمر » منذ عام ٣٠ ب.م..

ووصل إلى علم مجلس الشيوخ فى « روما » وهو السلطة العليا فى الإمبراطورية الرومانية . وصل إلى علمه ، ما يقوم به أذينة الأكبر من مساع لتحرير تدمر والشام كلها من نير الاحتلال الرومانى .

ولما كان أذينة الأكبر هو الحاكم الفعلى « لتدمر » رغم ارتباطه وتبعيته فى الظاهر لروما ، فإن الرومان رأوا « ولظروف سيئة مختلفة كانت عليها دولتهم فى أوربا نفسها » أن ليس من مصلحتهم أن يلجأوا إلى محاربة أذينة الأكبر الذى

تحدّاهم وأعلن نفسه ملكاً على تدمر . لذلك لجأوا للتخلص منه إلى أيسر الطرق فاغتالوه عام ٢٥١ بعد الميلاد .

وكان الذى تولى اغتياله أحد القادة الرومان اسمه « روفينوس » . وذلك بأمر من قيصر روما . وبهذا الاغتيال ظن الرومان أنهم أزاحوا من أمامهم فى المشرق خصماً عنيداً بإزاحته سيصفو لهم الجو هناك . غير أن صنيعهم هذا كان بداية النهاية لسيطرتهم لا على الشام وحدها بل على المشرق كله[١] .

أذينة الأصغر الملك الثانى لتدمر

ترك الملك أذينة الأكبر بعد اغتياله ولدين ذكرين اسم أحدهما خيران وهو الأكبر ، واسم الثانى أذينة ، وهو الأصغر .

وبعد مصرع الملك أذينة الأكبر فى تلك الظروف التى أرادها الرومان أن تكون غامضة ولكنها كانت واضحة حيث بات واضحاً لأسرة آل أذينة وكل شعب « تدمر » أن مصرعه كان بتدبير من روما .. بعد مصرع أذينة الأكبر نصب الرومان خيران واسمه عند الرومان « سبتيميوس » نصبوه خلفاً لأبيه حاكماً على « تدمر » بعد أن منحوه لقب رئيس مجلس الشيوخ فى تدمر .

ولم يذكر التاريخ أن خيران هذا كان ذا شأن فى تاريخ « تدمر » . بل كان خامل الذكر . لم يقم بأى عمل يرفع من شأنه . فلم يحرك ساكناً لمقتل أبيه حتى مات عام ٢٥٨ ب . م بعد أن ترك ولداً صغيراً اسمه « معنى » .

وكان أذينة أصغر من أخيه « خيران » ولكنه كان قوىَّ العزيمة بعيد الهمة شجاعاً طموحاً نيّر الذهن خارق الذكاء .

وبحكم ظروف البيئة العشائرية التى عليها أهل تدمر . اضطر الرومان إلى تولية أذينة بن أذينة خلفاً لأخيه ، حاكماً بالنيابة عنهم على تدمر وقد منحوه لقب قنصل . وهو لقب عال فى عرف التقاليد الرومانية . وكان تولى أذينة الأصغر حكم تدمر فى عهد القيصر « والريانوس » عام ٢٥٨ م .

---

(١) انظر تفاصيل قصة اغتيال الملك أذينة الأكبر فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

أذينة الأصغر يسمى نفسه ملك الملوك ويقهر الفرس والرومان سوياً .

لم تكن فاتحة عهد أذينة الأصغر فاتحة صفاء ووئام مع الرومان « كما أرادوا » بل كانت فاتحة خصام وتنافر انتهت برضوخ الرومان واعترافهم بسلطة أذينة الأصغر وقبولهم أن يكون السيد الحقيقى للمشرق ، مع بقاء ارتباط اسمى له بروما . أزيل هذا الارتباط الاسمى نهائياً فى عهد زوجة أذينة الأصغر والوصية على ابنه القاصر الملك « وهب اللات » والتى قضت على الوجود الرومانى فى المشرق نهائياً ، بل وزحفت بجيوشها عبر البوسفور قاصدة احتلال روما .

حقد أذينة الأصغر على الرومان

لما كان أذينة الأصغر الذى منحه الرومان لقب قنصل يعلم أن القائد « روفينوس » هو الذى دبر اغتيال والده الملك أذينة الأكبر . أبت نفسه السكوت على هذه الجريمة . فكتب إلى قيصر روما وكان آنذاك « والريانوس » أن يقتص من قاتل أبيه . القائد « روفينوس » .

غير أن القيصر تجاهل طلب أذينة الأصغر ، ولم يهتم له . فغاظ ذلك هذا الأمير الشاب الطموح الشجاع فحقد على الرومان أشد الحقد . ولكنه كتم غيظه . فى انتظار الفرصة المواتية للانتقام من الرومان والانقضاض عليهم وطردهم من بلاده .

أذينة الأصغر سيد المشرق وقاهر الفرس والرومان

وفعلاً واتت أذينة الأصغر الفرصة الذهبية فاهتبلها . وعن طريقها قفز إلى القمة فصار سيد المشرق يهابه الفرس والرومان على السواء .

فقد صادف أن شنّ الرومان الحرب على الفرس « وهى حرب تقليدية ما زالت قائمة بين الإمبراطوريتين العتيدتين حتى أزالهما المسلمون من الوجود فى وقت واحد » . شن الرومان الحرب على الفرس . وزحفت جيوشهم بقيادة القيصر فعبرت البوسفور واخترقت آسيا الصغرى حتى وصلت « الرها » بالقرب من الفرات . وكانت الجيوش الرومانية تتحرك بقيادة القيصر « والريانوس » الذى احتقر أذينة الأصغر فلم يستجب لطلبه المتضمن إنزال

العقاب بمغتال أبيه أذينة الأكبر .

وأثناء زحف القيصر لاحتلال مملكة فارس . صار يتودد إلى أذينة الأصغر ليكون وعشائر تدمر وقبائل الصحراء المحيطة بها عوناً له فى حربه ضد الفرس . لذلك منح القيصر أذينة أعلى الرتب وأغدق عليه الخلع والهدايا بسخاء كبير .

ولكن أذينة الغاضب الطموح لم يحفل لهذه الخلع والهدايا ففرّقها فى شيوخ العشائر ورؤساء القبائل الذين أحبوه ومنحوه كل ولائهم لما فطر عليه من الشجاعة والنجدة . بل ظل الحقد يعمل فى نفسه على الرومان وعلى القيصر والريانوس بوجه خاص .

وسنحت الفرصة الذهبية للأمير الشاب « أذينة الأصغر » فاهتبلها . فضرب عصفورين بحجر . حيث ساعدته الأقدار على أن يجبر الرومان على محالفته والاعتراف به سيد المشرق . وعلى أن يهزم الفرس ويذلهم وينزل الهزائم بهم . فيقهر النقيضين فى آن واحد .

وقوع القيصر أسيراً

فقد نشبت معركة فاصلة « فى الرها » بالقرب من الفرات بين الفرس بقيادة الملك « سابور » وبين الرومان بقيادة الملك « والريانوس » انتهت بانتصار الفرس على الرومان انتصاراً ساحقاً . تُوِّج هذا الانتصار بوقوع القيصر نفسه أسيراً فى أيدى قوات الملك سابور . فعاد به إلى عاصمته « المدائن » أسيراً . وذلك عام ٢٥٩ .

وقد اغتبط أذينة الأصغر بالنكبة التى نزلت بالقيصر وجيوشه التى فرقتها الهزيمة فى « الرها » ، فكتب إلى سابور يهنئه بالنصر ، ويعرض عليه أن يكون وإياه يداً واحدة على الرومان لطردهم نهائياً من الشرق .

ولكن كبرياء سابور ملك الفرس وغطرسته . جعلته يقابل عرض الأمير الطموح « أذينة الأصغر » بالإهانة والاحتقار . حيث كتب يؤنبه . كيف يجرأ « وهو البدوى المتأخر » أن يخاطب ملك الملوك سابور ، مخاطبة الند للند . بدلاً من أن يقدم له فروض الطاعة والخضوع والولاء . أليس سابور . هو الذى هزم جيوش روما وقبض على قيصرها أسيراً ؟

هنا ثارت ثائرة ذلك العملاق العربي « أذينة » فقرر أن يثبت لكسرى الأهوج المتغطرس « عملياً » من هو « أذينة بن أذينة » سليل العمالقة . فعقد العزم على الانتقام من القيصر .

فتناسى « مؤقتاً » ما بينه وبين الرومان من خصومة . فأبلغهم أنه قرر محاربة ملك الفرس سابور . وإنه يقبل أن يكون وإياهم يداً واحدة على ذلك « الكسرى المتغطرس » .

ولما كان الرومان فى حالة إعياء مادى ونفسى للهزيمة المدمرة التى أنزلها سابور بهم . اغتبطوا اغتباطاً شديداً للتحول الجذرى فى سياسة « أذينة » الذى أبلغهم أنه قرر محاصرة المدائن عاصمة الفرس وإطلاق سراح القيصر الأسير فيها « والريانوس » . فأمدوه بقوة مما تبقى من جيوشهم فى المشرق . واعترفوا به سيداً على الشام كلها . كحليف لروما . لأنهم كانوا فى حالة لا تسمح لهم إلا بأن يستجيبوا لطموح الأمير أذينة . وكان الذى خلف القيصر الأسير « والريانوس » هو القيصر ابنه « فاليونوس » .

يسمى نفسه ملك الملوك

حشد الأمير أذينة بن أذينة جيشاً عرمرما من القبائل الأشداء الشجعان التدمريين . تساندهم بعض القوات الرومانية ، ثم تولى أذينة بنفسه قيادة ذلك الجيش . وتحرك به نحو بلاد الفرس . ولما علم سابور « ملك الفرس » سارع وتحرك بنفسه من عاصمته المدائن على رأس جيش من الفرس . وهو لا يشك لحظة فى أنه سيسحق قوات أذينة الذى كان يسميه « البدوى الحافى » .

غير أن ظنون الكسرى المغرور خابت . حين التقى به أذينة فيما بين النهرين « دجلة والفرات » وأنزل به هزيمة منكرة . كاد فيها سابور نفسه أن يقع أسيراً فى يد الأمير أذينة بن أذينة . لولا أنه ركن إلى الفرار مع فلول جيشه تاركاً نساءه وأمواله وأسلحة جيشه غنيمة بين يدى الأمير أذينة .

وبعد هذا الانتصار الساحق الذى سجله الأمير العربى « أذينة على الفرس » خلع على نفسه لقب « ملك الملوك » وهو لقب مختص « فقط » بأكاسرة الفرس . وذلك من أذينة إمعاناً فى إذلال الملك سابور .

أذينة يحاصر عاصمة الفرس

ولم يكتف الملك أذينة بتحرير المناطق الواقعة ما بين النهرين وتطهيرها من حكم الفرس . بل ذهب إلى أبعد من ذلك فعبر النهر . وضرب الحصار على المدائن عاصمة الفرس مرتين وكادت تسقط فى يده لولا اضطراره إلى فك ذلك الحصار . والتوجه إلى حمص . لمعالجة تمرد قام به أحد القادة الرومان ضده فقضى على ذلك التمرد . حيث قتل القائم به . ثم قرر العودة لضرب الحصار على عاصمة الفرس بغية احتلالها ولكن القدر عاجله حيث لقى مصرعه فى حمص على يد ابن أخيه خيران واسمه « معنّى » وذلك فى عام ٢٦٧ م .

وقد قتل مع الملك أذينة ابنه « هيروديس » فى عملية الاغتيال .

غير أن أهل حمص « لما يتمتع به الملك أذينة بينهم من احترام » لم يمهلوا ابن أخيه القاتل حتى ألحقوه به ، فلم يكد معنّى بن خيران يعلن نفسه ملكاً على الشام حتى هبرته سيوف أهل حمص فقضوا عليه وعلى العصابة التى ساندته فى اغتيال عمه الملك الشجاع المحبوب أذينة بن أذينة .

ومن الجدير بالذكر أن الملك أذينة لم يمت حتى وصل سلطانه إلى سواحل البحر الأسود بآسيا الصغرى حيث قهر جيشه قوات القوط الذين نزلوا فى اليابسة من البحر الأسود قاصدين احتلال آسيا الصغرى والشام كلها مغتنمين فرصة انشغال الملك أذينة بمحاصرة طفسون « المدائن » عاصمة الفرس .

وبمصرع الملك أذينة بن أذينة انطوت صفحة من أروع صفحات البطولة والطموح والشجاعة والحزم والحنكة السياسية المتمثلة فى ذلك الملك الذى عاجلته المنية وهو فى عنفوان الشباب[1] .

الملكة الزباء سيدة المشرق

كان أذينة بن أذينة الملك الثانى لتدمر . قد تزوج من فتاة من أسرة آل

---

(١) انظر مزيداً من التفاصيل عن تاريخ هذا الملك الشاب العظيم فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

أذينة ، عالية الهمة شديدة الحزم نيّرة الفكر واسعة الأفق على مستوى رفيع من الثقافة ، فكانت له فى حياته خير عون . كان يثق بها إلى أبعد الحدود ، لذلك كان ينيبها عنه فى إدارة شؤون مملكته المترامية الأطراف ، كلما اضطرته الظروف إلى مغادرة العاصمة تدمر ، لمباشرة حرب ضد أى من خصومه سواء كانوا من الفرس أو من الرومان . تلكم هى ملكة « تدمر » الذائعة الصيت التى يسميها المؤرخون الإسلاميون « الزباء » ويسميها المؤرخون الرومان واليونان « زينوبيا » .

الملكة الوصية على عرش ابنها

كان الملك الشاب أذينة الأصغر ، قد رزق من زوجه الزباء « زينوبيا » ثلاثة أبناء كلهم ذكور . وكانوا جميعاً عندما جرى اغتيال والدهم الملك « أذينة » دون سن الرشد ، وكان أكبرهم سناً ابنه « وهب اللات » .

لذلك بايعه أركان مملكة تدمر ملكاً خلفاً لأبيه . ولما كان وهب اللات « كما قلنا » قاصراً دون سن الرشد قرر مجلس الشيوخ فى « تدمر » أن تكون أمه الزباء « زينوبيا » وصية عليه تدير شئون المملكة نيابة عنه .

تدمر تبلغ ذروة المجد فى عهد الزباء

سارت الملكة الزباء على خطى زوجها الشاب الملك أذينة من حيث الشجاعة والطموح وشدة الحزم واليقظة وحسن التدبير .

ورغم أن زوجها الملك الشاب فارق الحياة وهى فى ريعان الشباب فإنها لم تفكر فى الزواج بعده بل رضيت الترمل فعاشت لأبنائها « وبشهادة المؤرخين الرومان واليونان » كانت الزباء « رغم ترف الملك وعزة السلطان » مثال العفة والاستقامة ، والبعد عن المجون .

بل صرفت كل اهتمامها إلى تنشئة أبنائها « وخاصة الملك الصغير وهب اللات » على الفروسية وتوسيع الثقافة ، والتدرب على شئون الحكم . وقد بلغ بها الاهتمام بتربية ابنها الملك الصغير « وهب اللات » إلى أن جعلته يبلغ فى الثقافة إلى إجادة اللغة اللاتينية ، وكانت هى نفسها تجيد اللغة اللاتينية واليونانية والمصرية . وكانت تدرب ابنها على تعلم أصول سياسة الملك ليصبح

« كأبيه » فى مصاف القياصرة والأكاسرة .

الملكة الزباء تحتل مصر وتعبر البوسفور

لم يقف الطموح بالملكة الزباء « الأسطورة » عند حدود الاحتفاظ بحدود المملكة الواسعة المترامية الأطراف التى أسسها زوجها « أذينة بن أذينة » بل دفعت بها همتها العالية وشجاعتها النادرة إلى أن تقود الجيوش بنفسها ، فتسجل من الانتصارات العظيمة ما جعلها تضيف أقاليم جديدة واسعة شاسعة إلى رقعة الملك الذى أسسه زوجها . الأمر الذى جعل المؤرخين « اليونان والرومان » يطلقون على مملكة « تدمر » فى عهد الملكة « الزباء » اسم « إمبراطورية » ويسمون الملكة الزباء « زينوبيا » باسم « الإمبراطورة » ويلقبونها بسيدة المشرق .

ففى عهد الملكة الزباء أزيل « نهائياً » الوجود الرومانى السياسى والعسكرى من المشرق .

فقد أنشأت أسطولاً بحرياً عظيماً حمل من شواطئ الشام سبعين ألف مقاتل لاحتلال مصر وذلك بقيادة ساعد زوجها الأيمن والوفى لآل أذينة القائد الشهير « زَبْدا » الذى ضرب الحصار على الإسكندرية ثم فتحها وسيطرت قواته على مصر كلها ، وبذلك أصبحت مصر إقليماً تابعاً لسلطات الإمبراطورة « الزباء » وذلك حوالى عام ٢٦٨ ب . م .

كما احتلت جيوش الإمبراطورة الزباء العراق أيضاً وجعلته إقليماً تابعاً لتدمر .. كذلك سيطرت جيوشها على الجزء الشمالى الغربى من جزيرة العرب حيث وصلت قواتها إلى تبوك ودومة الجندل[١] .

آسيا الصغرى تسقط فى يد الملكة الزباء

ولم تكتف الإمبراطورة العربية العجيبة بإضافة هذه الأقاليم الشاسعة فى الشرق والغرب والجنوب إلى رقعة إمبراطوريتها ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك حيث زحفت بجيوشها واحتلت كل آسيا الصغرى « تركيا اليوم الآسيوية » .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٩٧ .

وهكذا لم يأت عام ٢٨٠ ب . م حتى أصبحت الملكة « الزباء » تحكم الرقعة الشاسعة الممتدة من البحر الأسود ومضيق البوسفور فى الشمال حتى حدود النوبة فى الغرب بأفريقيا ، وتيماء ودومة الجندل بجزيرة العرب فى الجنوب ، وحدود إيران فى الشرق .

وهكذا بلغ ملك آل أذينة العمالقة من السمو والعلو والاتساع فى عهد الإمبراطورة « الزباء » ما لم يبلغه فى أى عهد من عهودهم . فقد كانت هذه الملكة الفذة « كما وصفها الإمبراطور أورليانوس » إذا حاربت أرجل من الرجال .

أما الحالة الاقتصادية والتجارية والعمرانية والثقافية فقد بلغت فى عهدها القمة ، فكانت تدمر العاصمة فى عهد الزباء تزرى بروما فى كثير من النواحى . وذلك بفضل تلك الملكة التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً بين ملوك وملكات الشرق « قبل الإسلام » .

فشل الرومان فى استعادة ممتلكاتهم من الزباء

عندما بلغت الملكة الزباء هذه المنزلة وأصبحت سيدة المشرق بكل معانى هذه الكلمة . وخاصة بعد أن أزالت آخر أثر للوجود الرومانى فى التراب الآسيوى كله . شعرت روما بالهوان الذى لم تشعر بمثله حتى فى أسوأ الظروف التى كانت فيها جيوش الإمبراطورية الفارسية تنزل الهزائم بجيوش روما على حدود العراق أو فى الشام . إذ لم تستطع جيوش الفرس فى أقسى ظروف الجيوش الرومانية أن تقضى على سلطان الرومان فى الشام فضلاً عن آسيا الصغرى . بينما استطاعت الملكة العربية (الزباء) أن تفعل ذلك كله فى فترة وجيزة لا تتعدى الست سنوات .

ولهذا فإن الرومان لم يسكتوا على ذلك الهوان الذى أنزلته بهم تلك المرأة الأعجوبة الملكة الزباء . فقد حاولوا أن يستعيدوا ممتلكات روما فيما وراء البحار من يد الإمبراطورة (الزباء) . ولكنهم لخوفهم من الملكة الزباء ولعلمهم بما هى عليه من قدرة وحسن تدبير جبنوا عن مواجهتها مواجهة عسكرية مكشوفة أول الأمر . لذلك حاولوا خداعها تحت ستار بقايا الصداقة التى كان

زوجها قد عقدها مع الرومان عندما قرر محاربة سابور ملك الفرس . فقرر مجلس الشيوخ فى روما أن يبعث بجيش كثيف . إلى الشام هدفه فى الظاهر استئناف الحرب ضد الفرس . بينما فى الباطن هدفه القضاء على سلطان الإمبراطورة (الزباء) بأيسر التكاليف وعن طريق الخداع .

وقد أبلغ مجلس الشيوخ فى روما الملكة الزباء بهذا القرار . وتحرك من روما جيش ضخم بقيادة القائد « هرقليانوس » غير أن الحيلة لم تنطل على الإمبراطورة الزباء « داهية المشرق » التى قد تأكد لديها بطرقها الخاصة أن الهدف من الحملة الرومانية التى نزل جنودها « فعلاً » فى اليابسة من آسيا إنما تهدف إلى الإطاحة بمملكة تدمر .

لذلك سارعت الملكة إلى تجهيز جيش ضخم من التدمريين وإخوانهم من بقية القبائل العربية . وقادته بنفسها لمواجهة الجيوش الرومانية التى أخذت تتحرك فى آسيا الصغرى . وفعلاً قامت الملكة الزباء « وبأسلوب عاجل صاعق » بمهاجمة القائد الرومانى « هرقليانوس » قبل أن يهاجمها . فأنزلت بجيشه هزيمة ساحقة كاد فيها « هرقليانوس أن يقع أسيراً فى يد الزباء » لولا أنه نجا بجلدته هرباً تاركاً قائده العام قتيلاً فى ساحة الميدان وجيشه ممزقاً بين قتيل وأسير .

نهاية الملكة الزباء

وعادت الملكة الزباء إلى عاصمة ملكها « تدمر » مرفوعة الرأس بعد أن وضعت طابع الإذلال والإهانة على قفا الإمبراطورية الرومانية فى معركة « هرقليانوس » . وارتفعت الأصوات فى روما مستنكرة بهياج أشد الاستنكار .. كيف تقدر أنثى على أن تذل الإمبراطورية الرومانية إلى هذا الحد الذى لم يصل إليه أباطرة الفرس « خصوم إمبراطورية روما التقليديون » حتى فى أعظم الانتصارات التى تسجلها جيوشهم فى المشرق على روما ؟ .

وجاء فى مصادر التاريخ الرومانى . أن أعضاء مجلس الشيوخ فى روما « وهم يحتفلون بتتويج الإمبراطور كلوديوس » صاحوا بعد أن طردت الزباء آخر جندى لروما فى المشرق . أنقذنا يا « كلوديوس » من زينب « يعنون

الزباء » . غير أن القيصر « كلوديوس » ظل عاجزاً أمام قوة الزباء ولم يستطع استعادة شبر من ممتلكات روما التى وقعت فيما وراء البحار فى يد الملكة الزباء . بل لقد اضطر القيصر « كلوديوس » إلى مهادنة تلك الملكة الداهية الشجاعة الطموح . خوفاً من أن تزحف بجيوشها على روما نفسها ، لأن جحافل التدمريين العرب كانت قد بلغت شواطئ البوسفور والبحر الأسود على مداخل أوربا الشرقية ، وقد بلغوا ذروة نشوة انتصارهم . وكما هى سنة الله فى خلقه « على الله أن لا يرفع شيئاً إلا وضعه » فإن الملكة الزباء لم تستمر فى قمة مجدها الذى بلغته ، فقد شاء الله أن يأخذ هذا المجد الذى بنته بسرعة خارقة مذهلة فى الانحسار بنفس السرعة حتى ضرب قيصر روما « أورليانوس » الحصار على تدمر عاصمة إمبراطورية الزباء « وبعد حصار دام ثلاث سنوات ، وبعد بطولات خارقة أبدتها الملكة الشابة وجيشها الوفى ، فى معارك طاحنة خاضتها الملكة بنفسها حول أسوار القسطنطينية وفى أنقرة وخلقدونية وإنطاكية وحمص » ، استسلمت العاصمة (تدمر) لجيوش القيصر (أورليانوس) ووقعت الإمبراطورة الزباء وكل أسرة آل أذينة فى الأسر وذلك عام ٢٧٣ للميلاد[١] .

وعاشت الإمبراطورة (الزباء) فى إيطاليا وأبناؤها بقية حياتهم حتى طواهم العدم ، وبذلك انطوى بساط أعز ، وأقوى ، وأرقى مملكة عربية فى الشام قبل الإسلام[٢] .

قضاعة فى الشام

وهناك جيل من العرب كان لهم وجود فى الشام قبل الإسلام ، وهم عرب (قضاعة) من نسل حمير من القحطانيين .

ويظهر أنهم كانوا موجودين فى الشام قبل الميلاد ، إلا أن أحداً من المؤرخين لم يحدد تاريخ تواجدهم فى الشام ، وتاريخ نزوحهم إليها من جنوب الجزيرة العربية (موطنهم الأصلى) .

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على (موطن الحديث عن سقوط تدمر) .

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن التاريخ السياسى والعسكرى والثقافى والعمرانى لمملكة الزباء فى كتاب (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

وكانوا فيما يبدو « وعلى الأرجح) قوماً رحلاً أول الأمر ، ويظهر أنهم كانوا على وفاق مع مملكة تدمر قبل الميلاد وبعده ، بدليل أن العلامة ابن خلدون ذكر فى تاريخه ج ٢ ص ٥٤٤ أن من بين جنود الملكة الزباء أناس من بنى سليح وحلوان وكلهم من قضاعة .

مشيخة أم مملكة

وخلاصة القول أنه كان للقضاعيين بالشام فى فترة ما بعد الميلاد وجود سياسى وعسكرى ، وأطلق بعض المؤرخين عليهم اسم ملوك قضاعة فى الشام .

غير أن الأقرب إلى الصواب أن مملكة القضاعيين فى الشام أقرب ما تكون إلى المشيخة الكبيرة أطلق عليها (تجاوزاً) اسم مملكة . كمملكة أكيدر الكندى فى دومة الجندل التى هى فى واقعها مشيخة لا مملكة .

مساحة مملكة أو مشيخة قضاعة فى الشام

والذى يرجح القول بأن مملكة قضاعة فى الشام أشبه بالمشيخة منها بالمملكة . أنهم :

١ ـــ كانوا تبعاً للرومان طيلة وجودهم فى الشام يجمعون لهم الضرائب ويجندون لهم الجنود من أبنائهم ليكونوا ضمن الجيوش الرومانية فى حروبها ضد أعدائها من الفرس وغيرهم .

٢ ـــ كانت مملكة أو مشيخة قضاعة . مساحتها ضيقة جداً (إذا ما قيست بمساحة مملكة آل أذينة أو حتى الغساسنة الذين أزالوا وجود قضاعة السياسى والعسكرى من الشام) .

فقد كانت مملكة قضاعة تشمل فقط الشريط الضيق من الشام الممتد على حدود الجزيرة العربية وهى (فقط) منطقة مؤاب ومعان ومؤتة وما حواليها من مشارف الشام والتى تمثل اليوم (فقط) لواء واحد من ألوية المملكة الأردنية الهاشمية المسمى (بلواء الكرك أو البلقاء) فى الجنوب . لذلك أطلق المؤرخون الإسلاميون على مملكة قضاعة فى الشام كلمة (مشارف الشام) .

ملوك قضاعة

ويذكر الإخباريون . أن عائلتين من قضاعة تعاقبتا على الملك فى مشارف وهما الشام عائلة (تنوخ) وعائلة (الضجاعم) .

فكان من (تنوخ) على مشارف الشام ثلاثة ملوك هم :

١ ـــ النعمان بن عمرو بن مالك .

٢ ـــ عمرو بن النعمان بن عمرو .

٣ ـــ الحوارى بن النعمان .

ومن عائلة الضجاعم (الذين أزالوا ملك أبناء عمومتهم) ملوك ثلاثة أيضاً ، هم :

١ ـــ النعمان بن عمرو بن مالك .

٢ ـــ مالك بن النعمان .

٣ ـــ عمرو بن مالك .[١] .

وبعضهم يذكر أن ملوك الضجاعم خمسة لا ثلاثة . فيضيفون إلى الملوك الثلاثة المذكورين اسم ملكين هما الملكة (مارية أو ماوية)[٢] و (زياد بن هبولة)[٣] .

آثار ملوك قضاعة فى الشام

أما آثار قضاعة الحضارية أو العمرانية . أو السياسية أو أعمالهم الحربية أثناء وجودهم شيوخاً أو ملوكاً فى مشارف الشام ، فلم نجد لها أى ذكر فى أى مصدر من مصادر التاريخ الإسلامى أو الرومانى . وكل ما ذكره المؤرخون . أن قضاعة ملكت مشارف الشام فترة من الزمن ، وأنهم كانوا منصبين على مشارف الشام من قبل الإمبراطورية الرومانية ، وأن أمرهم انتهى على أيدى أبناء عمومتهم الغساسنة فى أواخر القرن الثالث للميلاد[٤] .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦ والمعارف ٢١٥ .

(٢) مجلة الشرق العدد ١١ عام ١٩٠٧ م ص ٥٢٤ السنة العاشرة ، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام (موطن البحث فى تاريخ ملوك قضاعة) .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢ ٥ .

(٤) انظر مزيداً من التفاصيل عن تاريخ قضاعة وصلة ملوكها بالشام والعراق والخليج فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

وهكذا فإن دور القضاعيين فى الشام (كحكام وملوك) كان ــ قبل الإسلام ــ دوراً غير ذى بال إذا ما قيس بأدوار من قبلهم من العرب « كأسرة آل عاد والعمالقة من الأنباط والتدمريين الذين كان دورهم ــ أعنى التدمريين ــ أعظم الأدوار فى التاريخ العربى فى الشام قبل الإسلام » .

قضاعة شعب محارب قوى

غير أن الذى تجب الإشارة إليه . هو أن قضاعة رغم زوال ملكهم فى الشام قبل الإسلام على أيدى الغساسنة ، فقد ظلوا يستوطنون مشارف الشام (منطقة مؤتة ومعان ومؤاب وما حواليها) ويؤلفون مع إخوانهم الذين ــ ظلوا حتى ظهور الإسلام يستوطنون الركن الشمالى الغربى لجزيرة العرب ــ ظلوا يؤلفون شعباً قوياً محارباً بدرجة ممتازة . قوامه مجموعة من العشائر منهم تتلاحم فى منطقتى الحدود بين الشام والجزيرة العربية .

ورغم تتويج الرومان للغساسنة ملوكاً على الشام (بما فى ذلك المواطن التى كان يملكها القضاعيون) فإن الرومان ظلوا يعتمدون على قضاعة كقوة بشرية ذات قدرة قتالية ممتازة ، فى حروبهم ضد خصومهم بالإضافة إلى اعتمادهم على تابعيهم من الغساسنة .

ولا أدل على إثبات هذه الحقيقة من أن القوة الرئيسية العربية التى قاتلت المسلمين فى معركة (مؤتة الحاسمة) لحساب الرومان ، كانت من قضاعة الذين كانوا رأس الحربة فى الجيش الرومانى الذى خاض ــ ضد المسلمين ــ معركة مؤتة فى البلقاء بقيادة الأمير تيودور أخو الإمبراطور (هرقل) عام ثمان للهجرة . حيث كان قائد العرب المتنصرة (وأكثرهم من قضاعة) فى هذه المعركة ، أحد سادات قضاعة ، واسمه مالك بن رافلة . وقد لقى مصرعه فى هذه المعركة . كما سيأتى تفصيله فى كتابنا هذا إن شاء الله .

كيف انتهت قضاعة فى الشام

أما كيف انتهى ملك قضاعة فى مشارف الشام فليس فيما بين أيدينا من مصادر تاريخية (إسلامية أو أجنبية) أية تفصيلات عن الطريقة التى بها تغلب الغساسنة على القضاعيين وحلوا محلهم فى الشام اللهم إلا ما ذكره

الإمام ابن خلدون وحمزة الأصفهانى من أن آخر ملوك قضاعة من الضجاعم واسمه (سبيط) لما طالب الغساسنة بالجزية التى كانوا يدفعونها للضجاعم ، التقى به أحد الغساسنة الشجعان واسمه (جذع) فقال لسبيط ، ألا تقبل سيفى هذا (كان السيف مذهباً مقبضه وجفنه) بدلاً من الجزية التى تريد منا ؟ . قال سبيط : بلى . فقال جذع : خذه . فمد سبيط يده ، وتناول غمد السيف ، فاستل جذع الغسانى نصله وضرب به سبيطاً فقتله ، فقيل خذ من جذع ما أعطاك . وذهبت مثلاً ووقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحاً من الشام وصاروا ملوكها[1] .

وهكذا انتقل ملك العرب فى الشام من بنى حمير إلى بنى كهلان[2] .

الغساسنة فى الشام

الغسانيون هم جيل من العرب من القحطانيين أصلهم من اليمن ، يرجع نسبهم إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وهم أبناء عمرو بن عامر (مزيقيا) الملقب (بماء السماء) أحد ملوك مأرب والذى تفرق أبناؤه فى مختلف أقاليم الجزيرة العربية والشام والعراق (بعد انهدام سد مأرب) ومنهم اللخميون ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام .. وكذلك الأوس والخزرج الذين صاروا فيما بعد أنصار رسول الله ﷺ .

فعمرو بن عامر (ملك مأرب) هو أبو الملوك الذين ملكوا الشام والعراق . أما اسمه فهو (عمرو بن عامر) مزيقيا ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس (البطريق) بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[3] بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢ ص ٢٩٧ وتاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ج ص ٩٩ طبعة مكتبة الحياة ، ببيروت .

(٢) لأن قضاعة من حمير بن سبأ ، وغسان من كهلان بن سبأ .

(٣) الذى تجدر الإشارة إليه أن الأزد هم من أعظم قبائل العرب وأكثرها سؤدداً وانتشاراً على الإطلاق . منهم أزد (عمان) وأزد السراة (غامد وزهران وكل سكان سلسلة جبال السراة) وأزد (الأوس والخزرج) وأزد (لخم وجذام ملوك الحيرة) وأزد (غسان وهم ملوك الشام) وأزد (طيء) وهى من أعظم قبائل شمال الجزيرة ، وأزد (خزاعة بمكة وما حواليها) .وكان لهم شأن عظيم فى تثبيت دعائم الإسلام ، ومنهم المحارب الشهير داهية حروب الخوارج « المهلب بن أبى صفرة » .

سبب تسميتهم بغسان

والأرجح أن غسان الذى أطلق على من يسمون بهذا الاسم ، ليس اسم رجل ، وإنما هو اسم لماء فى إحدى المناطق بجنوب الجزيرة (اختلف فى تحديد موقعها) . قالوا : فكل من ورده من أبناء الأزد أطلق عليه وعلى من تناسل منه اسم (غسان) (انظر معجم قبائل العرب للأستاذ رضا كحالة ج ٣ ص ٨٨٤ وما بعدها) وانظر أيضاً (تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨١) .

كيف ومتى جاء الغساسنة إلى الشام

تقدم فى هذا التمهيد أن أجيالاً من العرب كانت تسيطر على الشام وتحكمها منذ فجر التاريخ (عاد الثانية قبل بنى إسرائيل بقرون طويلة) . (الأنباط منذ عهد هيروديس اليهودى عميل الرومان قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الثانى للميلاد) وعائلة آل حسان (أسرة أذينة) حتى أواخر القرن الثالث للميلاد . ثم القضاعيون من حمير الذين كانوا آخر من ملك (من العرب قبل الغساسنة) الشام ، أو بالأحرى (مشارف الشام) حتى نافسهم الغساسنة وحلوا محلهم فى امتلاك الشام (تحت النفوذ الرومانى) بعد حروب خسرها الغساسنة وخضعوا لذلك (فترة من الزمن) للقضاعيين يؤدون الأتاوة (الجزية) لهم حتى تغلب الغساسنة نهائياً وأزالوا ملك القضاعيين بعد أن قتل أحد محاربيهم الفُتّاك (جذع الغسانى) سبيطاً القضاعى عندما طلب منه الجزية التى اعتادت قضاعة أن تأخذها من الغساسنة .

أما متى جاء الغساسنة إلى الشام ، فليس هناك تحديد دقيق لتاريخ مجيئهم إليها ، غير أن مما لا خلاف فيه أن نزوحهم إلى الشام إنما كان بعد الميلاد لأن انهيار سد مأرب الذى تفرق بعده أبناء الملك (ماء السماء مزيقيا) ــ ومنهم الغساسنة ــ إنما كان فى أوائل القرن الأول للميلاد[1] .

مواطن الغساسنة بعد انهدام السد وقبل نزوحهم إلى الشام

غير أن الذى تميل إليه النفس بالمقارنة هو أن الغساسنة لم ينزلوا الشام ويستوطنوها إلا فى أوائل الستينات من القرن الثانى للميلاد .

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جورجى زيدان .

لأن الغساسنة (بعد تفرقهم عقب انهدام سد مأرب) لم يرحلوا رأساً إلى الشام . بل ذهبوا إلى تهامة شرق البحر الأحمر وهناك تغلبوا على من بها من ملوك عك بن عبد الله بن عدثان (بالثاء المثلثة) هكذا ضبطه الدارقطنى[1] وهناك تغلبوا على من بها من العرب من ملوك عك بن عدثان وهم (بنو عك ابن عدثان بن عبد الله بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان) وكان نزولهم ببلاد عك ما بين زبيد وزمع ، وبعد حروب دارت بين الفريقين كانت الغلبة فيها للغساسنة بعد أن قتلوا ملك عك قتله ثعلبة بن عمرو مزيقيا[2] .

الغساسنة فى بلاد عدنان

ويشم من رائحة حديث الإخباريين أيضاً أن الغساسنة قبل أن يستوطنوا الشام (وبعد رحيلهم من مأرب) كان لهم وجود عسكرى واستيطان ثابت فى بلاد معدّ بن عدنان بعد حروب خاضوها هناك . وهذا يعنى أن الغساسنة (قبل أن ينزحوا إلى الشام) حاربوا العدنانيين كما حاربوا بنى عك بن عدثان أبناء عمهم من القحطانيين فى تهامة . الأمر الذى يرجح القول : إنهم لم يستوطنوا الشام إلا بعد مرور أكثر من ١٥٠ سنة على تركهم مأرب وقد تركوها فى أوائل القرن الأول للميلاد .

فقد نقل ابن خلدون عن المسعودى . أن الغساسنة ــ بعد رحيلهم من مأرب ــ نزلوا بين بلاد الأشعريين وعك على ماء يقال له .. (غسان) بين واديين يقال لهما .. (زبيد وزمع) فشربوا من ذلك الماء فسموا (غسان) وأن حروباً كانت بينهم وبين معد (أى معد بن عدنان) إلى أن ظفرت بهم معد فأخرجوهم إلى الشراة وهو جبل الأزد فى الشام .[3] .

كيف تواجد الغساسنة فى الشام

ليس هناك (كما قلنا هنا) تحديد دقيق للتاريخ الذى استوطن فيه الغساسنة الشام ، لأن ما ذكره المؤرخون عن تاريخ هذا الجيل من العرب فيه

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج٢ ص ٥٨١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨١ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨١ ــ ٥٨٢ .

كثير من الاختلاف وشيء من التناقض . مع إجماعهم على حقيقة واحدة لا سبيل إلى الاختلاف فيها وهى أن الغساسنة قد استوطنوا الشام لعدة قرون من الزمن حتى جاء الله بالإسلام وأن عدة ملوك منهم قد ملكوا الشام بعد الميلاد وقبل الإسلام طوال عدة مئات من السنين .

ذلك أمر متفق عليه ولا خلاف فيه بين المؤرخين الإسلاميين والغربيين الإفرنج رغم اختلاف الفريقين فى عدد ملوك الغساسنة وعدد السنين التى ظلوا فيها ملوكاً للشام . حيث يرى حمزة الأصفهانى أن عدد ملوكهم اثنان وثلاثون ملكاً ومدة ملكهم ستمائة سنة[1] بينما يرى المؤرخ الألمانى نولدكه أن ملوكهم لا يزيدون على عشرة ملوك حكموا الشام مدة تقل عن مائتى سنة[2] .

بينما يرى أبو الفداء فى تاريخه من جهة أخرى أن ملكهم لم تزد مدته على ٤٠٠ أربعمائة سنة . ويرى المسعودى فى مروج الذهب . أن ملوكهم لا يزيدون على عشرة . وهذا يتفق مع ما قاله الأستاذ الألمانى (نولدكه) وعند ابن قتيبة أنهم ١١ أحد عشر ملكاً ، والجرجانى يقول إنهم (فقط) تسعة ملوك [3] .

كل هذا الاختلاف لا يؤثر فى جوهر الحقيقة وهى أن الغساسنة كانوا ملوكاً للشام قبل الإسلام لسنين طويلة .. والإخباريون لهم العذر فى هذا الاختلاف . لأن تاريخ ما قبل الإسلام إنما كانت مصادره مصادر أجنبية كالفارسية والرومانية والإسرائيلية والسريانية . لذلك لم يكن تسجيل الإخباريين لإخبار ما قبل الإسلام بالدقة التى كانت عليها بعد الإسلام ، حيث استحدث المسلمون أدق طريق للحصول على الأخبار الصحيحة وهى طريقة السند والرواية التى اعتمد عليها أئمة المؤرخين مثل ابن إسحاق والواقدى والطبرى وابن سعد الذين لا يقبلون من الأخبار إلا ما كان عن طريق من يثقون به .

أما كيف تواجد الغساسنة فى الشام ، فالمرجح ــ واستناداً إلى البيئة التى كانوا عليها أنهم لم يأتوا إلى الشام كجيوش نظامية غازية فاتحة .

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٩ ٩ .

(٢) Noeldeke 53 .

(٣) انظر العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان ص ١ ١ ٢

وإنما جاءوا (أول الأمر) على شكل بدو رحل وكان مجيئهم (على أقرب الأقوال إلى الصواب) فى القرن الثانى للميلاد ، فاستوطنت عشائرهم أول الأمر المناطق الجنوبية من الشام والمتاخمة لجزيرة العرب والمسماة (بمشارق الشام) . ونزلوا البادية .

خضوع غسان لملوك قضاعة من الحميريين

وصادف أن الغساسنة جاءوا إلى الشام (وهم من كهلان بن سبأ كما تقدم) .. جاءوا إليها والسيطرة الفعلية على مشارفها لجيل من إخوانهم القحطانيين ــ تنوخ والضجاعم ــ وهم من أبناء (حمير بن سبأ) أبناء عمومة الغساسنة ، والمنافسون التقليديون لهم فى الملك حتى فى اليمن ..

وكان الغساسنة ــ بحكم انتمائهم إلى ملوك مأرب وأنهم كما يسميهم الإخباريون ــ « رهط الملوك » عندما استقر بهم المقام فى مشارف الشام الجنوبية ــ وكانوا دونما شك عنصراً محارباً ذا قدرة قتالية ممتازة ــ كانوا عندما استقر بهم المقام فى مشارف الشام حاولوا أن ينتزعوا (بقوة السلاح) ما بأيدى أبناء عمهم الحميريين من سلطان هناك بعد أن طالبوهم بالأتاوات فقاومهم أبناء عمهم القضاعيون ، فدارت الحرب بينهم (دونما أى تدخل من الرومان الذين كانت الشام فى حقيقتها آن ذاك مرتبطة بالتاج البيزنطى لأن الرومان كانوا وقت الصراع بين الغساسنة والقضاعيين فى شغل شاغل بمحاربة الفرس) ثم آل أذينة من أهل تدمر .

وكان القضاعيون لا يقلون عن رهط الملوك من الغساسنة من حيث الطموح والشجاعة والقدرة القتالية حيث كانوا هم أيضاً جيلاً محارباً ممتازاً ، أليسوا هم كذلك من نسل ملوك حمير ؟ رحلوا قبل الغساسنة من جنوب الجزيرة العربية (اليمن) وغلبوا على مشارف الشام بقوة السلاح ؟

لذلك قاوم القضاعيون أبناء عمهم الغساسنة حتى قهروهم وتغلبوا عليهم إلى درجة ألزموهم معها أن يدفعوا لهم الأتاوة (الجزية) كدليل على خضوعهم لهم .

وبعد أن دارت الدائرة على غسان أقروا بالصغار لقضاعة فى مشارف

الشام[1] واستمروا يؤدون الأتاوة مدة غير قصيرة ، بعدها عاد ونشب الصراع المسلح بينهم من جديد بعد أن تمكن أحد فتّاك غسان وهو (جذع بن عمرو بن المجالد) من قتل رئيس القضاعيين من الضجاعم ، وهو سبطة بن المنذر بن داود وفى هذه المرة تغلب الغساسنة على القضاعيين فأزالوا سلطانهم وغلبوا على ما كان بأيديهم فى مشارف الشام[2] وذلك (على ما يبدو) فى أواخر القرن الثالث للميلاد .

الغساسنة والرومان

يمكن القول .. إن الشام قد دخلت فى حوزة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الأول قبل الميلاد ، غير أن الرومان ـــ منذ ذلك العهد ـــ وعرب الشام يسببون لهم المتاعب . وخاصة الأنباط أهل بطرا (البتراء) .

فقد كان هؤلاء الأنباط أصحاب السلطان المطلق على الشام منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، بدليل أنهم فى ذلك العهد هزموا الإسكندر المقدونى حين سحقوا جيوشه التى حاولت إخضاعهم بقيادة القائد اليونانى أنطيغونس ، الذى أبادوا كامل جيشه البالغ أربعة آلاف مقاتل ، والذى لم ينج من جنوده سوى القائد أنطيغونس وخمسين فارساً .

وقد ظل العرب الأنباط (منذ دحرهم لجيوش الإسكندر) فى القرن الرابع قبل الميلاد سادة الشام حتى شمل سلطانهم كل أجزاء سوريا وجزأ من مصر وأجزاء من شمال الجزيرة العربية .

ومنذ بدأت الأطماع فى السيطرة على المشرق تختلج فى نفوس أباطرة روما (قبل الميلاد) كان هؤلاء الأباطرة يحاولون قهر العرب الأنباط وانتزاع الشام منهم ، فجردوا عليهم عدة حملات كان نصيبها جميعاً الهزائم والاندحارات ، فاضطر الرومان إلى مهادنة العرب الأنباط ، حتى ضعفت فى نفوسهم الروح القتالية التى يمتازون بها والتى مصدرها الخشونة القبلية البدوية التى أذهبها عنهم وأذابها فى نفوسهم ركونهم إلى الدعة والترف وهنا اغتنم الرومان هذا الضعف

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣ ٨ ٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣ ٨ ٥ .

الطارئ فقضوا على سلطان الأنباط وذلك لعام ١٠٦ م[١] .

رغم قضاء الرومان على مملكة الأنباط العرب ورغم الاستقرار النسبى الذى نعم به الرومان فى الشام فى فترة ما بين أوائل القرن الثانى حتى أواخر القرن الثالث للميلاد ، فإنهمْ ظلوا عرضة للمتاعب التى كان البدو من عرب الشام يسببونها لهم حيث كانوا يشنون الغارات الخاطفة على طرق قوافلهم والأطراف النائية عن عواصم أقاليم الشام ثم يوغلون فى الصحارى وشغاف الجبال فلا يقدر عليهم الرومان .

ولعل أعظم المتاعب بل أعظم النكبات التى أنزلها جيل من العرب بالرومان فى الشام قبل دوران الغساسنة فى فلك هؤلاء الرومان ، هو ما أصابهم على أيدى بقايا العمالقة من أسرة آل أذينة المنحدرين من أصلاب السميدع العمليقى . وخاصة فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الثالث للميلاد حيث أزالت الملكة الزباء الوجود الرومانى بكل أشكاله من الشام وعبرت بجيوشها البوسفور مصممة على احتلال روما نفسها . لولا أن القدر أنقذ الرومان بأن تولى أمرهم إمبراطور حازم عنيد هو (أورليانوس) فاستعاد سلطان الرومان المفقود فى الشام وقضى على مملكة آل أذينة إلى الأبد[٢] .

الرومان يقرون الغساسنة على ما فى أيديهم :

والمرجح أن الغساسنة جاءوا إلى الشام وانتزعوا الأمر من أيدى أبناء عمهم القضاعيين فى الجنوب ، فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورية الرومانية تصارع ملوك آل أذينة فى سوريا من أجل استرجاع سلطان روما على الشام . وذلك حوالى عام ٢٤٨ للميلاد فى عهد أذينة الأكبر .

ومنذ ذلك العهد صار الغساسنة حكاماً على مناطق محدودة من الشام تتم توليتهم من قبل أباطرة الروم ، غير أنهم كانوا شبه مستقلين بمشيخاتهم التى أطلق عليها الإخباريون (تجاوزا) اسم ممالك .

---

(١) أنظر مزيداً من التفاصيل عن مملكة العرب الأنباط فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

(٢) أنظر أوسع التفاصيل عن حروب ملوك تدمر مع الإمبراطورية الرومانية فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

عدد وسنى ملوك الغساسنة فى الشام

أما عدد الملوك منهم والمدة التى كانوا يتداولون الملك فيها بالشام فقد اختُلف فيه اختلافاً كبيراً كما هو الشأن بالنسبة لأحداث ما قبل الإسلام فمن المؤرخين (كما تقدم) من يقول : إنهم ٣٢ ملكاً ومنهم من يقول : إنهم ١٠ ومنهم من يقول : إنهم ٩ ومنهم من يقول : إنهم ١١ .

أما مدة ملكهم فلم أر أحداً من المؤرخين حاول ضبطها سوى اثنين من المؤرخين كلاهما يبذل الجهد فى الدقة والتحرى .

أحدهما حمزة الأصفهانى وهو من أقدم محققى الإخباريين المسلمين ، فقد ذكر فى كتابه (تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء) أن عدد ملوك غسان فى الشام ٣٢ ، وأن مدة حكمهم كانت ستمائة سنة[١] .

والآخر الباحث الألمانى (نولدكه) وهو محقق ألمانى بذل مجهوداً كبيراً فى تحرى تاريخ العرب قبل الإسلام فقد ذكر نولدكه أن عدد ملوك غسان هم (فقط) عشرة ملوك ، وأن مدة حكمهم للشام كانت أربعمائة سنة فقط[٢]

أما من ناحية كون ملوك الغساسنة فى الشام بلغوا ٣٢ ، كما ذكره حمزة ، فذلك غير مستبعد . لأن كلمة ملك والتى أطلقها الإخباريون إنما كانت (تجاوزاً) وليست بمعنى أن الشام كلها ليس لها سوى ملك عربى متوج واحد فى كلّ عصر . وإنما تعنى فى واقعها كلمة (أمير) لأن الغساسنة (منذ جاءوا إلى الشام) وهم يأتمرون بأمر أباطرة الرومان ويحكمون مناطق الشام باسمهم ، وملوك الرومان لا يمكن أن يسمحوا لتابع لهم يحكم باسمهم أن يسمى نفسه اسم (ملك) .

فحكام الغساسنة طوال عهدهم فى الشام إنما كانوا فى واقعهم أمراء مرتبطين بالتاج البيزنطى أطلق الأخباريون (تجاوزاً) عليهم كلمة ملوك .

إذن من الجائز الممكن أن ينصب الرومان (فى آن واحد) عدة أمراء من الغساسنة على عدة أقاليم من الشام . فيكون فى عصر واحد عدة أمراء منهم

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٩٩ وما بعدها .
(٢) Noeldeke 53 .

قبل أن يتعاظم أمر الغساسنة ويحتاج إليهم الرومان كما حدث فى أوائل القرن السادس للميلاد ، حينما تغلب الفرس على الرومان بمساعدة عرب الحيرة المناذرة فقهروهم حتى كادوا يحتلون القسطنطينية فى عهد القيصر (جوستنيان) الذى كان يعاصر كسرى أنو شروان الذى قاد بنفسه جيوش الفرس المنتصرة .

ففى أوائل القرن السادس للميلاد احتاج الرومان أشد الاحتياج للغساسنة فوّحدوهم تحت قيادة رئيس واحد هو الحارث بن جبلة (وهو أشجع وأنبه رجالات غسان على الإطلاق) وكان بعيد الصيت فى تاريخ الرومان لأنه قاد الغساسنة عام ٥٣١ م وساند الرومان فى حربهم ضد الفرس ، حتى كان دخوله الحرب إلى جانب الرومان من أهم الأسباب التى جعلتهم ينتصرون على الفرس ويستعيدون جميع الأقاليم التى كان الفرس قد اغتصبوها من ممتلكات الرومان فى الشام وآسيا الصغرى .

فقد كان الملك الحارث بن جبلة اليد اليمنى للقائد الرومانى (بليزاريوس) الذى تولى محاربة الفرس فأبلى الغساسنة تحت قيادته أعظم البلاء حتى تمكن الجيش الرومانى من اجتياز حدود مملكة فارس فاحتل ما بين النهرين . ومن أعظم الخدمات التى قام بها الملك الحارث للإمبراطورية البيزنطية تدمير جيش المنذر بن ماء السماء وقتله لهذا الملك الذى كان اليد اليمنى ورأس الحربة للجيش الفارسى فى المعركة التاريخية الشهيرة التى يسميها الإخباريون (يوم ذات الخيار أو عين أباغ)[١] .

عودة إلى المنطلق

وعليه لا يستبعد إذا أطلقنا على من تولى رئاسة رهط أو قبيلة أو مشيخة فى الشام من الغساسنة اسم (ملك) كما هى عادة الإخباريين بالنسبة لتاريخ ما قبل الإسلام — لا يستبعد أن يكون ملوك الغساسنة قد بلغوا ٣٢ ملكاً . ومن هنا لا غبار على ما ذهب إليه المحقق حمزة الأصفهانى حين ذكر ذلك فى كتابه ، لأن هذا المحقق إنما جهد نفسه ونقل أسماء هؤلاء الملوك ورتبها من

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٥ ٤ ٢ .

أمهات التاريخ كما وجدها .

غير أن الذى تميل إليه النفس والمرجح (بعد البحث والمقارنة) هو أن الأقرب إلى الصواب أن مدة ملك الغساسنة فى الشام هو حوالى ٤٠٠ سنة فقط وهو ما قاله الباحث الألمانى (نولدكه) لا ٦٠٠ سنة كما ذكره العلامة حمزة الأصفهانى ، وذلك أن المرجح الغالب على الظن ــ كما تقدم ــ أن الغساسنة إنما طلع نجمهم وظهر أمرهم فى الشام كأمراء أو ملوك إنما كان بعد زوال ملك بقايا العمالقة من آل أذينة فى (تدمر) وذلك إنما حدث حوالى عام ٢٧٥ ــ ٢٨٠ للميلاد .

فإذا قلنا إن ملكهم بدأ (وهذا هو الصواب) حوالى عام ٢٤٨ بتولى أول ملك منهم على الشام هو ــ كما جاء فى كتب الإخباريين الإسلاميين ــ (جفنة بن عمرو) فإن الذى لا جدال فيه ولا خلاف بين المؤرخين (مسلمين ورومان ويونان) أن آخر ملك حكم الشام من قبل الرومان هو جبلة ابن الأيهم الغسانى ، الذى اعتنق الإسلام ثم ارتد فى عهد الفاروق عمر الذى كانت جيوشه قد استولت على دمشق وكل أقاليم الشام . وذلك إنما حدث حوالى عام ثمانية عشر للهجرة ، وهو يوافق (بالتحديد) عام ٦٤٩ م[١] فعلى هذا يكون (وبصورة قاطعة) حكم الغساسنة للشام ــ منذ نزلوا مشارفها ــ لم يزد على ٤٠٠ سنة ، وهذا هو الذى حققه المؤرخ أبو الفداء[٢] .

تاريخ الغساسنة العسكرى والسياسى

أما تاريخ الغساسنة السياسى ، فرغم هذه المئات من السنين التى كانوا فيها ملوكاً على الشام ورغم تعاقب ذلك العدد الكبير من الملوك منهم على كراسى الحكم فى الشام . فإنهم ظلوا منذ بداية حكمهم حتى نهايته تابعين لأباطرة الرومان يأتمرون بأمرهم ويحكمون مناطق الشام باسمهم ، ويجبون الضرائب والأتاوات لخزائنهم مع استقلال داخلى هو مطلق دونما شك فى شئونهم الداخلية مع عشائرهم .

(١) انظر أطلس التاريخ الإسلامى لهارى . و . هازارد ص ٤٤ .
(٢) تاريخ أبى الفداء ص ٧٦ ج ١ .

فلم يصل إلى علمنا (فيما اطلعنا عليه من مصادر إسلامية أو أجنبية) أن أحداً من ملوك الغساسنة حاول التمرد على سلطة أباطرة الرومان ، فحاول (مثلاً) اقتلاع الوجود الرومانى من الشام (كلياً) والانفراد بها والاستبداد بشئونها وإعلان نفسه ملكاً مطلقاً عليها كما حدث من عرب (تدمر) الذين حاربوا الرومان وطردوهم من الشام نهائياً بعد أن كانوا مرتبطين بهم وتابعين لهم كما تقدم[1] .

إن شيئاً من ذلك لم يحدث ، رغم أن الغساسنة كانوا قوة بشرية هائلة وكانوا ذوى مقدرة قتالية فائقة ، حيث تعد قواتهم المسلحة من أحسن الجيوش فى المنطقة وبلغت فى عصور مختلفة عدة مئات من الآلاف .

ومع ذلك فقد ظلوا على ولاء كامل للقسطنطينية وخاصة منذ أواخر القرن الخامس للميلاد . غير أنه قد يحصل بعض الجفاء بين ملوكهم وبين بعض القادة الرومان فى الشام ، ولكن ذلك لم يصل (فى أى عصر من العصور) حد التمرد وإعلان الانفصال من قبل الغساسنة .

كما أن الرومان من ناحيتهم ، كانوا على وئام مع الغساسنة مكرِّمين لهم ، فلم يحدث (فيما وصل إلى علمنا) أن أحداً من أباطرة الرومان أساء إلى أى ملك غسانى بالسجن أو التنكيل أو القتل كما حدث من أكاسرة الفرس مع المناذرة العرب فى الحيرة بالعراق .

قلة المعلومات عن تاريخ الغساسنة

ومن المؤسف أن الغساسنة مع كونهم قد حكموا الشام طوال أربعة قرون ، وكونهم ذوى شأن عظيم فإن المعلومات عن تاريخهم السياسى والعسكرى ناقصة إلى حد كبير ، عكس خصومهم اللخميين المرتبطين بأكاسرة الفرس ، الذين كانت المعلومات عن تاريخهم السياسى والعسكرى والثقافى أكثر وضوحاً وأوسع تفصيلاً ، مع العلم أن مدة حكم اللخميين للحيرة أقل منها بالنسبة للغساسنة ورقعة ملكهم أضيق من رقعة ملك الغساسنة .

ويظهر أن النقص فى المعلومات عن تاريخ الغساسنة ، ووفرتها عن تاريخ

(١) وانظر أوسع التفاصيل عن هذه الحرب فى كتابنا (العرب فى الشام قبل الإسلام) .

اللخميين والمناذرة ، راجع إلى أن تاريخ اللخميين كان مدوناً باللغة الفارسية ، وفى أشعار اللخميين أنفسهم إذ وجد كثير من هذا التاريخ فى خزائن الحيرة ، وفى كنائس من كان منهم على النصرانية .

ولهذا فقد تمكن المؤرخون من أن يترجموا حياة أكثر ملوك الحيرة الذين بلغ عددهم ٢٢ ملكاً ويذكروا الكثير من أعمالهم السياسية والعسكرية والثقافية وحياتهم الاجتماعية . عكس ملوك الغساسنة الذين بلغوا ٣٢ ملكاً . والذين كانوا جميعهم قد دانوا بالنصرانية مع عامة شعوبهم . فهؤلاء جميعهم لم يسجل من أخبارهم السياسية والعسكرية والثقافية (فى مختلف مصادر التاريخ شيئاً يذكر) اللهم إلا الملك الحارث بن جبلة الذى كان له تاريخ حافل فى مختلف المجالات . والذى يسميه الإخباريون العرب (الحارث الأعرج بن أبى شمر والذى أمه مارية ذات القرطين المذكورة فى شعر حسان الشهير) فهذا الملك هو أعظم ملوك الغساسنة شأناً ، فهو الذى سار فى مائة ألف مقاتل من الغساسنة واصطدم بمثل هذا العدد من عساكر العرب المناذرة فهزمهم شر هزيمة وقتل ملكهم (المنذر بن ماء السماء اللخمى[1]) فعظم أمره واشتدت شوكته حتى خافه أباطرة القسطنطينية ، فتوددوا إليه ، وخلعوا عليه أرفع الألقاب[2] . وظل ملك الشام فى عقبه يتوارثونه حتى جاء الإسلام وسيطرت جيوشه على ممتلكات الإمبراطورية الرومانية فى الشام وآسيا الصغرى (تركيا الآسيوية اليوم) . وكان آخر ملك من عقبه هو جبلة بن الأيهم .

غسان والإسلام

وعندما جاء الله بالإسلام ، كان الغساسنة وأمراؤهم إلى جانب الرومان عندما نشب الصراع المسلح بين المسلمين وعساكر الإمبراطورية الرومانية . فقد كان هؤلاء الغساسنة رأس الحربة فى أي جيش رومانى يصطدم بالمسلمين ويظهر أن الغساسنة أشد إخلاصاً للرومان وأعنف فى عدواتهم للإسلام من المناذرة الذين كانوا تبعاً لأكاسرة الفرس وسنرى فى هذا الكتاب ، كيف قاتل الغساسنة مع القضاعيين المسلمين بشراسة وعناد إلى جانب الرومان فى معركة مؤتة ، وكيف

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨٥
(٢) أنظر (العرب قبل الإسلام للأستاذ جورجى زيدان ص ١١٤ — وما بعدها .

أن طليعة الجيش الرومانى الذى خاض هذه المعركة ، كان يقودها (أى الطليعة) الأمير شرحبيل بن عمرو الغسانى الذى كان أخوه سدوس أول قتيل يقتل على يد المسلمين لحساب الرومان[1] .

(١) أنظر أوسع التفاصيل عن تاريخ الغساسنة (فى كتابنا العرب فى الشام قبل الإسلام) .

الفصل الثانى

مجمل الأحداث العسكرية والسياسية
بين معركتى خيبر ومؤتة

- خمس حركات عسكرية .
- عُمرةُ القضاء .
- تأثر المجتمع القرشى بواقع المسلمين فى هذه العمرة .
- إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .
- اتصالات الرسول ﷺ بملوك وأمراء الشرق الأوسط .

كانت قبائل هوازن تعتبر فى منطقة الحجاز وأطراف نجد أقوى قوة ضاربة حيث كان باستطاعتها أن تحشد جيشاً يبلغ مائة ألف مقاتل .

وبعد انتصار المسلمين الساحق فى خيبر فى السنة السادسة من الهجرة . والذى به انتهى الوجود اليهودى الدخيل فى جزيرة العرب بأكملها . لم يبق من العرب (بعد قريش) من يخشاه المسلمون غير قبائل هوازن التى لم تجرب حظها فى صدام شامل مسلح مع المسلمين بعد .

أما بقية القبائل العربية الوثنية . فقد خَضد النبى ﷺ شوكتها وشل بحركاته العسكرية الناجحة كل تفكير لديها فى التعرض للمسلمين . وخاصة قبائل نجد التى كانت أخشى ما يخشاه المعشر الإسلامى من بين جميع قبائل الجزيرة العربية .. لكون هذه القبائل تعد من أعظم قبائل العرب وأكثرهم

عدداً .. ولكونها أقرب الوثنيين إلى المدينة حاضرة الإسلام الأولى والتى طالما تلقت الإنذار بقرب غزو وشيك الوقوع تقوم به هذه القبائل النجدية القوية المحاربة الشرسة ..

فقد قلم النبى ﷺ أظافر هذه القبائل العنيدة وألزمها موقف الدفاع عن النفس بعد أن كانت فى موقف الهجوم . تمنى النفس بالإغارة على المدينة واحتلالها وتصفية الوجود الإسلامى تصفية دموية .. وقد فعل النبى ﷺ هذا بتلك القبائل فى سلسلة من الغارات الوقائية التى كانت تشنها وحدات من جيشه باستمرار على هذه القبائل حتى بعد انتصاره على اليهود فى معركة خيبر .

الحملات العسكرية بعد الانتصار فى خيبر

فبعد أن انتهى النبى ﷺ من الحرب فى خيبر جرد على الأعراب الوثنيين سبع حملات تأديبية أربع جردها على القبائل النجدية وثلاث جردها على قبائل الحجاز .

— ١ —

سرية تربة[١] . شعبان سنة سبع للهجرة

دورية حربية قام بها عمر بن الخطاب إلى ديار هوازن[٢] الذين تعتبر

(١) تربة : بضم أوله وفتح ثانيه قال فى صحيح الأخبار : هى وادى عظيم يأتى من الغرب منحدراً إلى جهة الشرق وهى قرى ومزارع لقبائل زهران . ثم يأتى هذا الوادى العظيم إلى جهة الشرق ثم يمر (تربة) المعروفة بهذا الأسم . ثم يقسمها نصفين . فما ترك منها على شماله فهو لبنى محمد . وهم بطن من البقوم . وما كان على يمينه فهو لوازع . وهم بطن من البقوم أيضاً . ثم يتجه إلى جهة الشرق . فيمر الغريف . ثم يتجه إلى جهة الخرمة فيمرها حتى يصل إلى قريب عرق سبيع . ولكن لفظة تربة التى تطلق على هذا الوادى من أعلاه تنقطع إذا وصل الغريف اهـ .. . وتربة هذه تعتبر من أعمال الطائف اليوم .. . وبها حدثت المعركة التاريخية الفاصلة بين السعوديين والأشراف التى على أثرها تقرر مصير حكم الأشراف فى الحجاز .

(٢) هوازن (بفتح الهاء وكسر الزاى) قبيلة عظيمة من العدنانية قال فى معجم قبائل العرب . . بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اهـ .. تتفرع هوازن إلى عشائر كبيرة كثيرة تجمعهم أجرام ثلاثة . كلهم لبكر بن هوازن وهم بنو سعد بن بكر ، وبنو معاوية بن بكر ، وبنو منبه بن بكر وإلى هؤلاء تنتسب ثقيف فهو جدهم . تمتد منازل هوازن من نجد تحت أواسط الحجاز وتخوم اليمن .. ومن أوديتهم ، وادى حنين الذى لا يبعد عن مكة أكثر من ٢٥ كيلو متراً . وهو الذى دارت فيه المعركة التاريخية الفاصلة بين المسلمين وبين قبائل هوازن فى العهد =

(تربة) يوم ذاك من منازلهم . كانت هذه الدورية تتكون من ثلاثين راكباً .. كان هدفها على ما يظهر الاستطلاع والحصول على المعلومات وجس نبض هذه القبائل المعادية .

وقد كانت هذه الدورية موجهة إلى عجز هوازن (وهم بنو نصر بن معاوية وبنو جشم[1] بن بكر) .

قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : ثم سرية عمر بن الخطاب إلى تربة فى شعبان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ . قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة وهى ناحية العبلات على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران . ومعه دليل من بنى هلال[2] فكان يسير بالليل ويكمن النهار اهـ .

وبالرغم من أن المسافة التى قطعتها هذه الدورية الصغيرة بين المدينة وتربة . لا تقل عن ثلاثمائة ميل وبالرغم من كثرة هوازن المقصودين بهذه الدورية . فإنهم قد هربوا بمجرد علمهم بقرب مقدم عمر بن الخطاب .

قال الواقدى : وأتى الخبر هوازن فهربوا . وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحداً . اهـ .

ويظهر أن عمر بن الخطاب . قد تلقى من النبى ﷺ ــ عندما أسند إليه قيادة هذه الدورية ــ أمراً بأن لا يتخطى فى تحركاته حدود (تربة) بدليل أن ابن الخطاب لما وصل برجاله إلى (تربة) ووجد أن هوازن قد هربوا لمقدمه عاد إلى المدينة دون أن يلقى حرباً . ودون أن يتعقب أولئك الفارين الذين أمر بأن يطأ بلادهم .

= النبوى . والتى أشار إليها القرآن الكريم بقوله ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم الآية ﴾ . وكانت هوازن فى الجاهلية هى التى خاضت حرب الفجار المشهورة ضد قريش ، وتقع سوق عكاظ الشهيرة فى ديار هوازن .

(١) جشم (بضم أوله وفتح ثانيه) قبيلة من هوازن . وهم بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن . كانت منازلهم فى السروات . قال فى معجم قبائل العرب . . وهى بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام واسم جشم يطلق على قبائل كثيرة من القحطانية والعدنانية .

(٢) بنو هلال بطن من هوازن . وهم (بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . من منازلهم فى الجاهلية . نجد والحجاز حول مكة وفى بسائط الطائف « معجم قبائل العرب ج ٣ ص ١٢٣١ » .

تحقيق الأهداف

وعلى العموم . فقد حققت دورية ابن الخطاب أهدافها على الصعيد المعنوى إلى أبعد الحدود . فقد أثبت اجتياز هذه الدورية الصغيرة ، تلك المناطق النائية الممتدة مئات الأميال وسط قبائل كلها لا يزال على شركه عدواً للمسلمين .. أثبت هذا الاجتياز ، أن المسلمين بعد انتصارهم على اليهود فى معركة خيبر الحاسمة ، أصبحوا سادة الموقف . قد فرضوا هيبتهم على من تبقى من العرب على الوثنية . وأن الرعب والفزع والخوف من قوة المسلمين الحربية قد تمكنت من نفوس تلك القبائل وسيطرت عليها . حتى باتت تخاف لمجرد سماعها بذكر المسلمين .

وإلا فما هو التفسير لأن تتمكن دورية صغيرة لا تزيد على ثلاثين رجلاً من أن تقطع تلك المسافات الشاسعة . داخل أراضى كل سكانها الذين يعدون بالآلاف ، عدو للإسلام والمسلمين . دون أن يجرأ أحد من هذه القبائل المعادية لهذه الدورية التى جاست خلال ديار هذه القبائل على التعرض لها .

تأثير سقوط خيبر على معنويات الأعراب

إنه لا يمكن إعطاء تفسير لهذه الظاهرة إلا بالقول : إن استيلاء المسلمين على معاقل اليهود فى خيبر ـــ التى يعتبر اليهود فيها أقوى قوة ضاربة للكفر فى جزيرة العرب من حيث التنظيم وجودة التسليح ـــ قد أثر على معنويات الوثنيين العرب تأثيراً كبيراً إلى درجة تمكن معها ثلاثون رجلاً من المسلمين أن يطأوا بلاد قوم تعد قواتهم الحربية بعشرات الآلاف (وهم هوازن) دون أن يجد هؤلاء المسلمون القليلون من يصمد بوجههم .

المسلمون والأنضباط العسكرى

وأثناء عودة القائد ابن الخطاب . بدوريته من ديار هوازن (بتربة) حدث ما يدل على أن المسلمين كانوا أسبق الأمم إلى وضع قانون الانضباط العسكرى الصارم الدقيق لقواتهم الحربية

فعندما عاد ابن الخطاب من تربة برجال دوريته ـــ وبينما كان على مقربة من مناطق معادية اقترح عليه دليله (الهلالى) أن يشن الغارة على قوم من

الوثنيين ــ بإمكانه أن يسجل الانتصار عليهم ــ قائلا : هل لك فى جمع آخر من خثعم[1] تقاتلهم ؟

فرفض ابن الخطاب هذا الاقتراح قائلاً : لم يأمرنى رسول الله بهم . وإنما أمرنى بقتال هوازن . وهكذا عاد الفاروق إلى المدينة دون أن يتعرض لتلك القبائل . رغم أنها وثنية معادية للإسلام والمسلمين . وذلك تقيداً من الأمير ابن الخطاب بأوامر القائد الأعلى النبى التى حددت له مهمته وهى (فقط) الإغارة على (هوازن) . وهذا هو الانضباط العسكرى الصحيح الذى سبق إليه الإسلام كل النظم والقوانين فى العالم .

— ٢ —

حملة إلى فدك . شعبان سنة سبع من الهجرة

كان بنو مرة[2] من القبائل النجدية المعادية للإسلام . وكانت هذه القبيلة أحد الأجنحة الأربعة للقوات النجدية الضاربة التى اشتركت مع قريش واليهود فى حملة الأحزاب الشهيرة التى نظمها اليهود لاقتلاع الوجود الإسلامى من المدينة ومن الجزيرة كلها . وقد كان قائد جناح بنى مرة فى غزوة الأحزاب الحارث بن عوف المرِّى .

إلا أن هذا الزعيم النجدى رفض مساندة اليهود فى خيبر عندما طلب اليهود نجدة غطفان ضد النبى ﷺ . بل لقد نصح الحارث هذا . عيينة بن حصن الفزارى قائد قوات غطفان بأن لا يكرر الخطأ بمساندته اليهود مرة أخرى ضد المسلمين .. ولكن عيينة . رفض نصح الحارث . فساند اليهود فباء بالفشل الذريع . كما هو مفصل فى كتابنا (غزوة خيبر) .

لم يكن بنو مرة فى رفضهم مساندة اليهود فى خيبر ينطلقون من إيمانهم بالنبى ﷺ . وإنما ينطلقون من قناعة قائدهم أن لا فائدة من مساندة اليهود لأن النبى

---

(١) بنو هلال : هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .من منازلهم فى الجاهلية نجد والحجاز حول مكة وفى بسائط الطائف . كانوا من قبائل العرب الشهيرة التى استوطنت مصر والمغرب .

(٢) اسم مرة . يطلق على قبائل كثيرة من العدنانية والقحطانية . ومرة هنا هم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان .

ﷺ سينتصر فى ملحمة خيبر . كما أخبر اليهود أنفسهم بذلك الحارث بن عوف[1] .

أما عداء بنى مرة للنبى ﷺ ورغبتهم فى الإطاحة به وبدينه . فقد ظلتا على ما هما عليه لم تتغير .

فقد ظلوا للنبى ﷺ أعداء محاربين . ولذلك فقد كانوا فى رأس قائمة القبائل الوثنية التى قرر النبى ﷺ ــ بعد انتصاره على اليهود فى خيبر ــ أن يشن عليهم الغارات التأديبية لإرهابهم . وإقناعهم عملياً بأنه ليس بإمكانهم أن يعودوا إلى موقف المهاجم فى نزاعهم مع الإسلام والمسلمين .

ففى شهر شعبان (أى بعد خمسة أشهر من فتح خيبر) . انتخب النبى ﷺ دورية حربية قوامها ثلاثون رجلاً . وأسند قيادة هذه الدورية إلى بشير بن سعد الأنصارى وكلفه أن يطأ بدوريته الحربية ديار قبيلة بنى مرة فى فدك الواقعة على أميال قليلة من خيبر .. ليصيب منهم فى الأرواح والأموال ما أمكنه ذلك .

وخرج بشير بن سعد من المدينة بدوريته وما زال يسير بها حتى وصل فدك التى لا تبعد عن المدينة أكثر من ستين ميلاً .

وعندما وصل القائد بشير إلى منازل بنى مرة (بفدك) لم يجد أحداً من المحاربين . وإنما وجد رعاة فى الشاء والإبل .

ولدى استجوابه الرعاة ، اتضح له أن المحاربين من بنى مرة فى بواديهم خارج فدك ، فاكتفى باستياق الشاء والإبل كأموال لعدو محارب . ثم اتجه بها نحو المدينة راجعاً .

بنو مرة يبيدون الدورية

وقد حدث أن أحد الرعاة تمكن من الإفلات من أيدى رجال الدورية . فانطلق بأقصى سرعة وأخبر المحاربين باستيلاء دورية بشير بن سعد على مواشيهم وجوسهم خلال الديار فى فدك .

---

(١) الحارث بن عوف المرى هذا لم أجد (فيما بين يدى من مصادر) أنه أسلم .

وكان بنو مرة (كما قلنا) من أقوى وأشرس القبائل النجدية . وكانوا أهل نجدة وشجاعة .

فعندما تلقوا نبأ الإغارة على ديارهم واستياق مواشيهم . تسابق رجالهم ليلحقوا بدورية بشير بن سعد . وفعلاً تمكنوا من ذلك .

فقد أدركت طلائع فرسان بنى مرة بشير بن سعد ودوريته على مسافة أميال قليلة من (فدك) .

وكان بشير بن سعد قد تبلغ من عيونه (استخباراته) نبأ مطاردة بنى مرة لدوريته . فتحصن برجاله .

ووصلت طلائع فرسان بنى مرة فبادروا بالهجوم . فقابلهم المسلمون بالسهام من تحصيناتهم . فظل الفريقان يترامون بالنبل حتى حجز الليل بينهم .

وكان بشير ورجال دوريته يعتمدون فى الدرجة الأولى على السهام فى صد الهجوم . ولكن نبال الدورية لكثرة الترامى نفدت . وأصبح القائد بشير ودوريته فى وضع حرج للغاية .

فقد توافد محاربو بنى مرة أثناء الليل على مكان المعركة . حتى بلغوا عدة أضعاف رجال الدورية الذين لا يزيدون على ثلاثين رجلاً .

فعندما أصبحوا . وجد بشير بن سعد دوريته محاطة بأعداد هائلة من بنى مرة الذين شنوا على الدورية هجوماً من جميع الجهات .

فصار هم رجال الدورية الدفاع عن أنفسهم . فاشتبكوا مع المشركين فى قتال مرير ضار . ولكن الكثرة تغلب الشجاعة (كما يقولون) .

فقد تمكن نبو مرة من التغلب على رجال الدورية ، فأبادوهم جميعاً . ولم ينج منهم سوى رجل واحد هو علبة بن زيد الحارثى .

أما قائد الدورية (بشير بن سعد) . فقد قاتل قتالاً مريراً حتى أثخنته الجراح فسقط بين القتلى لكثرة ما أصابه من النزيف الشديد .

فظنه المريون قد قتل . بعد أن فحصوه فلم يجدوا به حراكاً .

واسترجع المرِّيون كل الشاة والإبل التى استاقتها دورية بشير بن سعد .

أما بشير نفسه . فإنه ــ بعد أن انصرف بنو مرة من مكان المعركة ــ تحامل على نفسه حتى تمكن من الوصول إلى قرية فدك وهناك آواه أحد اليهود الداخلين فى ذمة المسلمين . فظل عند اليهودى حتى شفيت جراحه .

أما علبة بن زيد . فقدم على رسول الله وأخبره خبر القوم . ثم لحق من بعد بشير بن سعد .

ولم يذكر المؤرخون أن أحداً من رجال هذه الدورية قد عاذ إلى المدينة . ما عدا (بشير بن سعد وعلبة بن زيد) وهذا يعنى أن ثمانية وعشرين من رجال هذه الدورية قد استشهدوا على أيدى بنى مرة . (انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٢٣ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١١٨) .

ــ ٣ ــ

حملة أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب بنجد
شعبان سنة سبع من الهجرة(١)

وفى شهر شعبان من السنة السابعة للهجرة . بعث النبى ﷺ بحملة عسكرية إلى ديار نجد لإرهاب وتأديب بنى فزارة وبنى كلاب بناحية منطقة يقال لها (ضرية)(٢) .

وكان قائد هذه الحملة أبو بكر الصديق .. أسند إليه النبى ﷺ القيام بهذه المهمة .

ولم يذكر أحد من المؤرخين (فيما أعلم) عدد أفراد هذه الحملة .

إلا أن هذه الحملة حققت أغراضها . إذ وطئت ديار الوثنيين من بنى كلاب وفزارة فشنت عليهم الغارة . ثم ألحقت بهم الهزيمة . واستولت على كل ما فى ديارهم من أموال . وأسرت من لم يتمكن من الهرب من رجالهم وذراريهم .

قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى مستنداً إلى سلمة بن الأكوع(٣) قال :

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى . . وأشار إليها الواقدى فى مغازيه ولم يذكر تاريخها .
(٢) انظر التعريف بهذا المكان فى كتابنا الخامس (صلح الحديبية) .
(٣) انظر ترجمة سلمة بن الأكوع فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية)

غزوتِ مع أبى بكر إذ بعثه النبى ﷺ علينا فسبى ناساً من المشركين . فقاتلناهم . وكان شعارنا (أمت أمت) فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات من المشركين .

وعنه قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فزارة . وخرجت معه حتى إذا ما د نوا من الماء عرس[1] أبو بكر حتى إذا ما صلّينا الصبح أمرنا فشننا الغارة فوردنا الماء فقتل أبو بكر من قتل ونحن معه . قال سلمة فرأيت عنقاً من الناس فيهم الذرارى فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم . فرميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم قاموا فإذا امرأة من فزارة فيهم عليها قشع من أدم ، معها ابنتها من أحسن العرب . فجئت أسوقهم إلى أبى بكر فنفلنى أبو بكر ابنتها . فلم أكشف لها ثوباً . حتى قدمت المدينة ، ثم باتت عندى فلم أكشف لها ثوباً ، حتى إذا كان من الغد لقينى رسول الله ﷺ فى السوق . فقال : يا سلمة هب لى المرأة . فقلت : يا نبى الله . والله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً . فسكت حتى إذا كان من الغد لقينى رسول الله ﷺ فى السوق . ولم أكشف لها ثوباً فقال : يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك قال : فقلت : هى لك يا رسول الله .

قال : فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا فى أيدى المشركين .

— ٤ —

سرية غالب الليثى إلى الميفعة[2] بنجد ..
رمضان سنة سبع للهجرة

وهى حملة عسكرية كبيرة شنها المسلمون على قبائل بنى عوال وبنى ثعلبة من النجديين الذين تقع منازلهم شرقى المدينة . وتبعد عن المدينة حوالى تسعين ميلا .

---

(١) عرس (بتشديد الراء) نزل للنوم آخر الليل .

(٢) الميفعة (بفتح الميم) هنا منطقة بنجد شرقى المدينة . والميفعة أيضاً منطقة باليمن بينها وبين الساحل يومان .

وبنو عوال وعبد بن ثعلبة هؤلاء هم بطن من غطفان تلك القبيلة الجبارة العاتية التى كانت قد ساندت اليهود وقريشا عملياً فى غزوة الأحزاب التى استهدف اليهود من ورائها محو الكيان الإسلامى من الوجود .

فقد كانت تلك القبائل الوثنية المتوحشة أكبر عون فى ذلك العدوان المخيف الذى شنته أحزاب الكفر (من اليهود القرشيين) على المسلمين فى المدينة عام الأحزاب (السنة الرابعة من الهجرة) .

حيث كانت قبائل (غطفان) ـــ التى منها بنو عوال وعبد بن ثعلبة ـــ تشكل أهم الأجنحة فى القوات المرتزقة التى استأجرها اليهود لتكون العمود الفقرى فى ذلك العدوان الآثم الذى دبره الإسرائيليون وخططوا له فى خيبر . قاصدين من ورائه إبادة المسلمين وقطع تيار دعوة الإسلام . ليعود هؤلاء اليهود (على أنقاض الكيان الإسلامى) سادة ليثرب وحكاماً عليها .

وكانت حملة المسلمين هذه إلى الميفعة بقيادة غالب بن عبد الله الليثى[1] الذى أسند إليه النبى ﷺ أمرها بعد اقتراح تقدم به إلى النبى ﷺ يسار مولاه

وكان عدد رجال هذه الحملة مائة وثلاثين رجلاً .. وكان دليل هذه الحملة الكبيرة يسار مولى رسول الله ﷺ الذى سلك بهم طريقاً طويلاً غير معروف . حتى تعبوا وكادوا أن يهلكوا لأن أذوادهم قد نفدت قبل أن يصلوا إلى ديار العدو .

وقد خالطهم لذلك الشك فى يسار وساورهم القلق فى أن يكون جاسوساً تظاهر بالإسلام . وجاء بهم ليوقعهم فى كمين لغطفان . غير أن ظنونهم سرعان ما تبددت عندما وصل بهم يسار إلى ديار القوم على حين غفلة منهم . وساهم مساهمة كبرى بحنكته ودهائه فى أخذهم بغتة دون أن يشعروا ، الأمر الذى مكن غالباً ورجاله من الفتك بهم واجتياح ديارهم دون أن يتمكنوا من المقاومة .

---

(١) هو غالب بن عبد الله الكنانى الليثى ثم الكلبى كان من قادة الجيوش فى العهد النبوى . وهو الذى كان على مقدمة الجيش يوم الفتح ، عاش طويلًا . تولى إمارة خراسان فى عهد معاوية . شهد معركة القادسية وهو الذى قتل هرمز ملك الباب فى أرمينيا .

حيث كان هجوم المسلمين ناجحاً إلى أبعد الحدود . . فبالرغم من كثرة عدد رجال العدو . وكونهم من القبائل النجدية العنيدة المعروفة بالشراسة فى القتال . فقد كان همهم الوحيد أن ينجوا بأنفسهم إلى الجبال .

وقد تمكن غالب ورجاله من قتل عدد كبير من أشرافهم . كما نجح غالب فى الاستيلاء على أكثر مواشيهم . إلا أن أحداً من هؤلاء المشركين لم يقع أسيراً فى أيدى رجال غالب الليثى .

قال الواقدى يصف هذه الحملة : قال يسار مولى رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنى قد علمت غرَّة من بنى عبد بن ثعلبة ، فأرسل معى إليهم ، فأرسل معه النبى ﷺ غالب بن عبد الله الليثى فى مائة وثلاثين رجلاً . خرج بهم يسار ، فظعن بهم فى غير الطريق حتى فنيت أذوادهم وجهدوا ، واقتسموا التمر عدداً فبين القوم ذات ليلة بعدما ساء ظنهم بيسار ، وظن القوم أن إسلامه لم يصح ، وقد انتهوا إلى مكان قد فحصه السيل (حفرة) ، فلما رآه يسار كبر . قال : والله قد ظفرتم بحاجتكم ، اسلكوا فى هذا الفحص حتى ينقطع بكم ، فسار القوم فيه ساعة بحس خفى لا يتكلمون إلا همساً . حتى انتهوا إلى ضرس من الحرة ، فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم ، فارتأوا رأيكم ، قال غالب : انطلق بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كميناً ، ففعلا . فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين سمعنا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما ــ فأقبلوا جميعاً حتى إذا كانوا من الحى قريباً ــ وقد وعظهم أميرهم غالب ورغبهم فى الجهاد ونهاهم عن الإمعان فى الطلب وألَّف بينهم ــ فقال إذا كبرت فكبّروا ، وكبروا جميعاً معه ، ووقعوا وسط رحالهم فاستاقوا نعماً وشاءا وقتلوا من أشرافهم ، وصادفوهم تلك الليلة على ماء يقال له : « الميفعة » قال : واستاقوا النعم فحدروا إلى المدينة ، ولم يسمع أنهم جاءوا بأسرى اه .. وقال ابن سعد فى طبقاته : والميفعة وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد . وبينها وبين المدينة ثمانية برد ..[١] .

(١) البرد جمع بريد . قال فى مختار الصحاح .. البريد اثنا عشر ميلًا .

أسامة بن زيد يقتل رجلاً مسلماً

وفى هذه الحملة العسكرية ارتكب أسامة بن زيد خطأ كبيراً ندم له أسامة أشد الندم . بلغ به إلى أنه صار يقول لشدة أسفه ــ تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .

وتفصيل الحادث ؛ أن أسامة بن زيد الذى كان أحد جنود هذه الحملة .. كان أثناء القتال قد التقى برجل كان ضمن عسكر المشركين اسمه : مرداس ابن نهيك فحمل عليه أسامة . ولكنه قبل أن يتمكن منه قال لا إله إلا الله محمد رسول الله . غير أن ذلك لم يمنع أسامة من قتله ــ فقتله . بعد أن كف عنه أحد الأنصار لنطقه بالشهادة .

وكان أسامة قد قتل مرداساً اعتقاداً منه أنه لم ينطق بالشهادة إلا لينجو من القتل . هكذا كان اجتهاد أسامة .

قائد الحملة يجرى التحقيق مع أسامة

وقد أجرى القائد العام لهذه الحملة تحقيقاً مع أسامة بن زيد أثبت به إدانته بأنه قتل رجلاً مسلماً . إلا أنه ترك أمره إلى الرسول القائد ﷺ ليرى فيه رأيه .

قال الزمخشرى فى الكشاف : إن نهيك بن مرداس كان من أهل فدك (قرية من قرى خيبر) . وكان قد أسلم وكان ضمن قومه المشركين أثناء الغارة عليهم . إلا أنه لما رأى خيل المسلمين متقدمة ورأى قومه يفرون أمامها ، ألجأ نفسه إلى عاقول من الجبل فلم يهرب وبقى مكانه بثقته بإسلامه فلما تلاحق المسلمون فكبروا بعد النصر كبر مرداس ونزل من العاقول وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه ــ اعتقاداً منه أنه لم يعلن إسلامه إلا خوفاً من الموت .

وقد برر أسامة بن زيد فعله هذا ــ أثناء التحقيق معه من قبل قائد السرية غالب بن عبد الله الليثى ــ بأن مرداس بن نهيك لم ينطق بالشهادة إلا بعد أن علاه السيف ، الأمر الذى أوجد القناعة فى نفس زيد بأن مرداس لم يقلها إلا

خوفاً من الموت .

فعن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد أن غالب بن عبد الله الليثى وقف خطيباً فى رجال هذه السرية (قبيل المعركة) فقال أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعونى ولا تعصونى ولا تخالفوا لى أمراً ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع ، ثم ألف بينهم فقال : يا فلان أنت وفلان ، يا فلان أنت وفلان — لا يفارق كل رجل زميله — وإياكم أن يرجع إلى أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك ؟ فيقول : لا أدرى ، وإذا كبرت فكبروا . ثم قال : فكبر وكبروا ، وأخرجوا السيوف قال : فأحطنا بالحاضر (وفى الحاضر) نعم وقد عطنوا[1] مواشيهم فخرج إلينا الرجال فقاتلوا ساعة ، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ، ونحن نصيح بشعارنا : أمت أمت ، وخرج أسامة بن زيد فى أثر رجل منهم يقال له نهيك بن مرداس فأبعد ، وحوينا على الحاضر وقتلنا من قتلنا ، ومعنا النساء والماشية ، فقال أميرنا : أين أسامة بن زيد ؟ فجاء بعد ساعة من الليل . فلامه أميرنا لائمة شديدة وقال : ألم تر إلى ما عهدت إليك ؟ فقال : إنى خرجت فى أثر رجل جعل يتهكم بى حتى إذا دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله إلا الله . فقال أميرنا أأغمدت سيفك ؟ قال : لا والله ما فعلت حتى أوردته شعوب ، قال : قلنا والله بئس ما فعلت وما جئت به تقتل امرءاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فندم وسقط (بضم السين) فى يديه قال : واستقنا النعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعرة كل رجل ، أو عدلها من الغنم . وكان يحسب الجذور بعشرة من الغنم . (مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٢٤) .

النبى يحقق مع الجندى أسامة

ولم يتخذ قائد السرية غالب الليثى أى إجراء ضد أسامة بن زيد للتصرف الخاطىء الذى تصرفه . بل تركه حتى قدم به على رسول الله ﷺ الذى أجرى معه التحقيق بشأن قتله ذلك الرجل المسلم .

---

(١) انظر معنى كلمة عطن فى كتابنا صلح الحديبية .

فلدى اطلاع النبى ﷺ على تفصيل الحادث وجد وجداً شديداً وأنب أسامة قائلاً : أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟

فقال أسامة (أثناء التحقيق) : يا رسول الله إنما قالها تخوفاً من السلاح .

فقال ﷺ مكرراً ثانية : ألا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾(١) .

والواقع أن أسامة قد شعر بتأنيب الضمير وأنه قد ارتكب خطأ بقتله مرداس بن نهيك . فقد روى عنه أنه قال : لما طعنت مرداس برمحى فقتلته ، وجدت من ذلك موجدة شديدة حتى ما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت على رسول الله فقبلنى واعتنقنى . ولكنه لما علم بإقدام أسامة على قتل مرداس قال : اقتلتموه إرادة ما معه ؟ ثم قرأ على أسامة قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ فقال أسامة استغفر لى يا رسول الله فقال ﷺ : فكيف بلا إله إلا الله قال أسامة فما زال يكررها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ثم استغفر له رسول الله ﷺ بعد أن أدانه أنه قد قتل مؤمناً خطأ وحكم عليه بأن يعتق رقبة مؤمنة كفارة عما ارتكب لأنه قتل رجلاً مؤمناً عن إجتهاد خاطئ حيث ظنه مشركاً فى حقيقة أمره وأنه إنما نطق بالشهادتين خوفاً من الموت وبعد أن أهوى إليه السيف .

وبهذه المناسبة روى الواقدى عن المقداد بن عمرو الكندى(٢) أنه قال : قلت يا رسول الله أرأيت رجلاً من الكفار يقاتلنى ، وضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ، ثم لاذ منى بشجرة فقال : (أسلمت لله) ، أقتله بعد أن قالها ؟ (يعنى الشهادتين) فقال رسول الله ﷺ : لا تقتله . قال : فإنى قتلته فماذا ؟ قال : فإنه بمنزلتك التى كنت بها قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال(٣) .

---

(١) النساء آية ٩٣ .
(٢) انظر ترجمة المقداد بن الأسود فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .
(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٢٥ .

وقد روى ابن سعد فى طبقاته الكبرى . أن أسامة بن زيد ـــ بعد الذى سمع من رسول الله ﷺ ـــ أقسم أنه لن يقاتل بعدها أحداً يشهد أن لا إله إلا الله مهما كان .

وقال فى السيرة الحلبية : إن ذلك هو سبب اعتزال أسامة بن زيد الفتنة الكبرى . واعتذاره عن الاشتراك فى القتال إلى جانب أمير المؤمنين على (رضى الله عنهم أجمعين) أثناء الحرب الأهلية الطاحنة التى نشبت أيام الجمل وصفين . فقد كان أسامة بن زيد ضمن فئة من الصحابة التزموا الحياد من تلك الحروب الدامية المؤسفة . وقد روى عن أسامة أنه قال لأمير المؤمنين على (معتذراً عن مقاتلة معاوية وحزبه والزبير وصحبه) : لو أدخلت يا أمير المؤمنين يدك فى فم تنين لأدخلت يدى معها . ولكنك قد سمعت ما قال لى رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذى شهد أن لا إله إلا الله . وقلت له : أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله(١) .

ـــ ٥ ـــ

حملة الجناب(٢) شوال سنة سبع من الهجرة

وهى أكبر حملة عسكرية يشنها الجيش النبوى على المشركين فى نجد عقب الانتصار الساحق على اليهود فى معركة خيبر .

قاد هذه الحملة الكبيرة إلى ديار غطفان وفزارة والقبائل الوثنية المجاورة : بشير بن سعد(٣) . وكان هدف الحملة إحباط مشروع غزو كبير كان السيد الأحمق المطاع سيد فزارة عيينة بن حصن قد أعده للزحف على المدينة واحتلالها .

وقد أشرنا أكثر من مرة فى مؤلفاتنا السابقة . إلى أن القبائل الواقعة شرق المدينة (مثل غطفان وفزارة وأسد وأشجع وحنيفة) هم من أشد الناس عداوة

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) الجناب (بكسر الجيم) قال فى مراصد الاطلاع موضع بعراض خيبر ووادى القرى . قيل من منازل بنى مازن ، وقيل من منازل فزارة . والجناب الحنظل أيضاً موضع باليمن .

(٣) بشير بن سعد بن ثعلبة من الخزرج الأنصار . صحابى محارب فاضل . شهد بدراً . والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو والد النعمان بن بشير الأنصارى . قتل بشير شهيداً فى معركة اليمامة ،

للنبى ﷺ مع طاقات عسكرية هائلة ـــ سواء من الناحية البشرية أو من ناحية القدرة القتالية حيث إنه معترَف لهذه القبائل بالشراسة فى القتال والصبر على النزال .

وقد دل سياق المؤرخين على أنه بإمكان هذه القبائل الوثنية الشرقية . أن تحشد فى أسرع وقت جيشاً لا يقل عدده عن عشرين ألف مقاتل .

ولهذا كانت كثرة عددهم وتفوقهم فى ميادين الحرب قد أغرتهم أكثر من مرة بالمسلمين حيث حاولوا عدة مرات غزو المسلمين فى المدينة وإنهاء وجودهم . وهو أمر لم يجرؤ أحد عليه سوى قريش التى نقلت المعركة ضد المسلمين إلى ضواحى المدينة (أحد) ولكن دون أن تجرأ على التفكير يومها . فى احتلال المدينة .

أما هؤلاء الأعراب الشرسون العتاة . فقد كان هدفهم ـــ فى كل محاولاتهم الحربية ـــ احتلال المدينة والقضاء على المسلمين فيها قضاء تاماً .. فعلوا ذلك منفردين . وفعلوه بالاشتراك مع غيرهم من الذين جمعتهم بهم العداوة للإسلام .

وآخر محاولة خطيرة قام بها هؤلاء الأعراب للإطاحة بالمسلمين واحتلال المدينة وانتهابها . هى تلك المحاولة التاريخية التى قاموا بها ـــ بالاشتراك مع خيبر ويهود المدينة وقريش ـــ فى السنة الرابعة من الهجرة ضمن حلف عسكرى ثلاثى لاكتساح المدينة ونسف الوجود الإسلامى بأكمله فى السنة الرابعة الهجرية .

وقد حاولت هذه القبائل الوثنية مرة أخرى مساندة يهود خيبر لضرب القوات الإسلامية الزاحفة على خيبر وذلك فى أوائل السنة السادسة من الهجرة .

ففى هذه السنة جهزت فزارة وبنو أسد وحدهما حوالى خمسة الآف مقاتل . ألف منها رابط مع اليهود فى حصونهم بخيبر .. وأربعة آلاف بقيادة عيينة بن حصن تحركت من مضاربها فى صحارى نجد لضرب القوات الإسلامية من الخلف . إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل على النحو الذى فصلناه فى كتابنا السادس من هذه السلسلة (غزوة خيبر) .

وبالرغم من الفشل المتلاحق الذى منيت به هذه القبائل الوثنية الشرقية الشجاعة القوية فى كل محاولة تقوم بها للقضاء على المسلمين أو خضد شوكتهم فإن كثرة عدد هذه القبائل الغامر وقدرتهم القتالية الممتازة ، ظلا عامل غرور يدفع بهذه القبائل العظيمة المحاربة إلى استضعاف المسلمين والتفكير دائماً فى القيام بغزوهم والإطاحة بهم وهدم كيانهم داخل عاصمتهم المدينة .

ففى شهر شوال من السنة السابعة للهجرة (أى بعد حوالى سنة كاملة من تصفية اليهود واندحار حلفائهم الوثنيين هؤلاء فى خيبر) تبلغت القيادة الإسلامية فى المدينة ـــ عن طريق رجال استخباراتها العسكريين المنتشرين بين مضارب تلك القبائل الوثنية شرق المدينة أن القائد الفزارى الشهير . عيينة بن حصن يقوم بتحشيد قبائل غطفان وفزارة وأشجع وأسد فى منطقة يقال لها « يمن(١) وجبار(٢) » نحو الجناب وهو موضع يعارض خيبر ووادى القرى شمال شرقى المدينة .

وإن هدف هذه التجمعات الوثنية هو الزحف على المسلمين وأخذهم على حين غرة فى المدينة نفسها .

فقد جاء فى التقرير الشفوى الذى قدمه جهاز الاستخبارات النبوية (أن عيينة بن حصن الفزارى قد بعث إلى تلك القبائل يقول لهم : إما أن تسيروا إلينا وإما أن نسير إليكم . فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد) .

غير أن ما جاء فى تقرير الاستخبارات العسكرية النبوية لم يكن مفاجأة للقيادة فى المدينة . فقد كانت المدينة تتوقع أن يعاود الغرور هذه القبائل الوثنية القوية ، لما هى عليه من كثرة فى العدد وخبرة بالحرب ولكونها أقرب القبائل الوثنية إلى المدينة التى طالما سال لعاب هؤلاء الأعراب الأجلاف . كلما تذكروا خيراتها الزراعية . التى طالما حاولوا اجتياحها وانتهابها كما فصلناه فى عدة مواضع من بحوثنا المتعلقة بهذه القبائل فى كتبنا الستة من هذه السلسلة .

---

(١) قال فى مراصد الاطلاع : (يمن ـــ بفتح أوله وسكون ثانيه ـــ ماء لغطفان من بنى قو ورواف على الطريق بين تيماء وفيد .

(٢) جبار (بضم أوله وفتح ثانيه) ماء لبنى حميس بن عامر بن ثعلبة ، بين المدينة وفيد .

تفريق حشد الوثنيين

ولذلك فإن النبى القائد ﷺ لم يكد يتلقى التقرير من رجال استخباراته عن هذه الحشود التى يقوم بها عيينة بن حصن الفزارى . حتى استدعى وزيريه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبحث معهما هذه التطورات الخطيرة . وأبلغهما ما تلقى من معلومات عن التحشدات هذه . فأشارا عليه بأن يسارع إلى إرسال قوة كبيرة تداهم هؤلاء الأعراب وتضربهم مكان تجمعهم قبل أن يبدأوا تحركاتهم نحو المدينة .

فعمل الرسول ﷺ بمشورة وزيريه وصاحبيه . فاستدعى القائد المشهور بشير ابن سعد وكلفه بأن يتولى الإغارة على أولئك الأعراب فى ديارهم . قبل أن يكملوا تجهيزاتهم .

ثم جهز الرسول ﷺ ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار . أعطى قيادتهم بشير بن سعد الذى عقد له الرسول ﷺ لواءاً ، فتحرك بشير بهذه القوات الكثيفة واتجه بها صوب الجناب فى نجد ليباغت الأعداء فى ديارهم وبين مضاربهم قبل أن يتمكنوا من التحرك نحو المدينة .

وتلك . دائما عادته ﷺ . يسارع بنقل المعركة (وعلى جناح السرعة وبسرية تامة) إلى ديار أى عدو يفكر فى الإغارة على المدينة .

وعامل المباغتة فى العمليات الحربية . دائما وفى كل زمان ومكان .. يكون من أهم عوامل الفوز والنصر وتحقيق الأهداف التى ترسم الخطط الحربية فى أجل تحقيقها .

ولكى تنجح خطة المباغتة . ويتمكن قائد الحملة من تشتيت المحتشدين الأعداء بسهولة أمر النبى ﷺ القائد بشير بن سعد . بأن يسير برجاله الليل ويكمن النهار . لئلا يعلم أحد بتحركاتهم حتى يدهموا العدو ويأخذوه على حين غرة .

ونفذ القائد بشير أوامر النبى القائد ﷺ . فاتجه برجاله صوب الشرق . وصار يكمن النهار ويسير الليل . وكان دليل الجيش إلى ديار غطفان وفزارة . حسيل

ابن نويرة(١) . الذى كان دليل النبى ﷺ إلى خيبر .

وقد نجحت خطة الكتمان نجاحاً حقق أغراض الحملة إلى أبعد الحدود. حيث لم يشعر عيينة بن حصن وحشوده فى الجناب إلا بجيش المسلمين داخل مضاربهم وبين مسارحهم يستاق مواشيهم ويستولى على أموالهم .. فانتابهم الرعب والفزع . ففروا هاربين فى بطون الشعاب ورؤوس الجبال لا يلوون على شىء .

فجاس جيش المسلمين خلال ديارهم واستولى على كل ما وصلت إليه أيدى رجاله من أموال تلك القبائل . كغنيمة حرب يغنمونها من عدو محارب كان يعد العدة لغزوهم وانتهاب مدينتهم .

وقد تتبع الجيش الإسلامى الفارين من الأعداء (وخاصة مجموعة القائد عيينة بن حصن) الذى ناوش المسلمين بعض الوقت ثم فر منهزما . بعد أن قتل له جيش المسلمين جاسوساً وأسر اثنين من رجاله .

وهكذا أحبط النبى ﷺ خطة ذلك الغزو الوثنى الذى كان آخر محاولة تقوم بها القبائل النجدية الوثنية الشجاعة الشرسة للزحف على المدينة وضرب المسلمين فيها .

قال الواقدى يصف هذه الحملة ونتائجها الإيجابية : (دعا رسول الله ﷺ) أبا بكر وعمر . فذكر لهما ذلك (أى احتشاد القبائل فى نجد لغزو المدينة) . فقالا : ابعث بشير بن سعد . فدعا رسول الله ﷺ بشيراً . فعقد له لواءً ،وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار ، وخرج معهم حسيل بن نويرة دليلاً . فساروا الليل وكمنوا النهار ، حتى أتوا أسفل خيبر ، فنزلوا بسلاج(٢) ثم خرجوا من سلاج حتى دنوا من القوم ، فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثلثا نهار أو نصفه ، فإن أحببتم خرجت طليعة

---

(١) حسيل (بالتصغير) قال فى الإصابة : هو حسيل بن خارجة ــ وقيل : ابن وفرة الأشجعى . أسلم قبل فتح خيبر . وهو الذى كان دليل الجيش النبوى الذى حرر خيبر من الاحتلال اليهودى . قال حسيل : قدمت المدينة فى جلب أبيعه فأتى بى رسول الله ﷺ فقال : يا حسيل هل لك أن أعطيك عشرين صاع تمر على أن تدل أصحابى على طريق خيبر ؟ ففعلت . قال : فأعطانى فأسلمت .

(٢) سلاج (بفتح أوله وثانيه) .. قال ياقوت : موضع أسفل من خيبر .

لكم حتى آتيكم بالخبر ، وإن أحببتم سرنا جميعاً . قالوا : بل نقدمك فقدموه ، فغاب عنهم ساعة ثم كر عليهم فقال : هذا أوائل سرحهم ، فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟

فاختلف أصحاب النبى ﷺ . فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرنا الرجال والعطن . وقال آخرون نغنم ما ظهر لنا ، ثم نطلب القوم ، فشجعوا على النعم ، فأصابوا نعماً كثيراً ملأوا منه أيديهم ، وتفرق الرعاء وخرجوا سراعاً ، ثم حذروا الجمع . فتفرق الجمع وحذروا ، ولحقوا بعلياء بلادهم ، فخرج بشير بأصحابه حتى أتى محالهم ، فيجدها وليس بها أحد ، فرجع بالنعم حتى إذا كانوا بسلاح راجعون لقوا عينا (جاسوساً) لعيينة فقتلوه ، ثم لقوا جمع عيينة ، وعيينة لا يشعر بهم فناوشوهم ، ثم انكشف جمع عيينة وتبعه أصحاب النبى ﷺ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً ، فقدموا بهما على النبى ﷺ فأسلما فأرسلهما النبى ﷺ .

سيد بنى مرة ينصح عيينة بن حصن ليسلم

وكان الحارث بن عوف المرّى سيداً ذا عقل راجح ونظر بعيد . وكان لذلك هو الزعيم النجدى الوحيد الذى رفض مساندة اليهود عسكرياً فى صراعهم الدامى مع محمد ﷺ بخيبر . ونصح عيينة بن حصن أن يلتزم جانب الحياد فلا يساند اليهود . لأنهم مغلوبون لا محالة . ولكن عيينة لم يعمل بنصيحة الحارث . فنال نصيبه من خزى هزيمة اليهود الساحقة فى معركة خيبر الفاصلة التى ساهم فيها إلى جانب اليهود بخمسة آلاف مقاتل من قومه ومن أطاعه من قبائل غطفان التى كانت دائما حليف اليهود المفضل ضد النبى ﷺ .

وعندما حزب عيينة بن حصن قبائل غطفان ضد النبى ﷺ . والتى تشكل بنو مرة أحد أجنحتها الهامة . عندما حزب عيينة هذه القبائل وأخذ فى تجميعها فى وادى الجناب لغزو المدينة . اعتزله سيد بنى مرة الحارث بن عوف فلم يشترك أحد من بنى مرة فى ذلك التجمع الغطفانى الفاشل .

غير أن الحارث بن عوف . لقى عيينة بن حصن وهو منهزماً . فذكره بما كان قد نصحه به فى الماضى . فقد قال الواقدى : (وكان الحارث بن عوف المرى حليفا لعيينة ولقيه منهزماً على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً

فاستوقفه الحارث فقال : لا ، ما أقدر . والطلب خلفى . أصحاب محمد . وهو يركض . فقال الحارث بن عوف : أمالك بعد أن تبصر ما أنت عليه ؟

إن محمداً ﷺ قد وطئ البلاد وأنت موضع فى غير شيء . قال الحارث : فتنحيت عن سنن خيل محمد ﷺ حتى أراهم ولا يروننى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ما أرى أحداً وما طلبوه إلا الرعب الذى دخله قال : فلقيه بعد ذلك ، فقال الحارث فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ، ما رأيت من طلب . قال عيينة : هو ذاك ، إنى خفت الإسار وكان أثرى عند محمد ﷺ ما تعلم فى غير موطن . قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً بينا فى بنى النضير ، ويوم الخندق وقريظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفى خيبر ، إنهم كانوا أعز يهود الحجاز كله يقرون لهم بالشجاعة والسخاء ، وهم أهل حصون منيعة ، وأهل نخل ، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم . لقد سارت حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من الناس . ثم قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم . فقال عيينة . هو والله ذاك ، ولكن نفسى لا تقرنى . قال الحارث فادخل مع محمد ﷺ . قال : أصير تابعاً . قد سبق قومى إليه فهم يزرون بمن جاء بعدهم . يقولون . شهدنا بدرا وغيرها . قال الحارث . وإنما هو على ما ترى . فلو تقدمنا إليه لكنا من علية أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادعة وهو موقع بهم وقعة ، وما وطئ له الأمر . قال عيينة : أرى والله فابتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبى ﷺ إلى أن مر بهما فروة بن هبيرة القشيرى يريد العمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان . قال فروة : لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه فى هذه المدة التى هم فيها وآتيكم بخبرهم فأخروا القدوم على الرسول ﷺ ، ومضى فروة حتى قدم مكة فتحسب من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النبى ﷺ ، لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً ، فخبّرهم بما أوقع محمد بأهل خيابر . قال فروة : وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمحمد . قالت قريش : فما الرأى ؟ فأنت سيد أهل الوبر ؟ نقضى هذه المدة التى بينكم وبينه (يعنى مدة هدنة الحديبية) ونستجلب العرب ثم نغزوه فى عقر داره .

تحريض قريش على نقض الهدنة

قال الواقدى : وأقام فروة بن هبيرة القشيرى أياماً يجول فى مجالس قريش ويسمع به نوفل بن معاوية الديلى ، فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش فقال نوفل : إذا . لا أجد عندكم شيئاً . قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ولنا عدو قريب داره ، وهم عيبة نصح محمد لا يغيبون عليه حرفاً من أمورنا . قال : من هم . قال خزاعة . قال : قبحت خزاعة ، قعدت بها يمينها . قال فروة : فماذا ؟ قال : استنصر قريشاً أن يعينوا عليهم . قال فروة : فأنا أكفيكم . فلقى رؤساءهم ، صفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمر ، فقال : ألا ترون ماذا أنزل بكم ؟ إنكم رضيتم أن تدفعوا محمداً بالراح . قالوا : فما نصنع ؟ قال تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم . قالوا : إذاً يغزونا محمد فى ما لا قبل لنا به فيوطئنا غلبة ، وننزل على حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا . فلقى نوفل بن معاوية فقال : ليس عند القوم شيء . ورجع فلقى عيينة والحارث فأخبرهم وقال : رأيت قومه قد أيقنوا عليه فقاربوا الرجل وتدبروا الأمر . فقدموا رجلاً وأخروا أخرى . (مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٢٩) .

— ٦ —

غزوة القضية(١) شوال سنة سبع للهجرة

ومن أهم الأحداث ذات الأثر العميق فى تغيير مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية لصالح الإسلام والتى نتج عن القيام بها تحولات فى الذهنية القرشية . تصححت بها المفاهيم الخاطئة المترسبة فى أذهان القرشيين وغيرهم من العرب المجاورين لمكة والتصورات المغلوطة التى بها يتصورون الإسلام وأتباعه .. من أهم هذه الأحداث التى نتجت عنها كل هذه التحولات والتصحيحات .. عمرة القضية أو غزوة القضية — كما يسميها أصحاب المغازى والسير .

---

(١) وتسمى أيضاً عمرة القضاء ، وعمرة القضية ، وعمرة القصاص . قال فى الروض الأنف ج ٢ ص ٢٥٤ : وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ .

وهى العمرة التي قام بها النبى ﷺ وأصحابه قضاء عن العمرة التى مُنع المسلمون من أدائها فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . فعادوا إلى المدينة دون أدائها بعد أن أحرموا بها . وذلك بموجب الصلح التاريخى المعقود بين النبى ﷺ وبين قريش فى الحديبية والذى أطلق عليه اسم (صلح الحديبية)[1] .

وقد تمت هذه العمرة التاريخية مصداقاً لقوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرُّؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا ﴾[2] .

لقد بسطنا فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة كامل قصة النزاع ومراحل الخلاف الخطير الذى نشب بين النبى ﷺ وبين قومه قريش والذى كاد يؤدى إلى حرب طاحنة بين الفريقين . والذى انتهى بذلك الصلح التاريخى الذى قبل النبى ﷺ ـــ بموجبه ـــ أن يعود بأصحابه إلى المدينة دون أن يدخل مكة فحل إحرامه فى الحديبية خارج حدود الحرِم وعاد إلى المدينة .

الحل الوسط فى الصلح

لقد كان الحل الوسط الذى تم الاتفاق عليه فى الحديبية بين النبى ﷺ وبين عشيرته قريش . فأنهى ذلك النزاع الخطير الذى كاد يبعث حرباً ضروساً بين الفريقين بسبب تصلف قريش وبغيها وعنادها . كان هذا الحل الذى تضمنه صلح الحديبية المعقود فى السنة السادسة من الهجرة ـــ يقضى بأن يرجع النبى ﷺ وأصحابه عامهم ذاك إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة . على أن يكون لهم الحق فى أن يدخلوها معتمرين فى العام القادم وبعد سنة كاملة بالتحديد .

وكما هو مفصل فى كتابنا الخامس (صلح الحديبية) كانت بنود ذلك الصلح محل سخط أكثرية الصحابة الذين كانوا مع النبى ﷺ فقد كان مصدر تضايق لهم لما يحمله فى الظاهر من إجحاف . سماه بعضهم دنيئة وإذلالاً

---

(١) انظر كتابنا الخامس من هذه السلسلة والمسمى بـ (صلح الحديبية) .
(٢) الفتح ٢٧ .

للمسلمين .. إلا أنهم (مع كرههم لهذا الصلح) لم يسعهم إلا السكوت والتسليم . لأنه ليس فى إمكانهم عصيان النبى الأعظم ﷺ والخروج على إرادته . لأنه إنما يصدر فى كل تصرفاته عن أمر ربه .

كيف حقن الصلح الدماء عن أن تراق

والواقع أن ارتضاء النبى ﷺ أن يعود بأصحابه إلى المدينة على أن يقوموا بأداء العمرة فى العام القادم . وذلك كحل وسط حسم النزاع .. الواقع أن قبول النبى ﷺ بهذا الحل قد كان سبباً فى حقن دماء كثيرة كان من الممكن أن تراق من الفريقين بغزارة فى الحرم ، لو أن النبى ﷺ استجاب لعواطف أصحابه التى كانت يومها فى أعلى درجات الفوران .. فاقتحم الحرم بقوة السلاح لأداء مناسك العمرة .. كما هى رغبة أكثرية أصحابه الذين يفضلون اقتحام مكة بحد السيف لمباشرة حقهم فى الطواف والسعى على أن يعودوا إلى المدينة دون أن يؤدوا عمرتهم .

قانون عام غير مكتوب

لقد كان القيام بالعمرة (الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة) حق لأى إنسان كائن من كان . له أن يباشره حتى ولو كان فى حالة حرب مع سكان الحرم أنفسهم .

هذا قانون غير مكتوب أجمع على الالتزام به كل سكان الجزيرة العربية عبر آلاف السنين .

غير أن قريشاً ركب العناد رأسها . فركض الشيطان بها فى دروب العناد والمكابرة . فخرقت هذا القانون العام . حين أصرت على منع المسلمين (بحد السلاح) ذلك العام من دخول الحرم لأداء العمرة بغياً وعدواناً وبطراً ورياء الناس .

وكان من حق المسلمين أن يدخلوا مكة ويقاتلوا من يعترض سبيلهم . وكان ذلك هو رأى الأغلبية من أصحاب النبى ﷺ . رداً على عناد قريش وتصلفها .

ولكن النبى الأعظم (وهو الذى جاء لإرساء قواعد السلم فى الأرض) ،

رأى أن مقابلة عناد قريش بعناد مثله (كما هو رأى الأغلبية من أصحابه) سيتسبب فى إشعال نار حرب طاحنة ضارية داخل الحرم الآمن . لا مبرر لها ولا ضرورة .

لذلك قبل ﷺ الحل الوسط الذى اقترحه وأملاه فى وثيقة الصلح مندوب قريش ومفوضها الأول سهيل بن عمرو العامرى(١) بالرغم من معارضة الأغلبية العظمى من الصحابة لقبول هذا الحل لأنهم رأوا أن فى القبول بأكثر الشروط التى أملاها مندوب قريش فى وثيقة صلح الحديبية ــ ومنها هذا الحل الوسط ــ دنيئة عليهم فى دينهم « كما صرح بذلك الفاروق عمر أمام النبى ﷺ وهو يبدى فى مجلس الرسول ﷺ معارضته العنيفة للصلح » .

والواقع أن الصحابة (رضى الله عنهم) ليسوا ملومين (كبشر عاديين) حينما صارحوا النبى الأعظم ﷺ بانزعاجهم وامتعاضهم لقبول الحل الذى اقترحه مندوب قريش والذى يقضى بأن يعود النبى وأصحابه إلى المدينة ذلك العام (٦ هجرية) دون أن يقضوا مناسكهم . مع اقتدارهم (عسكرياً) على أن يقضوها إذا ما اعترضتهم قريش بالقوة .

كانوا غير ملومين ــ حين عارضوا الصلح كله لتضمنه تلك الشروط القاسية ــ(٢) لأنهم نظروا إليها من زاوية نظرة الإنسان العادى (فهم بالنسبة لمنزلة النبى الأعظم عاديون).. والإنسان العادى (فعلاً) لكونه ذا فهم محدود .. إذا ما نظر إلى تلك الشروط التى أملاها مفوض قريش ومندوبها سهيل بن عمرو فى مفاوضات الحديبية . وقبل بها النبى ﷺ .. اتضح له (لأول وهلة) أنها تحمل الإجحاف كل الإجحاف بحق المسلمين .

إذ (مثلاً) كيف تطاوع المسلمين أنفسهم أن يقبلوا أن يصدهم المشركون عن البيت وقد وصلوا حدود الحرم . ثم يعودوا دون أن يقضوا مناسك العمرة التى قطعوا مئات الأميال لأدائها . مع اقتدارهم (عسكرياً) على أن يقضوا هذه المناسك إذا ما اعترضتهم قريش وحاولت منعهم بالقوة ؟؟.

---

(١) انظر ترجمة سهيل بن عمرو . هذا فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى)

(٢) انظر تفاصيل هذه الشروط فى كتابنا الخامس (صلح الحديبية) .

ولكن النبى ﷺ الذى يدرك أكثر مما يدرك أصحابه من أبعاد المستقبل .. ويعلم من الله ما لا يعلمون لأنه على صلة مباشرة مع السماء ﴿ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] رأى أن يقبل ذلك الحل الوسط الذى اقترحه وأملاه فى وثيقة الصلح مفوض قريش ومندوبها سهيل بن عمرو . فأمر أصحابه أن يحلوا إحرامهم فى الحديبية خارج الحرم . وأن يعودوا إلى المدينة . على أن يقضوا مناسك عمرتهم فى العام القادم كما نصت على ذلك بنود اتفاقية الصلح .

وكما فصلناه فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية) .. تردد الصحابة كلهم (تقريباً) فى حل إحرامهم ونحر هديهم فى الحديبية وقبل أن يبلغ محله حتى أغضبوا بذلك النبى ﷺ . فلم ينحروا ويحلوا إحرامهم حتى رأوا النبى ﷺ ينحر هديه بيديه الشريفتين .

وقد أجمع المؤرخون على أنه (بسبب قبول النبى ﷺ بشروط الصلح كاد المسلمون أن يهلكوا للغم الذى نزل بهم لأن نفوسهم لم تستسغ هذه الشروط . لولا التزامهم بطاعة نبيهم ﷺ .

مكاسب صلح الحديبية

غير أن هؤلاء الصحابة الذين عارضوا الصلح أشد المعارضة ـــ وبمجرد عودتهم إلى المدينة من الحديبية ـــ أخذت بركات ومكاسب هذا الصلح الذى كرهوا واغتموا له تتجلى لهم وتتوارد عليهم شيئاً فشيئاً .. متجسدة فيما جد من أحداث نتيجة هذا الصلح . كلها كانت نصراً وتعزيزاً للمسلمين .

فازداد المسلمون يقيناً بأن نبيهم العظيم يدرك أبعد مما يدركون وإن الحكمة التى آتاها الله لا يمكن لبشر أن يسبر غورها أو يدرك مداها . وأنه لا يفعل ولا يقول إلا حقا . وأن ما كرهوه من هذا الصلح قد حقق للمسلمين من الانتصارات المعنوية والسياسية وعلى كل صعيد . ما لم تحققه أية معركة حربية خاضوها وانتصروا فيها على معسكر الشرك والوثنية .

---

(١) النجم ٤ .

المسلمون فى مكة يعتمرون

كان صلح الحديبية الذى ينص على عودة المسلمين من الحديبية (المسماة اليوم بالشميسى) إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة . على أن يسمح لهم بدخولها للعمرة بعد سنة من تاريخ إبرام هذا الصلح .. كان هذا الصلح قد عقد فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

ولذلك فإن المسلمين بعد مرور سنة كاملة على عقد هذا الصلح أدوا مناسك العمرة قضاءاً ومن أجل ذلك أطلق على هذه العمرة التاريخية عمرة القضاء أو عمرة القضية .

ففى شهر ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة (وبعد مرور حوالى أحد عشر شهراً على انتصار المسلمين الساحق على اليهود فى خيبر وقبل أحد عشر شهراً من فتح مكة وَغزوة حنين) وجه النبى الأعظم ﷺ نداء إلى أصحابه أمرهم فيه بأن يستعدوا للتوجه معه إلى مكة المكرمة ليعتمروا ـ قضاء عمرتهم التى صدهم المشركون عنها فى السنة الماضية ـ وكان أمره ﷺ يقضى بأن لا يتخلف أحد عن عمرة القضاء هذه من الذين شهدوا الحديبية فى السنة السادسة للهجرة وصدوا مع من صدوا عن البيت .

فلبى الصحابة طلب نبيهم ﷺ ونفذوا أوامره . فلم يتخلف عن عمرة القضاء هذه أحد ممن شهد الحديبية إلا رجال كتبت لهم الشهادة فى معركة خيبر الحاسمة أو رجال وافاهم الأجل المحتوم قبل أن يحل ميعاد القيام بعمرة القضاء هذه .

عدد المعتمرين عمرة القضاء

كذلك لم يمانع النبى ﷺ فى أن يخرج معه من أراد العمرة ممن لم يشهد الحديبية من المسلمين . فاعتمر معه (بالإضافة إلى أصحاب الشجرة أهل الحديبية) ستمائة كلهم لم يشهد الحديبية .. فهو إما ممن تخلف عنها وإما ممن أسلم بعدها .. فكان عدد الذين أدّوا العمرة تلك السنة التاريخية ألفين من الصحابة .

لقد كان فرح المسلمين عظيماً حينما سمعوا نداء النبى ﷺ وهو يأمرهم

بالتأهب للتوجه إلى مكة المكرمة للعمرة .. وخاصة المهاجرين الذين كانوا (أكثر من غيرهم) تهفو قلوبهم إلى مكة . موطنهم الأول . ومسقط رأسهم .

فلا ينكر أحد ما للوطن (وخاصة مثل مكة) من ذكريات حلوة يختزنها القلب وتحتل مكانها العالى فى النفس .

أمير على المدينة بالنيابة

وبعد أن أكمل الأصحاب تجهيزاتهم للرحلة الطويلة إلى مكة وقرر النبى ﷺ مغادرة المدينة فى اليوم الذى حدده . أصدر (كما هى عادته فى مثل هذه الأحوال) .. مرسوماً نبوياً عيَّن بموجبه أبا رُهم الغفارى[1] أميراً على المدينة يدير شئونها نيابة عن الرسول الأعظم ﷺ حتى عودته من مكة المكرمة .

كمية الهدى فى هذه العمرة

وكان النبى ﷺ قد أعد ستين بدنة ليسوقها معه هدياً إلى الحرم . وهو العدد الذى ساقه معه عام الحديبية واضطر إلى أن ينحره خارج حدود الحرم فى الحديبية نفسها بسبب إصرار المشركين على صده عن البيت ذلك العام كما هو مفصل أوسع تفصيل فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية) .

وقد جعل رسول الله ﷺ على هديه هذا ناجية بن جندب الأسلمى[2] وهو نفسه الذى جعله النبى ﷺ على الهدى الذى ساقه عام الحديبية . وفى هذه المرة أضاف النبى ﷺ أربعة فتيان من أسلم قوم (ناجية بن جندب) ليكونوا له عوناً فى العناية بالهدى[3]

---

(١) أبو رهم (بضم أوله وسكون ثانيه) . قال فى الإصابة : اسمه كلثوم بن حصين بن خالد بن العسعس بن أحمس بن غفار . مشهور باسمه وكنيته . كان ممن بايع تحت الشجرة وكان من البدريين (انظر اسمه بين البدريين فى كتابنا غزوة بدر الكبرى) . وذكر ابن سعد أن النبى ﷺ بعثه يستنفر قومه (غفار) فى غزوة تبوك .

(٢) انظر ترجمة ناجية بن جندب فى كتابنا « صلح الحديبية » .

(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٣٢ .

من أين أحرم الرسول ﷺ بالعمرة

وفى عمرة القضاء هذه أحرم النبى ﷺ من باب مسجده داخل المدينة . أى أنه لم يحرم من الميقات المألوف (ذى الحليفة) وقد ذكر الواقدى سبب ذلك فقال :

وحدثنى ابن أبى سبرة ، عن موسى بن ميسرة ، عن جابر بن عبد الله قال : أحرم رسول الله ﷺ من باب المسجد أنه سلك إلى طريق الفرع ولولا ذلك لأهل من البيداء .

حمل السلاح احتياطاً

ورغم أن النبى ﷺ « فى حالة هدنة مع القرشيين بمكة ورغم أن اتفاقية الحديبية تنص على أن ليس للمسلمين أن يحملوا من السلاح (داخل مكة) سوى السيوف فى أغمادها .. فإن النبى ﷺ قد حمل معه من المدينة فى هذه العمرة) من العتاد الحربى (السيوف والبيض والدروع والرماح) ما يكفى لتسليح أصحابه الذين كانوا معه والذى بلغ عددهم الألفين .

كما أن النبى ﷺ أعد كتيبة من الفرسان المسلحين قوامها مائة فارس وكلف هؤلاء الفرسان بأن يكونوا فى مقدمته حتى حدود الحرم .

وعندما قرر النبى ﷺ ذلك ناقشه بعض أصحابه بأن حمل السلاح كاملاً (وعلى تلك الصورة) قد يفسر بأنه نقض لاتفاقية الحديبية . فأفهمهم بأنه لا يفكر فى ما تسرب إلى أذهانهم . فهو لا ينوى بحمله السلاح الكامل على تلك الصورة لكى يدخل به الحرم .. كلا وإنما فعل ذلك استعداداً للطوارئ فقط لأنه ﷺ أدخل فى حسابه أن قريشاً قد تستغل فرصة تجرّد المسلمين من السلاح فتغدر بهم وهم يؤدون مناسكهم .

ولذلك أمر بحمل السلاح كاملاً . وألّف كتيبة الفرسان لتكون طليعة أمامه من باب الحيطة والحذر .. ثم أفهم الأصحاب الذين أبدوا ملاحظاتهم على حمله السلاح الكامل .. بأن حمله قد يكون مناقضاً لشروط صلح الحديبية .. أفهمهم بأنه « لكى يتمشى فى تصرفاته مع اتفاقية الحديبية نصا وروحاً » سيحمل معه كامل السلاح إلى أن يصل حدود الحرام . وهناك

سيترك السلاح (خارج الحرم) فى حراسة بعض أصحابه ليلجأ إلى هذا السلاح إذا ما اضطر إليه . وأنه تنفيذاً لاتفاقية الحديبية لن يسمح لأحد من أصحابه بأن يحمل من السلاح داخل الحرم إلا السيف فى غمده .

قال الواقدى .. حدثنى معاذ بن محمد ، عن عاصم بن عمر ، قال : حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيض والدروع والرماح . وقاد مائة فرس فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدّم الخيل أمامه وهى مائة فرس عليها محمد بن مسلمة . وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد ، فقيل : يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا علينا (يعنى المشركين) ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب .. فقال رسول الله ﷺ : إنا لن ندخلها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا[1] .

التحرك من المدينة

وبعد أن أكمل النبى ﷺ وأصحابه استعدادهم . تحرك الرسول الأعظم ﷺ بأصحابه من المدينة يضجون بالتلبية والتكبير والتهليل .

فكان مظهراً يهز المشاعر . ويستقطب ذكريات الماضى . فتعج بها النفوس المؤمنة فى اعتزاز مشوب بلذة النصر الرائع (الرائع جداً) . الذى هو حصيلة الثبات على العقيدة الحقة . والصبر أمام الأعاصير الهوج التى هبت أيام الاستضعاف ــ على النفوس المؤمنة . عندما كان أصحابها فى مكة قبل الهجرة . قلة قليلة يتعرضون لضروب من الإرهاب والترويع والقتل ــ أحياناً ــ تحت وطأة التعذيب الوحشى الهمجى .. فيصمدون رغم ذلك صمود الرواسى أمام أعتى العواصف .

من ثمرات الثبات على العقيدة

فيا للثمر اليانع الخصب يجنيه الصامدون وراء متاريس العقيدة الحقة الصلبة لمواجهة تيارات البلايا والمحن .

فها هم طريدو الأمس الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد والتعذيب (وهم

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ص ٧٣٣ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٦ .

قلة قليلة) على أيدى كثرة غاشمة كافرة متغطرسة .. هاهم الذين خرجوا — قبل سبع سنوات مستخفين خائفين — تاركين مكة فراراً بديهم . وخوفاً من بطش الوثنية وفتك الشرك .. هاهم يتحركون اليوم من مركز القوة . فى اعتزاز المؤمن وثقة المسلم . ليدخلوا مكة مرفوعة رؤوسهم . دون أن يجرأ أحد من أعدائهم وجلاّديهم بالأمس . أن يفكر — مجرد تفكير — فى اعتراض سبيلهم . فضلاً عن الاعتداء عليهم .. كما يفعل بالأمس وقبل سبع سنوات .

قريش تحتج على حمل المسلمين السلاح

وكان النبى الأعظم ﷺ (كما ذكرنا آنفاً) .قد انتخب مائة فارس من المهاجرين والأنصار وأمر قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى بأن يتقدم بهم طليعة أمامه حتى مكة . وذلك من قبيل الحيطة والحذر .

كما قدم الأسلحة والأعتدة الحربية التى قد يضطر إلى استخدامها إذا ما حزبه أمر وهو بمكة .. قدم هذه الأسلحة والأعتدة مع القائد المحارب الشهير ، بشير بن سعد الأنصارى . ثم تحرك ﷺ بباقى أصحابه . يقدمهم . ممتطياً ظهر ناقته القصوى يحيط به الأصحاب من كل جانب تشق أصواتهم عنان السماء بالتلبية والتكبير والتهليل . وقد انتشر بين أيديهم ستون بدنه وهى الهدى المسوق لينحر فى مكة .

ولما كانت قريش تتوقع أن يأتى النبى ﷺ فى أصحابه لأداء مناسك العمرة كما تنص اتفاقية الحديبية . بعث ساداتها بعدد من رجال استخباراتهم ليضربوا فى الأرض بعيداً عن الحرم ليتحسسوا أخبار الرسول ﷺ وأصحابه . ويقدموا لهم تقريراً مفصلاً عن وضع المسلمين والحالة التى هم عليها أثناء تحركهم نحو مكة المكرمة .

وقد وصل رجال استخبارات قريش فى استكشافهم إلى مر الظهران (وهو المسمى اليوم بوادى فاطمة) وهناك رأوا كتيبة الفرسان التى يقودها محمد بن مسلمة الأنصارى مدججة بكامل أسلحتها كما رأوا الأسلحة الكثيرة وعدد الحرب الكاملة التى تحملها وسائل النقل والرجال المكلفون بحملها تحت قيادة وإشراف بشير بن سعد الأنصارى .. فأفزعهم ذلك . فسألوا محمد بن مسلمة ..

ما الخبر فأبلغهم أن النبى ﷺ سيكون غداة ذلك اليوم فى مر الظهران .

فعادوا أدراجهم إلى مكة مسرعين . وهناك أبلغوا سادات قريش ما رأوا من الخيل والسلاح الذى مع محمد بن مسلمة وبشير بن سعد ورجالهما الذين كانوا يقدمون النبى ﷺ وباق أصحابه كطليعة لهم .

ففزعت قريش لذلك فزعاً شديداً وتسرب إلى أذهان قادتها أن النبى ﷺ قد نقض صلح الحديبية حين قدم أمامه الأسلحة الكثيرة والفرسان المدججين . وأنه ــ لا شك ــ قد جاء لغزو قريش واحتلال مكة بقوة السلاح . والهدنة قائمة بين الفريقين . لذلك سارعت قريش إلى عقد اجتماع عاجل فى دار الندوة لبحث ما تصورت أنه غزو اعتزم النبى ﷺ القيام به ضدهم فى فترة الهدنة القائمة بين الفريقين .

وبعد استعراض الوضع فى دار الندوة قررت قريش التريث وأن تبعث أولاً بوفد منها لمقابلة النبى ﷺ لمعرفة نواياه الحقيقية من جلب الفرسان المدججين بكامل أسلحتهم وهو فى هدنة معهم ومجيئه للعمرة فقط قبل الهجرة .

اجتماع وفد قريش بالرسول ﷺ فى يأجج

وكان النبى ﷺ قد وصل بأصحابه إلى مر الظهران (وادى فاطمة) ومن هناك قدم الخيل والسلاح إلى بطن ياجج بالقرب من أنصاب الحرم . ثم لحق وبقية أصحابه بهم . وهناك (فى بطن يأجج) عسكر النبى ﷺ بأصحابه ومعهم كامل عدة الحرب من خيل وأسلحة .

وإلى حيث عسكر النبى ﷺ بأصحابه ــ وعددهم ألفان ــ فى بطن وادى ياجج وصل الوفد القرشى المكون من عدة زعماء برئاسة مكرز بن حفص العامرى الذى كان أحد أعضاء الوفد القرشى المفاوض مع سهيل بن عمرو فى مفاوضات الحديبية .

ولدى اجتماع الوفد القرشى هذا بالنبى ﷺ فى وادى يأجج أعربوا له عن مخاوفهم واحتجوا على حمله الأسلحة ومجيئه بالخيل الكثيفة . وكيف يبيح لنفسه (كما تصوروا) أن يغزو مكة ويدخلها بكل هذه الأسلحة . وقريش لم يأت منها ما يخل بالعهد الذى أبرم فى الحديبية بين الفريقين قبل عام ؟ .

غير أن النبى الأعظم ﷺ بدد كل المخاوف التى كانت تساور القرشيين . وأكد لهم بأنه على العهد الذى أعطاه فى الحديبية . وأنه لن يسمح لأحد من أصحابه بأن يحمل من السلاح داخل الحرم فى هذه العمرة . إلا سلاح الراكب (السيف فى قرابه) كما تنص على ذلك بنود اتفاقية الحديبية .. فاطمأن الوفد القرشى . وعاد إلى مكة ليطمئن قريشاً ويزيل عنها المخاوف التى كانت قد أقلقتها .

قال الواقدى : ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مَر الظهران فيجد بها نفراً من قريش فسألوا محمد بن مسلمة ، فقال : هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله . فرأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ففزعت قريش فقالوا : والله ماأحدثنا حدثاً ، ونحن على كتابنا ومدتنا (يعنون بذلك صلح الحديبية) ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ .. ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران ، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، وبعثت قريش مكرز بن حفص بن الأحنف[1] فى نفر من قريش ، حتى لقوه ببطن يأجج ، ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح (قد تلاحقوا فقالوا : يا محمد . والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر . تدخل بالسلاح الحرم على قومك ، وقد شرطت ألّا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب . فقال رسول الله ﷺ : لا ندخلها إلا كذلك (أى بسلاح المسافر فقط) . ثم رجع (أى مكرز بن حفص) بأصحابه إلى مكة فقال : إن محمدا لا يدخل بسلاح ، وهو على الشرط لكم[2] .

تخزين السلاح قرب حدود مكة

أما الأسلحة التى جلبها النبى ﷺ معه فى عمرته هذه فقد أمر بتخزينها فى بطن وادى يأجج . وكانت كميات كبيرة . وقد أمر النبى ﷺ بأن يبقى من أصحابه لحراسة هذه الأسلحة مائتا رجل بقيادة أوْس بن خولى

---

(١) انظر ترجمة مكرز بن حفص فى كتابنا « صلح الحديبية » .
(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٣٤ .

الأنصارى[1] على أن يأتى من الأصحاب الذين أدّوا مناسك العمرة ليحلوا محل أوس بن خولى وأصحابه لحراسة الأسلحة . ليؤدى أوْس وأصحابه المائتان مناسك العمرة كإخوانهم . وقد حدث ذلك بالفعل . حيث عاد من مكة مائتان من الصحابة وحلوا محل أوس بن خولى وأصحابه فى حراسة الأسلحة .

قال الواقدى : حدثنى عائذ بن يحيى عن ، عن أبى الحويرث ، قال : وخلَّف رسول الله ﷺ مائتى رجل على السلاح ، عليهم أوْس بن خولى . ثم قال الواقدى ـــ بعد أن أتى على تفاصيل عمرة القضية ـــ وقد كان رسول الله ﷺ أمر مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ، ففعلوا .[2] .

جلاء قريش عن مكة

ما كانت بنود صلح الحديبية التاريخى الذى بموجبه دخل المسلمون مكة لأداء مناسك العمرة والبقاء ثلاثة أيام .. ما كانت هذه البنود تنص على إلزام القرشيين بالجلاء عن مكة عندما يدخلها المسلمون معتمرين ويبقون فيها تلك المدة .

ولكن قريشا نفسها آثرت الجلاء عن مكة عندما يدخلها المسلمون لقضاء العمرة .. فقررت أن تجلو عنها إلى رؤوس الجبال . لأنها شعرت أنه ثقيل على نفوسها إلى حد لا تطيقه أن تنظر إلى النبى ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ويسعون بين الصفا والمروة ويتجولون فى أحياء مكة أحراراً دون أن يجرأ أيّ كان على اعتراض سبيلهم .. وهم الذين خرجوا بالأمس يتحسسون رؤوسهم يطلبهم الموت فى كل مكان بعد أن أهدرت قريش دماءهم وجعلت مائة ناقة جائزة لمن يأتيها برأس سيدهم ونبيهم محمد ﷺ . وكانوا إلى ما بعد صلح الحديبية لا يستطيعون الاقتراب من حدود الحرم فضلاً أن يقوموا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة .. لهذا (وتحت ضغط البغض الوثنى الأسود) قررت قريش أن تجلو ، إلى رؤوس الجبال لأنها لا تحتمل النظر إلى

---

(١) انظر ترجمة أوس بن خولى فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية ص ١٧٠)

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٤٠ .

النبى وأصحابه . وقد صرح سادات قريش أنفسهم بما يترجم عن شعورهم بالمرارة وعدم احتمالهم النظر إلى المسلمين وهم داخل مكة .

فقد روى أبو قتادة أن الزعيم القريشى (مكرز بن حفص العامرى) لما رجع إلى مكة من وادى يأجج وطمأن قريشاً بأن النبى ﷺ ليس فى نيته غزوها . فقال لهم : إن محمداً لا يدخل بسلاح . خرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال ، وخلوا مكة ، وقالوا : ولا ننظر إليه ولا إلى أصحابه[1] .

منظر رائع

أما النبى ﷺ فبعد أن رتب أمر حراسة الأسلحة فى وادى يأجج بتركه مائتين من أصحابه بقيادة أوس بن خولى الأنصارى تحرك من هذا الوادى إلى (ذى طوى) حيث أمر بحبس الهدى هناك حتى يتكامل أصحابه . وقد خرج فى اتجاه ذى طوى على ناقته القصوى وأصحابه يحيطون به متوشحين السيوف تدوى أصواتهم بالتلبية « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ».. وهى تلبية ترى قريش أن تقطع لسان من ينطق بها لو استطاعت . ولكن هيهات هيهات . فقد جدع النبى الحكيم بإبرامه صلح الحديبية أنفها . حين أرغمت على قبول دخول المسلمين مكة لتأدية مناسك العمرة حسب شريعتهم التى قامت على أساس هدم الوثنية التى كانت قريش حتى ذلك اليوم ترى أنَّ من واجبها الذود عنها بالمهج والأرواح .

وعندما تكامل جمع المسلمين بذى طوى وقف الرسول الأعظم ﷺ على ناقته القَصوى وسط أصحابه تحيطهم هالة من الوقار والهيبة ثم اندفع بهم نحو المدينة المقدسة (مكة) التى دخلها ﷺ من شمالها عند الحجون .

وكان القرشيون (كما قلنا) قد جلوا عن مكة إلى رؤوس الجبال لئلا يروا المسلمين فى مكة أو يخالطوهم .

ومن رؤوس تلك الجبال ــ وعلى مد النظر ــ رأوا بعيون كاد يزيغها حقد

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٣٤ .

الكفر وضغينة الجاهلية .. رأوا النبى محمداً ﷺ وأصحابه يزحفون نحو مكة تشق أصواتهم عنان السماء متحدية الشرك بتلبية التوحيد « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » . وهى تلبية لا يصدع شيء قلوب الوثنيين مثل رفع الصوت بها . وخاصة فى مكة التى لازالت (حتى ذلك اليوم) تحت سلطان الوثنية ومعقلها الأكبر .

رأى المشركون القرشيون وهم معتصمون برؤوس جبال مكة فى عملية أشبه بالفرار .. رأوا خصمهم الألد محمداً وأصحابه قد حجب سوادهم الأفق وهم يتحركون نحو مكة فى عزة المسلم وثبات المؤمن وخشوع العابد الصادق الذى لا يعنو وجهه ولا يخضع قلبه إلا للواحد الأحد الفرد الصمد .

رأى المشركون من قمم جبال مكة هذا المنظر المهيب الرائع . فأخذت ذكريات الماضى الأسود ــ الذى لم تمر عليه أكثر من سبع سنوات ــ تنهش قلوبهم بضراوة . فكادت ــ لذلك ــ هذه القلوب التى ما زال ظلام جهل الوثنية يغلفها . تقفز من أقفاصها فى الصدور غيظاً وحنقاً .

لأنهم رأوا ــ وبعيون لا تكاد تصدق ما ترى ــ محمداً ﷺ يدخل مكة فى هذا الحشد الحاشد (ألفين من أصحابه المغاوير) وهو آمناً مطمئناً ورغم أنوفهم .. يدخل هكذا وعلى هذا المستوى من العزة والاعتزاز بالله ثم بالنفس وبالقوة البشرية العظيمة التى تحيطه من الأصحاب ، وهو (حسب منطقهم) الطريد الذى خرج من مكة (قبل سبع سنوات) مع صاحبه الصديق خائفاً يترقب يبحث عنه الموت فى كل مكان . لأن سيوف الشرك . كل سيوف الشرك . خرجت من مكة يومها مصلتة تطلب رأسه . ذلك أن الحقد الوثنى الكافر المجنون « يوم أن نجا محمد من المؤامرة التى دبرتها دار الندوة لاغتياله على فراشه » جعل مائة ناقة مكافأة لمن يعيد إليهم محمداً حياً أو ميتاً .

وها هو محمد اليوم يأتيهم . ولكن لا كما يريدون . بل كأكره ما يكرهون . إنه يدخل مكة على هيئة لا تحتمل نفوسهم النظر إليه وهو عليها . ولذلك قرروا الجلاء عن مكة (اختياراً) ليخلوها له ولأصحابه . لأنه وهؤلاء الأصحاب سيدخلون مكة . مرفوعة رؤوسهم تحيطهم عزة الإيمان وتحرسهم

قوة الإسلام . فى موكب مهيب ضم ألفين من المهاجرين والأنصار يتلفتون حول نبيهم الحبيب ﷺ كما تتلفت الأسود الضوارى وهى تحمى عرين أشبالها .. على هذه الهيئة المهيبة وبهذا المنظر الرائع ولج النبى ﷺ وأصحابه الكرام مكة المكرمة . وأعماق التاريخ يدمدم فيها صدى وعد الله الحق الذى وعد به نبيه العظيم وصحبه الكرام البررة .. ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين . لا تخافون . فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾(1) .

هذه الآية التى استجوب الصحابة النبى الأعظم ﷺ فى بيداء الحديبية وهم يبلغونه معارضتهم لذلك الصلح .استجوبوها بشأنها فقالوا : « يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرّف مع المعرِّفين ؟. وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ؟ » .

فأجابهم ﷺ . قلت لكم فى سفركم هذا ؟

قال عمر بن الخطاب : لا .

فقال ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسى ورؤسكم ببطن مكة(2) .

وها هو اليوم قد حدث فيه ما وعدوا به فالله لا يخلف الميعاد . وقد جاء فى كتب السير أن النبى ﷺ لما دخل مكة وطاف بالبيت وسعى فى عمرة القضية هذه استدعى عمر بن الخطاب الذى كان أشد المعارضين لصلح الحديبية وذكره بذلك .

من أين دخل النبى مكة يوم العمرة

وقد كان دخول النبى ﷺ وأصحابه مكة فى هذه العمرة من الشمال عند الحجون . وقد ظل النبى ﷺ وأصحابه يلبون حتى خالطوا بيوت مكة . وهناك قطعوا التلبية(3)

---

(1) الفتح ٢٧

(2) صلح الحديبية للمؤلف ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨

(3) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٣٥ .

وكان عبد الله بن رواحة الأنصارى آخذاً بخطام القصوى . الناقة التى يمتطيها النبى الأعظم ﷺ . واستمر الموكب النبوى فى تحركه من الحجون صوب المسجد الحرام . وقد أحاط الأصحاب من المهاجرين والأنصار بالنبى الأعظم ﷺ . وقد انتظمت صفوفهم أمامه وخلفه وعن شماله وعن يمينه تعلوهم السكينة ويظلهم الوقار . خاشعين لله تعالى شكراً له على هذا النصر المعنوى العظيم المؤزر .

وأى نصر ألذ وأعظم للطريد الذى أكره (فى ظل الإرهاب الدموى القاتل) على ترك وطنه الأول ومسقط رأسه . من أن يعود إلى هذا الوطن مرفوع الرأس عزيز الجانب . يتجول بين منازل أعدائه الألداء الذين طاردوه بالأمس فى عناد ووحشية وقسوة لقطع رأسه .. يتجول بين منازلهم دون أن يجرأوا على التفكير (مجرد التفكير) فى اعتراض سبيله فضلاً عن التفكير فى مسه بأى أذى .. بعد أن كانت لهم (قبل سبع سنوات) القدرة الكاملة على قتله لو تمكنوا من العثور عليه وهو يغادر مكة محبطاً بذلك مؤامرتهم التى حاكوها فى دار الندوة . والتى كانت تستهدف حياته لئلا يلجأ إلى أنصاره الأبطال فى المدينة . والذين هم اليوم (يوم عمرة القضية) وكل أيام الصراع الذى خاضه ضد الشرك والوثنية العمود الفقرى لقواته المسلحة التى يعتمد عليها لكسب المعارك .

فما أشهاها وألذها ثمار النصر التى يجنيها الصابرون المؤمنون الصامدون فى سبيل الله .

حقاً لقد كان يوماً تاريخياً خالداً . ذلك اليوم الأغر الذى دخل فيه محمد ﷺ وأصحابه مكة . وموطن الروعة هنا . هو أن محمداً يدخل اليوم مكة غير هيّاب ولا وجل .. يدخلها فى ألفين من أصحابه على كره من قريش الكفر . وبعد غيبة قهرية دامت أكثر من سبع سنوات . بذلت فيها قريش كل إمكاناتها المادية والبشرية للقضاء على النبى ﷺ وإطفاء نور دعوته .

وخاضت بقواتها المسلحة أعنف المعارك مستهدفة تحطيم الكيان الإسلامى واقتلاع جذور عقيدة التوحيد من نفوس المؤمنين .

ولكن الفشل كان نصيبها فى كل محاولاتها ــ سواء على الصعيد العسكرى

أم السياسى .

وما قبول قريش بدخول النبى ﷺ وأصحابه مكة معتمرين على تلك الصورة المذلة لكبرياء الوثنية . واضطرارها إلى اللجوء إلى رؤوس الجبال والاعتصام بها طيلة الأيام الثلاثة التى أقامها المسلمون بمكة . إلا المسمار قبل الأخير فى نعش الوثنية التى كان دخول النبى ﷺ فى عشرة آلاف من أصحابه مكة فاتحين . بعد ثمانية أشهر فقط من تاريخ هذه العمرة ــ هو المسمار الأخير فى نعش هذه الوثنية حيث ــ بتحرير الجيش النبوى لمكة ــ أهيل التراب . نهائياً . على خرافة الشرك والشركاء التى ظلت تتحكم فى العقول بمكة حول الكعبة أكثر من أربعة آلاف سنة .

يوم حاسم فى تاريخ الإسلام

إن يوم دخول النبى ﷺ وأصحابه الكرام مكة لعمرة القضاء . هو بحق يوم حاسم فى تاريخ الإسلام ، لأنه يوم انتصف فيه المسلمون من المشركين الذين ظلوا طيلة أكثر من سبع سنوات يصرون على حرمان المسلمين (دون سائر العرب) من الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة بغياً وعدواناً .

سلوك المسلمين الذى أدهش قريشاً

وزاد من روعة ذلك اليوم الأغر فى تاريخ الإسلام . وأثار أكثر من سؤال فى نفوس العقلاء من قريش . ذلك السلوك المدهش الرفيع الذى بدا على أصحاب محمد ﷺ والمتمثل فى ذلك النظام الرائع الذى كان عليه هؤلاء الأصحاب وتلك الوحدة المتماسكة المكينة التى انتظم عقدها فى سلك التوحيد .فلم يكن بينهم وهم يحيطون بنبيهم العظيم سائرين فى اتجاه المسجد الحرام . أى أثر لفوضى الوثنية وعنجهية الجاهلية وخفة واستخفاف القبلية التى عرف بها العرب قبل أن يكرمهم الله بالإسلام .

لقد أحال الدين الحنيف الذى اعتقدوه فوضاهم إلى نظام وانضباط . وشتاتهم إلى وحدة . وتباغضهم إلى تسامح وتآخى . فها هم يسيرون خلف نبيهم العظيم . وكأنهم أسرة واحدة . لا بغضاء ولا شحناء . ولا حقد ولا ضغينة .. بل محبة وإخاء .. وتعاضد وصفاء ..

إن من يوازن بين ماضى أصحاب محمد يوم أن كانوا مشركين وبين حاضرهم بعد أن أصبحوا مسلمين . لا يكاد يصدق أنهم ، هم الذين كانت تحكمهم العداوات والبغضاء والمشاحنات . تصدر تفكيراتهم عن جاهلية وحشية رعناء .. « ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً وأن يبغى بعضنا على بعض . وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهة أن تأكل من طعامه .. من كلام المغيرة بن شعبة لقائد الفرس رستم[١] » .

اندهاش القرشيين

وعلى تلك الهيئة من السكينة والوقار والضبط والانتظام . واصل الموكب النبوى تحركه من الحجون منحدراً نحو المسجد لأداء مناسك العمرة والإقامة فى مكة الحبيبة إلى قلوب المسلمين ثلاثة أيام كما تنص على ذلك بنود صلح الحديبية التاريخى .

وبينما كان سادات مكة على تلك الدهشة التى انعقدت لها ألسنتهم لما رأوا من انقلاب عظيم فى سلوك أصحاب محمد ﷺ تحول كامل . من أقصى الانحراف والانحطاط . إلى أعلى درجات السمو والاستقامة وحسن السلوك .

وبينما سادات قريش مندهشون هكذا يكادون يتهمون أبصارهم فيما تراه من حال المسلمين إذ بجبال مكة تهتز ـــ وكأنها تشارك المسلمين فرحتهم بدخول مكة على ذلك النحو من العزة والأمن والاطمئنان ـــ فما كادت أعين المسلمين تقع على بيت الله المعظم الذى حرموا النظر إليه ست سنوات كاملة ـــ حتى دوت أصواتهم (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) .

فكادت عقول أساطين الشرك تزيغ لمنظر المسلمين الرائع ذاك ، حتى لقد خيل لسادات مكة لشدة الاندهاش أن الجبال التى لجأوا إليها ـــ لئلا يروا محمداً وأصحابه ـــ تلبى مع المسلمين .

وواصل الموكب النبوى تحركه نحو المسجد وسادات مكة ينظرون من مخابئهم فى جبال مكة (المطلة على المسجد) بعيون تكاد تقفز من محاجرها

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٤٣ .

لشدة غليان الحقد فى تلك القلوب التى لم يكن الإسلام قد لامسها وطهرها . من رجس الشرك ودنس الوثنية .

عمرة القضاء أول انتصار معنوى للمسلمين .

لقد كان قيام النبى ﷺ بأداء مناسك العمرة على تلك الصورة المهيبة التى دخل بها النبى ﷺ وأصحابه مكة . التى لا تزال حتى تلك السنة تحت سلطان المشركين .. كان أداء النبى ﷺ وأصحابه العمرة فى تلك الفترة وعلى تلك الصورة . أول نصر معنوى عظيم . تسجله الدعوة الإسلامية على باطل المشركين الذين ظلوا يحاربونها (بكل إمكاناتهم المادية والمعنوية والإعلامية طوال عشرين عاماً) فقد كان أحد من المسلمين عقب هجرتهم من مكة — لا يستطيع مجرد الاقتراب من هذه المدينة المقدسة . لأن ذلك يعنى قتله أو حبسه وتعذيبه حتى الموت .

ولكن ها هو محمد ﷺ يجدع أنف كبرياء الشرك فيدخل مكة (رغم أنوف أساطين الوثنية) فى ألفين من أصحابه متقلدين سيوفهم وعلى أتم استعداد لقطع يد ، بل رأس أى إنسان يفكر فى أن يمد يداً بأى أذى إلى نبيهم الحبيب ﷺ الذى ما كانت قريش الكفر تتصور أنه (وهو الذى خرج من مكة خائفاً يترقب وحيداً ليس معه سوى صاحبه الوفى الصادق الصديق) سيدخل مكة مرة أخرى . وفى هذه الهيئة العظيمة المهيبة . يحيطه ألفان من رجال . أعطوا العهد على أن يبذلوا أرواحهم رخيصة للذود عنه والدفاع عن دعوته .

إشاعة الحمى الصفراء الكاذبة

كان النبى ﷺ وهو فى طريقه إلى مكة لأداء مناسك عمرة القضاء هذه . قد بلغه أن أجهزة إعلام القرشيين « لتحط من شأن المسلمين وتظهرهم بمظهر الضعيف المتهالك » قد روجت إشاعة بين جماهير العرب والقرشيين خاصة تقول : إن المسلمين فى حالة بؤس وضعف . وأن مرض الحمى الصفراء قد أصابهم فأنهك قواهم . ولذلك نجح زعماء قريش فى حمل الجماهير القرشية على عدم الاقتراب من المسلمين والارتفاع إلى رؤوس الجبال لئلا يصابوا (كما

زعمت قريش) بعدوى هذه الحمى الخطيرة . وكان هدف أجهزة الدعاية الوثنية من وراء هذه الكذبة تحقير شأن المسلمين وتصغيرهم والتقليل من هيبتهم التى بدت قلوب الجماهير القرشية تمتلئ بها .

النبى يعمل على إبطال الإشاعة

وعندما بلغ النبى ﷺ خبر إشاعة إصابة أصحابه بالحمى الصفراء . والتى أطلقتها أبواق الدعاية المعادية . لفت أنظار أصحابه إلى هذه الفرية وطلب منهم القيام (عملياً) بما يبطل هذه الإشاعة الكاذبة . وذلك بأن يظهروا — أمام الجماهير القرشية التى ترقبهم من التلال — بمظهر القوى النشط . فعندما واصل المسجد قال ﷺ : رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة .. ثم لكى ينفى فرية الضعف التى أطلقتها قريش بدأ طوافه بالهرولة (وهى حركة مشى نشطة دون الجرى) وهرول أصحابه معه كما هرول . واستمر النبى ﷺ يهرول وأصحابه فى طوافهم يهرولون معه ثلاثة أشواط . فمضت بذلك السنة . فصار من السنة (أبد الأبدين) أن يهرول الطائف بالبيت فى الأشواط الثلاثة الأول(١) .

فكانت بداية طواف النبى ﷺ وأصحابه مظهراً من مظاهر القوة والفتوة والنشاط . به انتسخت من أذهان القرشيين تلك الفرية التى أطلقتها أبواق الدعاية القرشية الوثنية .

وفعلاً رأت الجماهير القرشية المضللة بأعينها بطلان تلك الإشاعة الكاذبة . وذلك حين رأوا المسلمين يتحركون فى الطواف بالبيت وهم على ذلك المستوى من القوة والنشاط .

ولم يكن كل القرشيين ارتفعوا إلى رؤوس الجبال لئلا يروا المسلمين ويختلطوا بهم . بل بقيت منهم جماعات كثيرة بمكة وقفوا عند دار الندوة صفوفاً ينظرون إلى المسلمين بدافع الفضول . فرأوا عكس ما كانت تروجه دعاية قريش من أكاذيب بشأن المسلمين ، رأوا جيلاً من الناس . لم يروا مثله فى الضبط والسكينة والوقار مع القوة الفائقة وعلامات الشجاعة والبطولة والانقياد لنبيهم ﷺ .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢ — ١٣ .

نشوب خلاف بين المهاجرين والأنصار أثناء الطواف .

وبينما كان المسلمون خلف نبيهم ﷺ يطوفون بالبيت على ذلك المستوى من العزة والقوة (وكانت أغلبيتهم الساحقة من الأنصار) . أخذ الحماس بمجامع نفس أحد سادات الأنصار وهو عبد الله بن رواحة[1] الذى كان آخذاً بزمام القَصواء ناقة رسول الله ﷺ التى كان يطوف عليها بالبيت .. أخذ الحماس من نفس عبد الله بن رواحة فأرسلها من داخل المسجد أثناء الطواف صيحة حرب فى وجه قريش فى أبيات من الشعر قالها مرتجزاً وهو يطوف وهى :

خَلوا بني الكفار عن سبيله إنى شهدت أنه رسولـــه
حقاً وكلّ الخير فى سبيله نحن قتلنـــاكم على تأويلـــه
كما ضربنـــاكم على تنزيلـــه ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله[2]

وقد ألهبت هذه الأبيات الحماسية المثيرة مشاعر بعض الصحابة . فتحركت نوازع الحرب ضد قريش . فخاف ابن الخطاب أن يكون فى قول ابن رواحة دعوة للحرب . وهو ما يخالف اتفاقية صلح الحديبية . فقال عمر ابن الخطاب (كالمحذر لابن رواحة) : يابن رواحة ؟ــ أى ما هذا الذى تقول ؟. وكان قالها كالمحتج فسمع النبى ﷺ ما وجه ابن الخطاب من تحذير إلى عبد الله بن رواحة . فقال ﷺ يا عمر إنى أسمع . فسكت عمر .. ثم أمر الرسول الحكيم ﷺ عبد الله بن رواحة أن يبتعد فى أقواله عن ما يثير العواطف نحو الحرب : إيها يابن رواحة قل : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده فقالها وقالها الناس[3] .

وذكر الدارقطنى أن عمر بن الخطاب ، حين سمع عبد الله بن رواحة يقول ذلك الشعر قال : مه يابن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ وفى حرم الله تقول الشعر ؟.

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن رواحة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤١ ص ١٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٩ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٣٦ .

المهم أن النبى الأعظم ﷺ قد أعاد بحكمته كل شيء إلى نصابه حين أمر الشاعر الصحابى عبد الله بن رواحة أن يقول (بدلاً من الشعر المثير) : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. فصار القول بهذا .. سنة حميدة يقولها المسلمون وهم يؤدون نسكهم .

النحر بين الصفا والمروة

وبعد أن أكمل النبى ﷺ الطواف بالبيت . سعى وأصحابه بين الصفا والمروة سبعة أشواط . وكان فى سعيه إذا هبط الوادى بين الصفا والمروة يهرول ويهرول معه كل أصحابه الألفين إظهاراً للقوة وإغاظة للمشركين الذين زعمت أبواقهم الدعائية أن الحمى الصفراء قد أنهكت محمداً وأصحابه حتى أصبحوا ضعافاً منهوكى القوى . وقد هرول النبى ﷺ وأصحابه طوال الأشواط السبعة بين الصفا والمروة . فكان ذلك سنة من سنن الحج والعمرة .. وقيل إن سبب الهرولة بين الميلين فى السعى . هو أن « هاجر » أم سيدنا إسماعيل ﷺ كانت وهى تبحث لرضيعها إسماعيل عن ماء (قبل ظهور زمزم) تهرول كلما هبطت الوادى والله أعلم .

وبعد أن أكمل النبى ﷺ وأصحابه السعى أمر بالهدى — وكان موقفاً عند المروة — فنحره هناك ثم قال ﷺ : هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر فنحر عند المروة[1] .

قريش تمنع النبى من دخول الكعبة

وبعد أن قضى النبى ﷺ وأصحابه نسكهم بعث النبى ﷺ مبعوثاً يبلغهم رغبته ﷺ فى دخول الكعبة فأبوا عليه ذلك بحجة أن بنود صلح الحديبية لا تنص على أن من حق النبى ﷺ أن يدخل الكعبة[2] . فلم يدخلها ﷺ إلا يوم فتح مكة .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٤ ص ٧٣٦ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٩ .

أذان بلال من على ظهر الكعبة يغيظ المشركين

غير أن النبى ﷺ أمر بلال بن أبى رباح أن يؤذن بالظهر من على ظهر الكعبة . ففعل .. وقد أغاظ المشركين ارتقاء بلال ظهر الكعبة وهتافه من على ظهرها بكلمة التوحيد . لأنه (فى نظرهم) عبد خفيض المنزلة . ثم إن إعلان كلمة التوحيد من على ظهر الكعبة المحيطة بها (حتى ذلك اليوم) ثلاثمائة صنم اتخذها القرشيون شركاء لله تقربهم إلى الله زلفى .. يعتبر احتقاراً لآلهتهم وإلغاء لوجودها .

ماذا قال سادات قريش عند سماع بلال يؤذن

فقد قال عكرمة بن أبى جهل ــ لقد أكرم الله أبا الحكم (يعنى أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد (يعنى بلال) يقول ما يقول .

وقال خالد بن أسيد[1] الحمد لله الذى أذهب أبى ولم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة .. أما سهيل بن عمرو العامرى[2] ورجال معه فحين رأوا وسمع بلالا يؤذن من على ظهر الكعبة . غطوا وجوههم تألماً[3] .

قريش تطلب من الرسول أن يغادر مكة بعد انقضاء المدة

وبعد أن قام النبى ﷺ وأصحابه ثلاثة أيام فى مكة ــ كما تنص على ذلك بنود صلح الحديبية ــ بعثت إليه وفداً من ساداتها ليطلب منه باسمها أن يغادر مكة فى الحال . وأبلغته أنها لن تسمح له ولأصحابه أن يبيتوا فى مكة أكثر من ثلاث .. فلم يمانع ﷺ فى مغادرة مكة وفقاً لاتفاقية الحديبية .

فقد روى المؤرخون أن وفد قريش جاء إلى النبى ﷺ بعد ظهر اليوم الرابع . وهو مع كبار أصحابه يبادلهم الحديث فى خيمة له . فيهم سعد بن

---

(١) خالد بن أسيد (بتصغير أسيد) بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الأموى . قال ابن حجر فى الإصابة هو أخو عتاب بن أسيد . وقال ابن الكلبى : أسلم عام الفتح وكان فيه تيه شديد ، كان من المؤلفة قلوبهم . كان أخوه عتاب من فضلاء الصحابة وقادتهم . وقد جعله أميراً على إحدى السرايا فى قتال أهل الردة . وجاء فى الإصابة أن خالد بن أسيد فقد يوم اليمامة .

(٢) انظر ترجمة سهيل بن عمرو فى كتابنا الأول من هذه السلسلة (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٩ ومغازى الواقدى ج ٤ ص ٧٣٨ .

عبادة سيد الخزرج .

فعندما دخل على النبى ﷺ وفد قريش أحسن وفادتهم . فقال سهيل بن عمرو : يا محمد إن قريشاً تقول لك : قد انقضى أجلك . هذه الثلاث قد مضت . فاخرج عنا . فقال ﷺ للوفد : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً . فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك اخرج عنا .

وصاح حويطب بن عبد العزى(١) أحد أعضاء الوفد القرشى : ناشدتك الله والعقد (أى عقد الحديبية) إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث .

وهنا غضب سيد الخزرج سعد بن عبادة (وكان فيه حدة) لما رأى من غلظ كلام حويطب للنبى ﷺ فقال له : كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً . فتبسم رسول الله ﷺ ووجه حديثه إلى سعد بن عبادة قائلاً : يا سعد لا تؤذى قوماً زارونا فى رحالنا . ثم أصدر أمره إلى أصحابه بأن لا يبيتن أحد منهم بمكة تلك الليلة. وفاءاً بالعهد الذى أعطاه فى صلح الحديبية .

فترك المسلمون مكة جميعهم ولم يبت بها أحد منهم إطاعة لأمر نبيهم ﷺ . وبات النبى ﷺ ليلتها خارج مكة بسرف . ثم واصل سيره حتى وصل المدينة(٢) .

محاولة سفهاء المشركين التحرش بالمسلمين

وذكر بعض المؤرخين أن قوماً من سفهاء المشركين بمكة تتبعوا بعض المسلمين للتحرش بهم للإيقاع بهم وأخذهم على حين غرة . غير أن أحد الصحابة وهو أبو رافع(٣) صاح بهؤلاء السفهاء منذراً إياهم قائلاً : هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج وأنتم تريدون نقض العهد والمدة . فخافوا وولّوا

---

(١) انظر ترجمة حويطب هذا فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية) .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٨ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٤٠ .

(٣) انظر ترجمة أبو رافع فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

راجعين إلى مكة منكسين . وكان رسول الله ﷺ ـــ كما تقدم ـــ قد حمل معه الخيل والسلاح وترك الجميع ببطن وادى يأجج خارج الحرم استعداداً للطوارئ وترك على الخيل والسلاح هناك مئتين من أصحابه للحراسة ثم استبدلهم بغيرهم لكى يقضوا مناسك عمرتهم .

تأثر المشركين بواقع المسلمين المشرف

قلنا فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية) إن الذين قدِّر لهم من القرشيين وغير القرشيين من المشركين أن يختلطوا بالمسلمين فى الحديبية (مثل عروة بن مسعود سيد ثقيف ، وبديل بن ورقاء سيد خزاعة ، وسهيل ابن عمرو العامرى رئيس الوفد القرشى فى مفاوضات الحديبية التاريخية) وأن اطِّلاعهم على حقيقة سلوك المسلمين المشرق وواقعهم المشرِّف قد نسخ من أذهانهم الصورة المشوهة التى كانت الدعاية الوثنية فى مكة ترسمها للنبى وأصحابه . مما كان سبباً فى فتح قلوب هؤلاء الزعماء والسادة للإسلام . فإن أثر وجود المسلمين فى مكة فى عمرة القضاء والمظهر الرائع الذى كانوا عليه فى السلوك المشرف والانضباط والتقيد بأوامر الدين الجديد . الذى جعل منهم أسرة واحدة يحس كل فرد فيها بإحساس الفرد الآخر . بعد أن كانوا شيعاً متقاتلين وفئات متنابذين لا يلتقون إلا على جداول من دماء تسيل منهم بغياً وعدواناً وبطراً ورياءاً .. ـــ أثر واقع المسلمين وظهورهم فى عمرة القضاء بذلك المظهر العجيب . كان فى نفوس القرشيين ـــ سادة وعامة أعظم بكثير .

فقد كان ما لمسه القرشيون من تغير جذرى فى حياة أصحاب محمد ارتفع بهم نحو السمو والكمال وجعل منهم مجتمعاً فاضلاً . لم تشهد جزيرة العرب مثل نبله واستقامته واتحاده وتآخيه .. كان ذلك من أعظم الأسباب التى أفسحت الطريق لنور الإسلام ليخترق حجب ظلام الجهل والجاهلية ليصل إلى قلوب سادات مكة هؤلاء فيحولهم من كفرة مشركين إلى أخيار مؤمنين وأبطال غر ميامين يحمون بيضة الإسلام ويندفعون برايته مرفوعة فاتحين خارج الجزيرة العربية فيضيفون بقوة إيمانهم وصدق عزائمهم أقاليم عدة إمبراطوريات إلى خريطة دولة الإسلام . مثل خالد بن الوليد وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وخالد بن أسيد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان .

إنه يمكن القول : أن واقع المسلمين الألفين الذين زاروا مكة فى عمرة القضاء (عام سبع من الهجرة) قد قسم مشركى مكة فريقين .. فريق امتلأت نفسه خوفاً ورعباً من المسلمين وقر فى نفسه بأن هؤلاء المسلمين لا يمكن لأحد الوقوف فى وجههم . وهذا نوع من النصر بالرعب الذى جاء فى الحديث النبوى .

وفريق أدخل الله فى نفسه الميل نحو الإسلام (اقتناعاً بأنه دين الحق القمين بالاتباع) فأصبح ــ بعد عمرة القضاء ــ لديه الاستعداد الكامل لأن يدخل فى هذا الدين .

وكل الذى شعر به الفريقان . جاء نتيجة ما لاحظوه ولمسوه فى المسلمين من انقلاب فى السلوك ، تحول بهم من الشر إلى الخير فى كل شىء . وأحال فوضاهم إلى ضبط وانتظام . وذلتهم إلى عزة واعتزاز . وفرقتهم إلى وحدة واتحاد وتباغضهم إلى محبة وتآخ .

خالد بن الوليد وأبو سفيان بن حرب

وكان خالد بن الوليد بطل قريش وقائد سلاح فرسانها أول الزعماء الذين تأثروا تأثراً بليغاً بواقع المسلمين الذى رآهم عليه عندما جاؤا لأداء عمرة القضاء . فأدخل الله الإسلام فى قلبه فصارح بذلك قريشاً وصكهم بها صك الجندل . حين أبلغهم بأن عاقلاً بعد الآن لا يجوز له التخلف عن متابعة النبى ﷺ والدخول فى دينه . لأنه نبى صادق . لا ساحراً كاذباً كما يدعون .

فقد وقف خالد بن الوليد (عقب مرور ثلاثة أشهر فقط على عمرة القضاء) وقف فى جمع من قريش بمكة ونادى بأعلى صوته (متحدياً المشركين) : (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لب أن يتبعه) .

فأزعج ذلك زميله فى قيادة سلاح فرسان قريش وابن قبيلته (عكرمة بن أبى جهل) فأنكر عليه هذا القول وقال له : لقد صبؤت يا خالد .

فقال له خالد (بكل شجاعة وصراحة): لم أصبؤ ولكنى أسلمت .

فقال عكرمة : وإن كان أحق قريش لا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

فقال : ولم ؟.

فقال عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك ببدر . فوالله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قريشاً يريدون قتاله !؟.

فقال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكنى والله أُسلمت حين تبين لى الحق .

أبو سفيان يهاجم خالد غاضباً لإسلامه

وبلغ ما قال خالد قائد عام جيوش قريش أبا سفيان بن حرب فجاء غاضباً وسأل خالداً أحق ما بلغنى عنك ؟.

فقال خالد : نعم إنه حق .. فغضب أبو سفيان وقال : واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد .

فقال خالد : فوالله إنه لحق على رغم من رغم . فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحو خالد يريد مقاتلته . فحجز بينهما عكرمة بن أبى جهل وقال (فى رزانة وتعقل) : مهلاً يا أبا سفيان فوالله لقد خفت للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه . وهذه قريش كلها تبايعت عليه . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم[1] .

ولم يخطئ عكرمة بن أبى جهل فى استنتاجاته وحساباته . حيث لم يحل الحول إلا وأهل مكة كلهم قد دخلوا فى الإسلام . وذلك عقب استيلاء الجيش الإسلامى على العاصمة المقدسة مكة .

---

(١) حياة محمد ص ٤٠٢ .

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص شهر صفر سنة ٨ للهجرة

ولعل من أهم الأحداث التى حدثت فى أوائل السنة الثامنة للهجرة . وكان لها الأثر الفعال فى تقوية الجانب الإسلامى . وتوهين الجانب القرشى هو دخول ثلاثة من أعظم القادة القرشيين فى الإسلام بعد أن تركوا مكة وهاجروا إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم بمحض اختيارهم . وهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة العبدرى .

فخالد بن الوليد كان صاحب حرب قريش وفارسها وقائد سلاح فرسانها . وعمرو بن العاص كان ملاذ قريش فى حل المشاكل السياسية لأنه كان ذا دهاء وخبرة بالحيل .. أما عثمان بن طلحة فقد كان سيد بنى عبد الدار . وصاحب لوائها وسادن الكعبة .

أما خالد بن الوليد فقد عرفنا جانباً من قصة استعداده للدخول فى دين الإسلام حين جادل صديقه وابن عمه عكرمة بن أبى جهل . وسيد بنى أمية أبا سفيان بن حرب . ولنترك هذا الفارس العظيم يكمل لنا قصة إسلامه الشيّقة كما رواها الواقدى . وغيره من أصحاب السير .

قال خالد بن الوليد : لما أراد الله بى من الخير ما أراد . قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأنّ محمداً سيظهر . فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية . خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعُسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له وصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا فكانت فيه خيرة . فاطلع على ما فى أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر . صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً وقلت : الرجل ممنوع وافترقنا .

وعدل ﷺ عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعت قريش بالرواح قلت فى نفسى : أىّ شىء بقى ؟. أين المذهب إلى النجاشى ؟

فقد أتبع محمداً . وأصحابه آمنون عنده . فأخرج إلى هرقل ؟.

فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعاً .. أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟

فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضية . فتغيبت ولم أشهد دخوله وكان أخى الوليد بن الوليد[1] قد دخل مع النبى « فى عمرة القضية فطلبنى فلم يجدنى . فكتب إلىَّ كتابا فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام . وعقلك عقلك . ومثل الإسلام جهله أحد ؟. فقد سألنى رسول الله ﷺ عنك فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال : ما مثله جهل الإسلام . ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره . فاستدرك يا أخى على ما فاتك . فقد فاتتك مواطن صالحة . قال : فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الإسلام وسرنى مقالة رسول الله ﷺ . قال خالد : وأرى فى النوم كأنىَّ فى بلاد ضيقة جديبة . فخرجت إلى بلد أخضر واسع . فقلت : إن هذه لرؤيا فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرنها لأبى بكر .

قال : فذكرتها . فقال هو مخرجك الذى هداك الله للإسلام والضيق الذى كنت فيه من الشرك . فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية . فقلت يا أبا وهب : أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس[2] . وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قد قدمنا على محمد فاتبعناه . فإن شرف محمد لنا شرف . فأبى أشد الإباء

---

(١) الوليد بن الوليد هذا . حضر بدراً من المشركين . ووقع أسيراً فى أيدى المسلمين ، فافتداه أخوه هشام وكانا شقيقين ، أسلم عقب إطلاق سراحه وكان حسن الإسلام . ولما أسلم حبسه أخواله بمكة ولكنه استطاع الإفلات من السجن . وذلك فى مدة صلح الحديبية . فالتحق بثوار العيص تحت قيادة أبى بصير الزهرى . وبعد أن انتهت الثورة ضد المشركين فى العيص . عاد الوليد مع المستضعفين الثائرين إلى المدينة . فقطعت أصبعه فى الحرة . فخبث الجرح ومات منه . ولما أدرك أنه ميت . طلب من الرسول ﷺ أن يكفنه فى فضل ثوبه فلما مات كفنه رسول الله ﷺ فى فضل ثوبه .

(٢) قوله أكلة رأس كناية عن قلتهم .. أى أنهم لقلتهم يشبعهم رأس واحد كذا فى الصحاح ص ١٦٣٤ .

وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً . قد قتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان . فقال لى : مثل ما قال صفوان . قلت : فاطو ما ذكرت لك . قال : لا أذكره وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تخرج إلى . فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة . فقلت : إن هذا لى صديق ولو ذكرت له ما أريد ! ثم ذكرت من قتل آبائه فكرهت أذكره ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى . فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر . لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج . قال : فقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه (أى صفوان وعكرمة) فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو . وهذه راحلتى بفخ مناخة . قال : فأتعدت أنا وهو بيأجج . إن سبقنى أقام وإن سبقته أقمت عليه . قال فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج . فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فنجد بهد عمرو بن العاص بها فقال مرحبا بالقوم !. فقلنا : وبك . قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذى أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ . قال : وذلك الذى أقدمنى . قال : فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرة ركابنا . فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى . ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ . فلقينى أخى (الوليد) فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك . فسر بقدومك وهو ينتظركم . فأسرعت المشى فطلعت عليه . فما زال يتبسم إلى حتى وقفت عليه نسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق . فقلت . إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمد لله الذى هداك ! فقد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى الخير . قلت يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق فادع الله أن يغفرها لى . فقال رسول الله ﷺ : الإسلام يجب ما كان قبله . قلت : يا رسول الله . على ذلك ؟ فقال : اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك . قال خالد وتقدم عمرو .. وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ . وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان . فوالله ما كان رسول الله

ﷺ من يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه[١] .

قصة إسلام عمرو بن العاص

أما قصة إسلام عمرو بن العاص . فقد كانت جديرة بالبحث والتأمل . لما فيها من عبر ومواعظ .

فقد روى الطبرى أن عمرو بن العاص قال : (وهو يروى بنفسه قصة إسلامه) : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيى . ويسمعون منى . فقلت لهم : تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو علواً منكراً . وإنى قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟.

قالوا وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالنجاشى . فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى . فلأن نكون تحت يديه أحب من أن نكون تحت يدى محمد وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا . فلا يأتينا منهم إلا خير . فقالوا : إن هذا لرأى . قلت : فأجمعوا لنا نهدى إليه ــ فكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً . ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله إنا لعنده . إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى[٢] وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه ــ قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضِّمرى . لو قد دخلت على النجاشى وسألته إيّاه . فأعطانيه . فضربت عنقه ! فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع . فقال : مرحباً بصديقى ! أهديت لى شيئاً من بلادك ؟ قلت : نعم . أيها الملك . قد أهديت لك أدماً كثيراً . ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه . ثم قلت له : أيها الملك ! إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك . وهو رسول رجل عدو لنا . فأعطنيه لأقتله . فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . قال : فغضب . ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٤٥ .

(٢) انظر ترجمة عمرو بن أمية الضمرى فى كتابنا (غزوة الأحزاب ص ٣٨) .

ظننت أنه قد كسره ــ يعنى النجاشى ــ فلو انشقت الأرض لى فدخلت فيها فرقاً منه . ثم قلت : والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟

فقلت : أيها الملك . أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ؟ أطعنى واتبعه . فإنه والله لعلى الحق . وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قال : قلت : فبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه . وكتمت أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم . فلقيت خالد ابن الوليد ــ وذلك قبل الفتح ــ مقبلاً من مكة فقلت إلى أين يا أبا سليمان قال : والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبى . إذهب والله أسلم فحتى متى فقلت والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع . ثم دنوت فقلت يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . ولا أذكر ما تأخر ! فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما قبله . وإن الهجرة تجبُّ ما قبلها فبايعته ثم انصرفت[1] .

وذكر بعض المؤرخين أن النبى ﷺ . لما رأى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة ليسلموا قال : لقد ألقت إليكم مكة بأفلاذ كبدها أو كما قال ﷺ . يعنى بذلك الزعماء الثلاثة عمراً . وخالدا . وعثمان بن طلحة .

إسلام خزاعة[2] وإعطاؤهم الرسول ﷺ عهده

فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية) ذكرنا أن خزاعة قد رضى مسلمها وكافرها أن يكون فى عهد النبى ﷺ كما رضيت كنانة أن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣١ .

(٢) خزاعة (بضم أوله) قبيلة عظيمة قحطانية من الأزد . وهم بنو خزاعة . كعب بن عمرو بن ربيعة ، وهو لحى بن حارثة بن عمرو (مزيقياً) ملك مأرب . الذى هو أبو الأنصار والغساسنة . وكانت خزاعة ممن هاجر من اليمن بعد انهدام السد فى مأرب . فاستوطنت مكة وغلبت عليها . فى عصر من العصور . وعمرو بن لحى (بفتح أوله وكسر ثانيه) أبو خزاعة .. أول من أدخل الشرك والوثنية على دين إبراهيم (انظر سيرة ابن هشام) .. وقد كانت خزاعة حليفة بنى كنانة فى الجاهلية فلما تعرضت =

تكون فى عهد قريش . غير أن النبى ﷺ لم يكد يستقر بالمدينة عائداً من الحديبية (بعد الصلح) حتى أصبحت خزاعة كلها بمختلف فخائذها مسلمة مؤمنة فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . بالإضافة إلى ما يعطيهم عهد الحديبية من حقوق حتى وإن لم يكونوا مسلمين ..

وقد كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى خزاعة فى شهر جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة . قال فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بديل[1] (هو ابن ورقاء) وبشر[2] (هو ابن سفيان) وسروات بنى عمرو ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنى لم آثم بالكم ، ولم أضع فى جنبكم وإن أكرم تهامة علىَّ أنتم ومن تبعكم من الطيبين ، فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثلما أخذت لنفسى — ولو هاجر بأرضه — غير ساكن مكة إلا معتمرا أو حاجاً — وإنى لم أضع فيكم إذ سالمت وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصورين . أما بعد فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة[3] وابناه وتابعا وهاجرا

= خزاعة لغزو بنى أسد ، استغاثت خزاعة حلفاءها من بنى كنانة . فخذلوها . فاعتلتها بنو أسد وانتصروا عليها . ثم نشبت حروب فى الجاهلية بين بنى بكر بن عبد مناة وبين خزاعة . ولما جاء الإسلام دخلت خزاعة فى عهد المسلمين فى صلح الحديبية .

(١) هو بديل بن ورقاء بن عمرو بن عبد العزى بن ربيعة الخزاعى . أسلم قبل الفتح وقبل يوم الفتح قال ابن حجر فى الإصابة .. وكان سيداً فى قومه وروى البخارى فى تاريخه أن بديلاً كان القيم على حظائر الأسرى والحارس بعد انتصار المسلمين فى غزوة حنين . وظل كذلك حتى عاد النبى (ﷺ) من غزوة الطائف . وروى أبو نعيم فى الحلية . عن أم الحرث بنت عياش بن أبى ربيعة أنها رأت بديل بن ورقاء يطوف على جمل أورق بمنى ويقول .. إن رسول الله ﷺ ينهاكم أن تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب . دخل بديل الإسلام ، وقد تخطى التسعين من عمره . ولم يكن بعارضيه سواد . فلما رآه النبى (ﷺ) قال .. زادك الله جمالًا . (الإصابة ج ١ ص ١٤٦ — ١٤٧) .

(٢) انظر ترجمة بشير بن سفيان فى كتابنا (صلح الحديبية) .

(٣) قال فى الإصابة مترجماً لعلقمة — .. هو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب . من بنى عامر بن صعصعة . وجاء ذكره فى البخارى . وفيه أن على بن أبى طالب بعث النبى (ﷺ) بذهبية فى تربتها فقسمها بين أربعة نفر . عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وعلقمة بن علاثة وزيد الخيل . وكان علقمة قد ارتد عقب موت الرسول (ﷺ) فبعث إليه أبو بكر الصديق القعقاع =

على تبعهما من عكرمة . أخذت لمن تبعنى ما آخذ لنفسى . وأن بعضنا من بعض أبداً فى الحل والحرم . وإننى والله ما كذبتكم وليجبكم ربكم[1] .

— ٨ —

اتصال الرسول ﷺ بملوك وأمراء الشرق الأوسط .

ولعله من أهم الأحداث السياسية التى حدثت فى تاريخ الإسلام بعد معركة خيبر الحاسمة . وقبل معركة مؤتة الفاصلة . اتصال الرسول ﷺ بملوك وأمراء الشرق الأوسط ، وذلك ببعثه الرسل إليهم برسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه من عبادة لغير الله تعالى .

وكان هذا الاتصال بالملوك والأمراء فى الشرق الأوسط حدث (على الأرجح) فى فترة الهدنة التاريخية المعقودة بين النبى ﷺ وبين مشركى مكة ، والتى تم إبرامها فى الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة[2] .

استقرار الأوضاع فى جزيرة العرب

ولا شك أن اتصال الرسول ﷺ بملوك وأمراء الشرق الأوسط وتوجيهه الدعوة إليهم ليدخلوا وشعوبهم فى دين التوحيد . يدل (بوضوح) على أن الأوضاع — داخل إطار الحكم الإسلامى — فى جزيرة العرب أصبحت أكثر استقراراً ورسوخاً من أى وقت مضى .

وذلك راجع (والله أعلم) إلى الانتصارات العسكرية التى حققتها القيادة الإسلامية بالمدينة فى معارك الدفاع والتحرير والتطهير الكبرى . التى خرج الإسلام وحزبه منها ظافراً ، كمعركة بدر وأحد والأحزاب وبنى قريظة . والحركات التأديبية الناجحة التى قام بها الجيش الإسلامى فى الشرق والشمال والجنوب

= ابن عمرو ففر منه إلى الشام . ثم أسلم وأقبل إلى أبى بكر . وولى الخليفة ابن الخطاب علقمة بن علاثة (حوران بالشام) فنزلها إلى أن مات . وكان علقمة من سادات بنى عامر .

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٢) وبعضهم يرى أن النبى (ﷺ) كان — منذ قيام صلح الحديبية حتى وفاته — وهو يبعث إلى ملوك وأمراء الشرق الأوسط يدعوهم إلى الإسلام . وبهذا قال .. ابن إسحاق . وهذا أقرب إلى الصواب لأنه بالرجوع إلى كتاب (الوثائق السياسية) للدكتور محمد حميد الله يتضح أن النبى (ﷺ) كتب إلى أكثر من ثلاثين ملكاً وأميراً يدعوهم إلى الإسلام

وخضد بها شوكة الأعراب ، الذين كانوا مصدر تهديد (دائما) لا من المدينة التى يطمعون (منذ ظهر الإسلام) فى الاستيلاء عليها ونهب خيراتها وإلى عقد هدنة الحديبية التاريخية .

تحرير خيبر نقطة تحول هامة

ولعل أهم نقطة تحول هامة كانت لصالح الدعوة الإسلامية هو تحرير الجيش الإسلامى منطقة خيبر من الوجود اليهودى الدخيل . وتوقيع قريش عقد صلح الحديبية الذى أجبرت قريش على توقيعه . والذى فيه اعترفت (ولأول مرة فى حياتها) بالكيان الإسلامى ، وقبلت ــ مرغمة ــ أن تضع الحرب أوزارها بينها وبين المسلمين .

رسل النبى إلى الملوك والأمراء

ففى أوائل السنة الثامنة من الهجرة ــ وقبل فتح مكة بثمانية أشهر ــ بعث الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء الشرق الأوسط ، يدعوهم إلى الدخول فى دين الإسلام ، وعلى رأس هؤلاء الملوك والأمراء عشرة وهم :

١ ــ هرقل ملك الروم الشرقيين . والرسول إليه دحية بن خليفة الكلبى [١] .

٢ ــ كسرى ملك الفرس .. والرسول إليه عبد الله بن حذافة السهمى [٢] .

---

(١) هو دحية (بكسر الدال وسكون الحاء) بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد الكلبى . وكان من مشاهير الصحابة . وكانت أولى مشاهده مع الرسول ﷺ يوم الخندق ، ولم يشهد بدراً . وكان حسن الصورة . وكان جبريل (عليه السلام) ينزل بالوحى على صورته (انظر قصة الأمر الإلهى بالأمر بالزحف على يهود بنى قريظة بعد معركة الخندق فى كتابنا ــ غزوة بنى قريظة ــ) . كان النبى (ﷺ) دائماً يتخير أن يكون رسله إلى الملوك والأمراء والوجهاء حسان الوجوه والهيئات . ولهذا اختار أن يكون رسوله إلى الملك هرقل . دحية الكلبى .. شهد دحية الكلبى معركة اليرموك ، وكان قائد إحدى الوحدات فى هذه المعركة الفاصلة .. عاش دحية إلى أيام الخليفة معاوية . نزل دمشق وسكن واستقر بالمزة منها .

(٢) هو عبد الله بن حذافة بن قيس القرشى السهمى . كان من السابقين الأولين فى الإسلام . وفى عبد الله بن حذافة هذا ، أنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وذلك حين بعثه الرسول (ﷺ) فى سرية. كذا قال البخارى . وفى الإصابة ذكر ابن حجر له قصة مع ملك الروم تدل على ثبات إيمانه وتحمله البلاء والعذاب فى سبيل التمسك بدينه .. توفى عبد الله ابن حذافة فى خلافة عثمان ، ومات بمصر ودفن بمقبرتها .

٣ ـــ النجاشى ملك الحبشة .. والرسول إليه عمرو بن أمية الضَّمرى[١] .

٤ ـــ المقوقس حاكم مصر .. والرسول إليه حاطب بن أبى بلتعة[٢] .

٥ ـــ المنذر بن ساوى ملك البحرين .. والرسول إليه العلاء بن الحضرمى[٣] . (أسلم هذا الملك . انظر ترجمته فى الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٣ ص ٤٣٩) .

٦ ـــ هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة .. والرسول إليه سليط بن عمرو العامرى[٤] .

٧ ـــ الحارث بن أبى شمّر الغسانى ملك الجولان .. والرسول إليه شجاع ابن وهب الأسدى[٥] .

٨ ـــ الحارث الحميرى ملك اليمن . والرسول إليه المهاجر بن أبى أمية المخزومى[٦] .

٩ ـــ جيفر بن جلندى (بفتح الجيم والدال) أحد ملوك عمان ..

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة الأحزاب) .

(٢) انظر ترجمة حاطب بن أبى بلتعة فى كتابنا (غزوة أحد ص ١٦١) .

(٣) العلاء هذا .. اسمه عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عويف الحضرمى . كان عبد الله أبوه . قد سكن مكة وحالف بنى أمية . وكان عمرو بن الحضرمى أخو العلاء أول مشرك قتله المسلمون فى الإسلام . وبسبب قتله أثار أبو جهل حمية المشركين فنشبت معركة بدر . بعد أن مالت الأكثرية من سادات قريش إلى تجنبها .. كان العلاء بن الحضرمى مجلب الدعوة . وقد ولّاة الرسول (ﷺ) على البحرين ، وأقره أبو بكر وعمر . توفاه الله سنة أربع عشرة .

(٤) هو سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامرى القرشى . وهو ابن سهيل بن عمرو العامرى .. كان ممن هاجر إلى الحبشة ، فهو من السابقين الأولين فى الإسلام . وكانت امرأته أم يقظة بنت علقمة معه فى هجرته . فولدت له فى الحبشة ابنه سليط بن سليط .. الأرجح أن سليط بن عمرو . استشهد يوم اليمامة .

(٥) انظر ترجمة شجاع بن وهب فى كتابنا الخامس (صلح الحديبية ص ٣٠) .

(٦) هو المهاجر بن أبى أمية المخزومى أخو أم المؤمنين أم سلمة . شهد بدراً مع المشركين وقتل فيها أخوه هشام ومسعود . كان المهاجر ممن حسن إسلامهم . وكان موضع ثقة الرسول (ﷺ) . ولاه على صدقات صنعاء . فخرج عليه الأسود العنسى المتنبىء الكذاب . فتم القضاء على فتنته بقتله . كان المهاجر من قادة جيوش الخلافة المشهورين الذين تولوا (فى عهد الصديق) القضاء على فتن المرتدين .. وكان هو الذى تولى (بمساندة عكرمة بن أبى جهل) القضاء على فتنة المرتدين من كندة فى حضرموت . هو الذى افتتح حصن النجير الذى تحصنت فيه كندة عندما ارتدت عن الإسلام .

والرسول إليه عمرو بن العاص[1] .

١٠ ــ عباد بن جلندى أحد ملوك عمان أيضاً .. والرسول إليه أيضاً عمرو بن العاص .

تنازع السيادة على العالم

. وكان أعظم هؤلاء الملوك الذين دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام .. هما هرقل إمبراطور الرومان الذى يمتد ملكه من القسطنطينية حتى حدود الجزيرة العربية .. وكسرى إبرويز إمبراطور الفرس . الذى بالإضافة إلى اتصال مملكته بحدود الجزيرة العربية اتصالاً مباشراً . كانت له مناطق نفوذ فى اليمن حيث كان له نائباً فى صنعاء يحكمها وما حواليها باسم الإمبراطورية الفارسية .

وكانت هاتان الإمبراطوريتان تتنازعان السيادة على العالم . الأمر الذى أثار

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد (بالتصغير) بن سهم القرشى . يكنى أبا عبد الله وأبا محمد . أمه النابغة من عنزة بنجد . أسلم عمرو قبل الفتح . وذكر الواقدى أن إسلامه كان على يد النجاشى بالحبشة ، وهو أسن من عمر بن الخطاب فقد روى عنه أنه قال : أذكر الليلة التى ولد فيها عمر بن الخطاب . كان عمرو بن العاص ممن فرح النبى ﷺ بإسلامهم . لأنه كان ثالث ثلاثة من سادات قريش أسلموا فى يوم واحد ، وصفهم النبى (ﷺ) حين أقبلوا عليه بأنهم أفلاذ كبد مكة ، وهم خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص .. كان عمرو من قادة السريا فى العهد النبوى قال ابن حجر فى الإصابة .. كان النبى ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزوة ذات السلاسل وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح .وقد استعمل النبى (ﷺ) عمراً على منطقة عمان . فمات (ﷺ) وهو أمير عليها .. وبعد موت النبى (ﷺ) سار فى عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة من قادة الفتح الإسلامى الكبار . كان أحد قادة الجيوش الأربعة الرئيسية التى اجتازت حدود الشام فى عهد الخليفة الأول . وهو الذى فتح قنسرين ، وتولى مصالحة أهل حلب عند استسلامها للمسلمين ومنبج وأنطاكية . وكان عمر بن الخطاب من المعجبين بعمرو بن العاص . لذكائه وفطنته وبعد نظره . نظر إليه مرة وهو يمشى فقال : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً . وقال إبراهيم ابن مهاجر عن الشعبى عن قبيصة بن جابر . قال : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين قرآناً ولا أكرم خلقاً وأشبه سريرة بعلانية منه . وكان الشعبى يقول : دهاة العرب فى الإسلام أربعة . فعد منهم عمراً . وقال فأما عمرو فللمعضلات . كان عمرو من رواة الحديث عن النبى ﷺ . روى عنه ولداه عبد الله ومحمد وقيس بن أبى حازم وأبو سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم .. وعمرو بن العاص هو الذى فتح مصر فى عهد الخليفة الفاروق . وظل والياً عليها حتى عهد عثمان . فعزله بعد فترة قصيرة .. وبعد أن اجتمع المسلمون على معاوية وبويع خليفة بعد مقتل أمير المؤمنين على . ولى معاوية عمراً مصر سنة ٣٨ هـ وظل عليها والياً حتى توفى سنة ثلاثة وأربعين . وتوفى وهو ابن تسع وتسعين سنة . قاله العجلى .

بينهما نزاعاً مسلحاً ظل قائماً حتى جاءت الجيوش الإسلامية وأطاحت بحكم الإمبراطوريتين المتخاصمتين فى آن واحد .

ويمكن تقسيم الذين كتب إليهم النبى ﷺ يدعوهم إلى الإسلام من الملوك والأمراء إلى فئات أربع .

الفئة الأولى . هم ملوك وأمراء العرب المستقلين الذين ليس لأحد عليهم سلطان داخل الجزيرة العربية . وهم يدينون بالوثنية التى بها استبدلوا دين التوحيد الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل .. ومن هؤلاء ملك البحرين وملكا عمان وملك حمير فى اليمن .

الفئة الثانية . وهم العرب المتنصرة الذين يرتبطون (فيما يشبه الكومنولث) بالتاج البيزنطى فى القسطنطينية (اسطنمبول) .. والذين يقيمون فى منطقة الجولان[1] من سوريا . ويمثلهم الحارث بن شمر الغسانى .

الفئة الثالثة .. هم البيزنطيون (الروم الشرقيون) الذين أدخلوا على دين عيسى ﷺ الكثير من التحريفات والتبديلات التى أخرجت عن جوهره النقى الصافى جوهر التوحيد — إلى طقوس ومراسيم تتنافى كلياً مع قواعد وأصول الدين الذى جاء به عيسى ﷺ . ويمثل هؤلاء الرومان هرقل الذى جاء خطاب رسول الله ﷺ وهو فى بيت المقدس .

الفئة الرابعة . هم الأمة الفارسية التى يمثلها كسرى أبرويز . وهؤلاء كانوا يدينون بالمجوسية فيعبدون النار إلهاً من دون الله .

أما النجاشى ملك الحبشة . فيظهر أن الكتاب الذى بعث به إليه النبى ﷺ لم يكن لدعوته إلى الإسلام وإنما يظهر أنها كانت رسالة تتناول مواضيع أخرى .. لأن النجاشى كان مسلماً منذ هاجر إليه جعفر بن أبى طالب وأصحابه .. كما يدل على ذلك حديث عمرو بن العاص عن قصة إسلامه كما مضى فى هذا الكتاب .

أما المقوقس حاكم مصر (فقد كان نصرانياً) يحكم باسم الإمبراطورية الرومانية رغم أن أصول نصرانية المقوقس وكل أقباط مصر تختلف مع أصول

(١) ذكر ذلك المسعودى فى كتابه (التنبيه والإشراف ص ٣٦١) .

نصرانية الروم البيزنطيين .

نص الكتاب النبوى إلى الملوك والأمراء

كان الكتاب الذى بعث به النبى ﷺ إلى هؤلاء الملوك والرؤساء يحمل الدعوة السلمية . وليس فيه أى إنذار بالحرب . ويجد القارئ جميع نصوص هذه الكتب إلى الملوك والأمراء فى كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة . فليرجع إلى هذا الكتاب من يريد الاطلاع على هذه النصوص . وكل كتاب من هذه الكتب يحمل مضموناً واحداً . وهو دعوة الجميع إلى عبادة الله وحده .

فمثلاً كتب الرسول ﷺ إلى هرقل يقول : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فعليك إثم الإريسيين[1] ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألَّا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

كما كتب ﷺ إلى ملك الفرس : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى . وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . وأن محمداً عبده ورسوله .. وأدعوك بدعاء الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم . فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك)[2] .

ردود الملوك والأمراء

وقد كانت ردود الملوك والأمراء متفاوتة من حيث الرفض أو القبول أو التوقف . ولعل أفضل جواب تلقاه النبى ﷺ هو جواب النجاشى ملك الحبشة الذى كتب إلى الرسول ﷺ كتاباً يرحب فيه بدعوته ويعلن إسلامه

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ٨١ .

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١١٠ .

واتباعه النبى ﷺ[1] وكذلك هرقل ملك الروم . كان رده إيجابياً فقد كان الملك (هرقل) أكثر ملوك الأرض العظام (بعد النجاشى) تأثراً بكتاب النبى ﷺ وأعظم إدراكاً وتفهماً لما تضمنه الخطاب النبوى المرسل إليه .

كان هرقل من بين جميع الملوك والأباطرة الذى أدرك بثاقب بصيرته ودقة فراسته (ولما يجده مكتوباً فى الإنجيل) أن المنطقة التى حكمها ثلاثين عاماً[2] ستشهد على يد حمال الدعوة المحمدية الجديدة أحداثاً خطيرة تغيّر كل الأوضاع فيها تغييراً كاملاً شاملاً . وكان (كما دلت تصرفاته) يود أن يتبع ورعيته النبى ﷺ ويؤمن برسالته .

كيف تلقى الملك هرقل كتاب النبى ﷺ ؟

ففى السنة السابعة للهجرة ـــ عقب انهيار الوجود اليهودى فى خيبر وقبل معركة مؤتة الفاصلة ـــ استدعى النبى ﷺ دحية بن خليفة الكلبى وكلفه بأن يحمل إلى الإمبراطور (هرقل) كتابه الذى ذكرنا نصه فيما مضى والذى يدعوه فيه إلى الإسلام .

وكان هرقل فى ذلك الوقت مقيماً فى القدس التى حج إليها مشياً على الأقدام شكراً لله على انتصاره على ملك الفرس (أبرويز) الذى هزمه بعد أن حصر القسطنطينية وكاد يطيح بالإمبراطورية الرومانية الشرقية كلها .

ويذكر المؤرخون أن الإمبراطور هرقل كان ـــ على سعة ملكه واتساع إمبراطوريته التى كان رواقها ممتداً (عند ظهور الإسلام) من مياه البحر الأسود والقسطنطينية شمالاً حتى حدود جزيرة العرب جنوباً . ومن مياه الأطلسى وأطراف الصحراء الكبرى وليبيا وتونس ومصر غرباً حتى حدود إيران شرقاً .. كان شديد التدين . لذلك نذر أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً حافياً إن تم له التغلب على خصمه التقليدى ملك الفرس . وقد فعل .

وكان هرقل يعتبر من ناحية العلم بالنصرانية فى مرتبة الرهبان . فكان ـــ لذلك يعلم ـــ أن نبياً من العرب سيبعث لتجديد دين إبراهيم وموسى وعيسى . كما هو مكتوب فى التوراة والإنجيل التى يعلم هرقل علمهما .

(١) انظر هذا الجواب فى كتاب الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله .
(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٦٢ لحمزة بن الحسن الأصفهانى .

قصة أبى سفيان مع الملك هرقل

وكان أمر ظهور النبى ﷺ قد بلغ الملك هرقل وهو بالقدس فكان لذلك يتوق بتلهف إلى معرفة الحقيقة عن النبى ﷺ كما هى . ليتأكد ما إذا كانت أوصافه تتفق مع الصفات المطلوب توفرها فى التوراة والإنجيل للرجل الذى سيختاره الله من العرب ولابد ليكون رسولاً للعالمين .

ولا أدل من اهتمامه بهذا الأمر أنه منذ بلغته مختلف الأخبار المتناقضة عن ظهور النبى ﷺ كان يبعث برجال من استخباراته وشرطته إلى مختلف مناطق الشام لعلهم يجدون من أهل مكة نفسها ممن يرتادون الشام دائما للتجارة . من يحدثه بأمانة عن حقيقة محمد وجوهر دعوته .

وشاء الله أن يظفر رجال الملك هرقل (من قواته الخاصة) فى غزة بسيد من سادات العرب . وهو أبو سفيان بن حرب . قائد عير قريش التى كانت فى رحلتها الصيفية التجارية إلى الشام

فطلبوا منه أن يصحبهم من غزة إلى القدس . حسب رغبة الإمبراطور فأجابهم أبو سفيان إلى ذلك فاحتملوه وبعضا من رجاله وهناك فى القدس اجتمعوا بالإمبراطور فاستجوبهم بشأن حقيقة الرسول ﷺ وحذَّرهم من أن يكذبوه الحديث .

ولنترك أبا سفيان بن حرب نفسه ليروى لنا ذلك اللقاء التاريخى الذى تم بينه وبين الإمبراطور (هرقل) وذلك الاستجواب الذى أجراه الإمبراطور معه بنفسه .

قال أبو سفيان : كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله ﷺ لم نأمن إلا أن نجد أمناً ، فخرجت فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام ، وكان وجه متجرنا (غزة) فقدمناها حين ظهر (هرقل) على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها .

وأثناء إدلاء أبى سفيان بحديثه عن استجواب الإمبراطور (هرقل له) عن حقيقة النبى ﷺ ذكر أن (هرقل) رأى فى المنام رؤيا وهو فى بيت المقدس .

جعلته يضاعف اهتمامه بأخبار النبى ﷺ فقال .. إنه أخبر أن (هرقل) لما انتهى إلى بيت المقدس وقضى فيه صلاته . أصبح « ذات غداة مهموماً يقلب طرفه إلى السماء . فقال له بطارقته .. والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً . قال : أجل أُريت فى المنام أن ملك الختان ظاهر . قالوا : ما نعلم أمة تختتن إلا يهود ، وهم فى سلطانك ، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم .

قال أبو سفيان إنهم والله لفى ذلك من رأيهم يديرونه ، إذا أتاهم رسول صاحب بُصرى[1] برجل من العرب ، فقال : أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل ويحدث عن أمر حدث ببلاده فسَله عنه .

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بُصرى . قال هرقل : لترجمانه سله ما كان هذا الحَدث الذى كان ببلاده ؟ فسأله : فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى ، قد اتبعه ناس وخالفه ناس . وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك .

ويذكر أبو سفيان فيقول : وعندها أمر (هرقل) بتفتيش الرجل . فإذا هو مختون . فقال (هرقل) : هذا والله الذى رأيت ، لا ما تقولون ، أعطوه ثوبه ، ثم دعا الإمبراطور صاحب شرطته . وقال له .. قلب لى الشام ظهراً وبطناً حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) . قال أبو سفيان : فوالله إنا (لبغزة) إذ هجم علينا صاحب شرطته . فقال : أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا : نعم . قال : فأيكم أمس به رحماً ؟ قلت : أنا ، فنقلنا فى الحال إلى بيت المقدس حيث الملك (هرقل) .

فلما انتهينا إليه . قال : أنتم من رهط هذا الرجل ؟ (يعنى النبى ﷺ) قلنا : نعم . قال : فأيكم أمس به رحماً قلت : أنا[2] .

---

(١) بصرى (بضم الباء وسكون الصاد) مدينة تجارية شهيرة فى المنطقة الجنوبية فى الشام قريبة من الجولان .

(٢) قال أبو سفيان : أنا . لأنه يلتقى بالنبى (ﷺ) فى الجد الخامس (عبد مناف) .

ويتحدث أبو سفيان عن هيبة (هرقل) فيقول : وأيم الله ما رأيت من رجل كان أنكر من ذلك الأغلف ــ يعنى هرقل ــ فقد قال لرئيس شرطته : أدنه منى ، فأقعدنى بين يديه ، وأقعد أصحابى خلفى . ثم قال : إنى سأسأله ، فإن كذب فردوا عليه . قال أبو سفيان : فوالله لو كذبت ما رُد على ولكنى كنت امرأ سيداً ، أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك على ، ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه . وقد كان استجواب الإمبراطور لأبى سفيان على النحو التالى .

فقد بدأ الإمبراطور استجوابه لأبى سفيان بقوله .. أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدَّعى ما يدعى .

فقال أبو سفيان : فجعلت أزهِّد له شأنه وأصغِّر له أمره وأقول : أيها الملك ما يهمك من أمره ؟ إن شأنه دون ما يبلغك .

ولم يُعجب الإمبراطور هذا التهرب وتهوين أبى سفيان من شأن الرسول ﷺ لذلك انتهره . وقال : أنبئنى عما أسألك عنه من شأن صاحبكم ، قال أبو سفيان : قلت : سل عما بدا لك .

فقال كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض (أى خالص) . هو أوسطنا نسباً .

قال : فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته فى الماضى يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت : لا .

قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إيّاه فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه ؟؟.

قلت : لا .

فقال : أخبرنى عن أتباعه منكم . من هم ؟

قال : قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث والغلمان والنساء . وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال : فأخبرنى عمن يتبعه ، أيحبه ويلزمه ؟.

قلت : ما تبعه رجل ففارقه .

قال : فأخبرنى ، كيف الحرب بينكم وبينه ؟.

قال : قلت : سجال ، يدال علينا وندال عليه .

قال : فأخبرنى ، هل يغدر ؟. وهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ..

قال : فلم أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها . قلت : لا ، ونحن منه فى هدنة ولا نأمن غدره قال : فوالله ما التفت إليها منى .

قال هرقل : ماذا يأمركم !.

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة(١) .

والمدهش فى الأمر أن عظيم الروم (هرقل) قد ركز (وهو يستجوب سيد قريش أبا سفيان) على نقاط جوهرية وصفات أساسية تعتبر لدى العقلاء والعالمين بعلوم التوارة والإنجيل من الأحبار ، من الدلائل القاطعة على أن هذا الذى يتصف بهذه الصفات هو النبى المنتظر الذى يتوقعون ظهوره ويبشر المنصفون به .

هرقل يعترف بنبوة محمد ﷺ

وكم كانت دهشة أبى سفيان عظيمة عندما أعلن (فور استجوابه أبا سفيان . وفى نفس المجلس) أن محمداً ﷺ هو النبى العربى المنتظر الذى سيغير مجرى التاريخ ويبدل أتباعه خريطة العالم . وأن ذلك أمر لا مفر منه .

فبعد ذلك الاستجواب الذى أجراه الملك (هرقل نفسه) مع سيد قريش وعدو محمد يومئذ أبى سفيان بن حرب ، أعلن بكل صراحة ووضوح أن هذا الرجل (محمداً) الذى يحاربونه ويناوئونه سينتصر عليهم وعلى كل من يقف فى سبيل دعوته .

لأنه نبى مرسل من عند الله . وصرح هرقل (وهو الإمبراطور العظيم) أنه

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٤٦ وصحيح البخارى نقلًا عن البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٥ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٤٤ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٢٦ وطبقات ابن سعد وإمتاع الأسماع للمقريزى ص ٣٠٨ .

يود لو أنه يكون من أتباعه بل ويتمنى أن يكون له شرف غسل قدميه .

فقد جاء فى صحيح البخارى . أن الملك هرقل ــ بعد أن أتم استجواب أبى سفيان فى قاعة العرش بالقدس ــ قال للترجمان قل لأبى سفيان : سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك .. هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك .. أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه . وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك .. هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك .. بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال (هرقل) وكثر الصخب وارتفعت الأصوات وخرجنا ، فقلت لأصحابى حين خرجنا .. لقد أَمِّر أمر ابن أبى كبشة (وهذه صفة ذم يصف المشركون بها الرسول ﷺ) أنه يخافه ملك بنى الأصفر[1] .

أثر كلام هرقل فى نفس أبى سفيان

ولا شك أن استجواب الإمبراطور هرقل أبا سفيان مصارحته بأن صاحبهم

(١) عن البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٢٦٥ .

محمداً نبى سيملك ما تحويه يد الإمبراطور فى الشام . كان ذا أثر فعّال فى نفس سيد قريش أبى سفيان ، الأمر الذى جعله يخفف من حدة عداوته للرسول ﷺ كما شهدت بذلك الأحداث فقد كان ما سمع أبو سفيان من الإمبراطور ، هرقل بشأن الرسول ﷺ سبباً فى ملامسة الإسلام قلب أبى سفيان . وقد عبر عن هذه الحقيقة أبو سفيان بنفسه حين قال (عقب حديثه عن المقابلة التى جرت بينه وبين الإمبراطور) : فمازلت موقناً أنه (أى النبى ﷺ سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام)(١) .

هرقل يتسلم الدعوة من الرسول إلى الدخول فى الإسلام

وذكر عامة المؤرخين وأهل الحديث . أن هرقل ــ بعد الاستجواب الذى أجراه بنفسه مع سيد قريش أبى سفيان بن حرب وعرف على أثره أن محمد بن عبد الله هو النبى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى الإنجيل ــ قرر فى نفسه أن يتبع الرسول ﷺ ويؤمن به . بل قرر أن يقنع أهل الحل والعقد فى إمبراطوريته ، وخاصة رجال الكنيسة الذين يعلمون علمه ، بأن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ .

إلا أن (هرقل) مع رغبته الملحة فى تحقيق هذا الأمر العظيم ، كان يتوقع معارضة خاصته ومستشاريه وكبار رجال دولته ــ حفاظاً على مراكزهم الممتازة التى يتمتعون بها فى الإمبراطورية .

وبينما عظيم الروم هرقل نهباً للقلق بين الإقدام والإحجام . وكيف يفاتح كبار دولته بالدعوة إلى اتباع النبى محمد ﷺ الذى لم يعد لديه أدنى ريب فى أنه هو الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل . وكيف يواجه معارضة خاصته ومستشاريه من رجال الكنيسة وقادة الجيوش ، والتى قد تؤدى إلى خلعه من على كرسى الإمبراطورية أو قتله .. بينما هو هكذا نهباً لهذه الهواجس ، إذا برئيس حرسه يقطع عليه تفكيره حين دخل عليه وخلفه دحية الكلبى مبعوث النبى الخاص يحمل إلى هرقل الخطاب الذى يدعوه فيه الرسول

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٥ نقلا عن صحيح البخارى .

ﷺ إلى الدخول فى الإسلام . ويحمله مسئولية بقاء شعبه على الكفر إذا لم يفعل(١) .

هرقل يكرم حامل كتاب النبى ﷺ إليه

ولم يكن وصول كتاب النبى ﷺ مفاجأة لهرقل ، فقد كان يتوقع وصوله ، لأنه يعرف (فيما علم من الإنجيل) أن محمداً ﷺ ليس رسولاً إلى العرب وحدهم . بل رسولاً إلى الناس كافة . والشعوب إنما تُخاطَب فى أشخاص ملوكها وحكامها المتحدثين باسمها .

ولهذا كان يتوقع أن يصل إليه مبعوث من محمد ﷺ يحمل إليه الدعوة إلى الدخول فى الإسلام . وعندما دخل دحية الكلبى وأخبر الإمبراطور أنه رسول رسول الله ﷺ وسلمه كتاب النبى ﷺ استدعى ترجمانه الخاص . وطلب منه أن يترجم له كتاب الرسول ﷺ ففعل . وبعد أن علم فحوى الكتاب . أمر بإكرام دحية الكلبى . وأمر بأن ينزل ضيفاً عليه . وأوصى بالعناية به .

هرقل يستطلع رأى روما فى دعوة الرسول ﷺ

ومع تخوف الملك هرقل على نفسه من رجال دولته إن هو دعاهم إلى الدخول فى الإسلام فإنه قد صمم على ذلك . ولكنه قبل أن يفاتح رجال دولته فى هذا الأمر الخطير . أحب أن يتصل بمركز البابوية فى روما (رغم ما بين الإمبراطوريتين من الخلافات السياسية) ليخبر الرهبان المختصين ويستشيرهم فى هذا الأمر الخطير .

فكتب هرقل إلى أولئك العلماء المختصين فى رومية (روما) يذكر لهم أمر النبى ﷺ ويصف لهم شأنه ، ويوضح لهم صفاته ويخبرهم بمحتوى كتابه الذى يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منهم كلمة الفصل ، فيما إذا كان هو النبى المنتظر الذى توصى التوراة والإنجيل باتباعه .

وقد جاء الجواب من روما (لهرقل) يؤكد أن محمداً هو النبى المنتظر . ويوصى الإمبراطور باتباعه وتصديقه(٢) .

---

(١) تقدم نص كتاب الرسول الموجه إلى (هرقل) فيما مضى من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٤٩ .

الإمبراطور هرقل يدعو شعبه لاعتناق الإسلام

لقد كان (هرقل) كعالم بالتوراة والإنجيل . يعلم أن محمداً ﷺ هو النبى الذى كانوا ينتظرونه . ولكنه كتب إلى روما ليكون ما يتسلمه من تأييد لرأيه عامل إقناع لأهل الحل والعقد فى دولته ، بالدخول فى الإسلام .

فبعد أن تلقى (هرقل) من روما ما يؤكد اعتقاده بأن محمد بن عبد الله هو النبى الذى ينتظرونه صار أكثر تصميماً على دعوة شعبه إلى الدخول فى الإسلام ، فدعا (وهو فى القدس) أهل الحل والعقد من بطارقة الروم إلى اجتماع عام فى قصره ليشرح لهم الموقف على حقيقته . وينصحهم بأن خير وسيلة لتجنب الويلات والمصائب التى ستتعرض لها مملكته هو اتباع النبى محمد ﷺ .

الاجتماع التاريخى فى حراسة مشددة

غير أن الإمبراطور (وكان مع علمه الواسع شديد الذكاء والحذر) قد اتخذ احتياطات مشددة لمواجهة أىِّ رد فعل عنيف من أركان دولته عندما يجتمع بهم ويفاتحهم فى موضوع الدعوة إلى اعتناق الإسلام .

فقد أوعز إلى قادة حرسه الخاص بأن يقفلوا كل الأبواب ويقفوا عليها بالسلاح ، بعد أن يكتمل اجتماعه بالبطارقة وبقية أركان دولته . وأن يمنعوهم من الخروج من قاعة الاجتماع . إذا مالاحظوا عليهم بادرة تذمُّر أو تمرد .

ثم تحسبا لكل طارئ اتخذ الإمبراطور لنفسه مقصورة تقع فى أعلى وتشرف على قاعة الاجتماع . وأحاط مقصورته هذه بحراسة مشددة من قواته الخاصة .

البطارقة وأركان الدولة يرفضون دعوة الإمبراطور ويحاولون التمرد

وبعد أن اكتمل الاجتماع فى القصر الملكى بالقدس . أطل الإمبراطور من مقصورته على المجتمعين ، ثم خاطبهم فى هدوء يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام قائلاً : « يا معشر الروم إنى قد جمعتكم لخير ، إنه أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه ، وإنه والله للنبى الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا ، فهلموا فلنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا[1] » .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٦ .

ولقد حدث من البطارقة وبقية وجوه الدولة ما كان يخشاه ويتوقعه الإمبراطور (هرقل) فما كاد يكمل حديثه بشأن النبى ﷺ حتى علاهم الغضب جميعاً ، فثارت ثائرتهم وأضمروا الشر للإمبراطور . حيث كان جوابهم على دعوته الخيِّرة . أن نفروا منه وحاصوا من القاعة حيصة الحمرُ الوحشية من شدة الغضب لما سمعوا من الإمبراطور واستبقوا الأبواب ليخرجوا احتجاجاً على ما سمعوا من دعوتهم إلى ترك دينهم(١) .

غير أنهم وجدوا الأبواب مغلقة وعليها الحراس فى كامل أسلحتهم فمنعوهم من الخروج ، فازداد غضبهم وعادوا إلى قاعة الاجتماع ليبلغوا الإمبراطور احتجاجهم .

تراجع هرقل خوفاً على ملكه

وعندما رأى الإمبراطور أن هؤلاء (وكلهم يمثلون أركان دولته) قد رفضوا بالإجماع دعوته وأضمروا له الشر خاف على نفسه ، فلجأ إلى ملايَنتهم ليتجنب شرَّهم . فخاطبهم قائلاً : « يا معشر الروم إنى قد قلت لكم المقالة التى قلت ، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث ، وقد رأيت منكم الذى أسر به فسجدوا له ورضوا عنه . ثم أمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا »(٢) .

الأسقف الذى قتله بطارقة هرقل لإعلانه الإسلام

ولم تكن محاولة الإمبراطور هرقل تلك التى حاول بها إقناع قومه باتباع الرسول ﷺ المحاولة الوحيدة ، فقد روى ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٧ . أن الإمبراطور بعد أن تسلم كتاب الرسول ﷺ المتضمن دعوة الروم إلى الإسلام . استدعى أسقفاً كبيراً (اسمه صفاطر) وأطلعه على مضمون الكتاب النبوى ثم طلب منه أن يبدى رأيه قائلاً : فما تأمرنى ؟ فقال الأسقف : هو والله الذى بشر به موسى وعيسى الذى كنا ننتظر . أما أنا فإنى

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٦ نقلًا عن صحيح البخارى .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٠ والأغانى للأصفهانى ج ٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٦ .

مصدق ومتبعه فقال قيصر : أعرف ذلك ولكن لا أستطيع أن أفعل ، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم .

وفى تاريخ الرسل والملوك للطبرى . أن الإمبراطور هرقل (بعد فشله فى إقناع أركان دولته باتباع النبى محمد ﷺ) استدعى مبعوث النبى الخاص دحية الكلبى . وقال له : إننى والله لأعلم أن صاحبك نبى مرسل ولولا أننى أخاف الروم على نفسى لاتبعته ، وقد علمت ما حدث منهم عندما دعوتهم إلى اتباعه ، ولكن اذهب إلى كبير أساقفتهم (صفاطر) فاذكر له أمر صاحبكم فهو والله أعظم فى الروم منّى ، وأجوز قولاً عندهم منى ، فانظر ما يقول لك .

فذهب دحية الكلبى إلى الأسقف إلى الأسقف إياه . فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، وبما يدعوه إليه . فقال (صفاطر) : صاحبك والله نبى مرسل ، نعرفه بصفته ونجده فى كتبنا باسمه .

قال دحية : ثم دخل ونزع ثياباً كانت عليه سودا ، ولبس ثياباً بيضا ، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم فى الكنيسة فقال يا معشر الروم ، قد جاءنا كتاب من أحمد ، يدعونا فيه إلى الله عز وجل (وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن أحمد عبده ورسوله) .

قال : فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، حتى قتلوه . فلما رجع دحية إلى الملك هرقل فأخبره الخبر . قال : قد قلت لك : إنا نخافهم على أنفسنا . فصفاطر — والله — كان أعظم عندهم وأجوز قولاً منى[1] .

هل أسلم الملك هرقل ؟

وذكر بعض أصحاب الحديث والسير أن الإمبراطور هرقل أسلم (سراً) وبقى على إسلامه حتى مات[2] والله أعلم بحقيقة ذلك .

---

(١) روى الإمام الطبرى هذا الخبر بسنده عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق .

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٨ .

قلق الملك هرقل

لقد عاش الملك هرقل أياماً قلقة ، بعد تلقيه خطاب النبى ﷺ الذى يدعوه فيه إلى الإسلام .

وزاده قلقاً وحيرة واضطراباً أن رفض أركان دولته وزعماء الكنيسة دعوته إياهم إلى الدخول فى الإسلام ، بل وحاول قادة جيشه عندما كان فى حِمص القيام بانقلاب مسلح للإطاحة به لإظهاره الميل والرغبة إلى أن يدخل شعبه فى دين الإسلام حيث نادى مناديه فى حمص .. (ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه)(١) . فأخفى ما كان قد أظهر . وطمأن القوات المسلحة التى حاولت الإطاحة به وطوقت قصره . بأنه (كما تقدم) إنما أراد بما تظاهر به من الإيمان بمحمد واتباعه اختبار صلابتهم فى التمسك بالنصرانية ..(٢) .

التناقضات المتصارعة بنفس هرقل

مما لا شك فيه أن الإمبراطور هرقل (منذ تلقى كتاب الرسول ﷺ الذى يدعوه وشعبه إلى الدخول فى الإسلام) قد صار عرضة لتيارين شديدين متناقضين داخل أعماق نفسه .

عامل الاستجابة لصوت الحق الذى يهتف به فى أعماق نفسه بأن يؤمن بالنبى ﷺ ويتبعه لأنه بات على ثقة بأنه النبى المنتظر الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى الإنجيل(٣) .

وعامل الحفاظ على عرش الإمبراطورية الذى يتطلب بقاؤه عليه متربعاً ، التمسك بالنصرانية بل والإخلاص لها ، فالرومان لن يرضوا (مطلقاً) أن يكون على عرش إمبراطوريتهم ملك غير مسيحى .

وتفيد تقارير أصحاب السير والتواريخ (بالإجماع) أن العاملين كانا فى

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) انظر جوامع السيرة ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٦ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٠ وزاد المعاد ج ٤ ص ١٢٦ .

(٣) قال ابن برهان الدين فى السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٧ .. (فقال قيصر لقومه : يا قوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبياً بشركم به عيسى بن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟ قالوا : بلى . قال : فإن الله قد جعله فى غيركم ، وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء .)

نفس الإمبراطور (هرقل) متساويان ، فهو يعلم حق العلم أن محمد بن عبد الله هو الرسول الذى بشر به عيسى . لذلك كان يحرص على أن يؤمن به ويتبعه ، بل ويحرص على أن يؤمن به ويتبعه شعبه أيضاً . على أن يظل محتفظاً بعرش الإمبراطورية .

لذلك نراه (وكما دلت جميع المصادر التاريخية) يتظاهر ــ حرصاً على عرشه ــ بالإخلاص للنصرانية ، مع أنه (فى واقع الأمر) قد نفض يده منها ، منذ الجلسة الأولى التى اجتمع فيها بالقدس إلى أركان دولته وأبلغهم فحوى كتاب النبى ﷺ ودعاهم إلى الاستجابة إلى ما جاء فيه من دعوة الروم إلى الإسلام .

هرقل يدعو قومه مرة أخرى وأخيرة إلى الإسلام أو إعطاء الجزية .

ورغما عن المعارضة الشديدة التى لقيها من أركان دولته وقادة جيشه الذين حاولوا الإطاحة به بسبب موقفه من دعوة الإسلام . فإنه لم ييئس وعاود الكرَّة مرة أخرى (عندما اعتزم مغادرة الشام فى أخريات أيام الرسول ــ ﷺ) فدعا (وهو بحمص) أهل الحل والعقد من رجال الكهنوت وقادة الجيش والوزراء إلى اجتماع خاص .

فى هذا الاجتماع ، أخبرهم بأنه قد قرَّر العودة إلى عاصمة ملكه القسطنطينية ، ولكن قبل عودته يجب أن يتحدّث إليهم حديثاً صريحاً ، حول موضوع الإسلام ، وما يجب أن يفعلوه تلافياً لما يهدد الإمبراطورية من أخطار الزوال ، نتيجة ما يتوقع أن يحدث (ولابد) على أيدى حملة الدين الجديد (الإسلام) من تغيّرات جذرية فى مجرى التاريخ وتبديل كلى لخريطة العالم .

فقد عرض عليهم عروضاً ثلاثة ، وطلب منهم قبول أحدها كوسيلة لدفع الخطر الذى يتهدد الإمبراطورية فى المستقبل القريب على يد حاملى رسالة الإسلام (وخاصة ممتلكات الإمبراطورية فى سورية وفلسطين والأردن ولبنان) وآسيا الصغرى ــ تركيا الآسيوية اليوم .

فقد قال الإمبراطور : يا معشر الروم إنى عارض عليكم أموراً فانظروا فيم قد أردتها .

قالوا : ما هى ؟.

قال : تعلمون والله أن هذا الرجل (يعنى محمداً ﷺ) لنبى مرسل ، إنا نجده فى كتابنا نعرفه بصفته التى وصف لنا ، فهلمَّ فلنتبعه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا .

فقالوا : نحن نكون تحت أيدى العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا ، وأكثرهم رجالاً ، وأفضلهم بلداً .

قال : فهلمّ فأعطيه الجزية فى كل سنة ، أكسر عنى شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه .

قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغَّار بخَرج يأخذونه منّا ، ونحن أكثر الناس عدداً ، وأعظمهم ملكا ، وأمنعهم بلداً ، لا والله لا نفعل هذا أبداً .

قال فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام فقالوا : نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها أرض سورية الشام لا تفعل هذا أبداً .

هرقل يودع سوريا الوداع الأخير

وبعد أن رفض أركان دولة بيزنطا عروض ملكهم الثلاثة قال لهم (وقد تهيأ للعودة إلى عاصمة ملكه على البوسفور).. أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم . ثم جلس على بغل له ، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ، ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ثم ركض حتى دخل قسطنطينية عاصمة ملكه(١) .

تحقيق المقام حول موقف هرقل من الإسلام

مما لا جدال فيه أن جمهرة أئمة الحديث والسير والتاريخ (البخارى — مسلم — أحمد — الترمذى — الطبرى — الواقدى وغيرهم) مجمعون على أن الملك هِرقل قد استقبل خطاب الرسول ﷺ الذى يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام ، بالترحاب والقبول والتكريم ، وأنه كان مقتنعاً بأن محمداً ﷺ نبى مرسل إلى الناس كافة كما هو مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وأنه كان حريصاً على أن يعتنق وشعبه الإسلام . وأنه حاول (بمختلف الوسائل) أن يقنع أهل الحل والعقد من رجال الكهنوت وقادة الجيش والوزراء والأعيان فى الإمبراطورية

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٨ .

أن يقبلوا نصحه فيدخلوا فى الإسلام ، ولكنهم جميعهم عصوه ، بل وغضبوا لدعوته هذه . وحاول قادة الجيش أن يطيحوا به من على عرشه . الأمر الذى اضطره إلى أن يظهر لهم خلاف ما يبطن ، فيعلن لهم أنه متمسك بالنصرانية ، وأنه إنما أراد بما سمعوا منه اختبار تمسكهم بدينهم .

ولكن ميله نحو الإسلام ورغبته فى اعتناقه ظلتا تسيطران على نفسه ، ولكن حرصه على ملكه منعه من أن يفعل فعل النجاشى الذى أعلن إسلامه ، رغم معارضة أركان دولته ، بل وقيامهم ضده بعصيان مسلح حاولوا به الإطاحة به . فحماه الله وحرسه من شرهم . فبقى ملكاً فى الحبشة على شعب غير مسلم .

ويذكر بعض المؤرخين وأصحاب الحديث . أن الملك هرقل ، كتب إلى النبى ﷺ أنه قد دان بالإسلام ، ولكنه لا يستطيع الجهر به ، لأنه مغلوب على أمره من قومه ، ولكن الرسول ﷺ لم يقبل منه هذا العذر ففى مسند الإمام أحمد أن الملك هرقل كتب إلى النبى ﷺ من تبوك أنى مسلم ، فقال النبى ﷺ كذب إنه على نصرانيته ، وفى لفظ كذب عدو الله ، والله ليس بمسلم . قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) فعلى هذا إطلاق صاحب الاستعاب أنه آمن أى أظهر التصديق لكنه لم يستمر عليه ولم يعمل بمقتضاه ، بل شح بملكه وآثر العافية على العاقبة(١) .

وفى السيرة الحلبية : قال ابن برهان الدين : كتب هرقل إلى النبى ﷺ كتابا وأرسله مع دحية الكلبى يقول فيه : إنى مسلم ولكننى مغلوب وأرسل بهدية ، فلما قرئ الكتاب على الرسول ﷺ قال : كذب عدو الله ليس بمسلم . وقبل الرسول ﷺ هديته وقسمها بين المسلمين . قال ابن برهان الدين : ويدل على صدق هذه الرواية أن هرقل قاتل المسلمين فى مؤتة . وذلك قبل (غزوة تبوك) وعقب تسلمه خطاب الرسول ﷺ

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٨ .

الذى بعث به إليه دحية الكلبى يدعوه فيه إلى الإسلام(١).

إسلام الملك المنذر بن ساوى :

كذلك تجاوب ملك البحرين (المنذر بن ساوى)(٢) التميمى مع دعوة الرسول ﷺ فأكرم رسول النبى ﷺ ثم أعلن إسلامه ، فاستخلفه مبعوث النبى ﷺ إليه العلاء بن الحضرمى مكانه على البحرين . حين استقدم الرسول ﷺ العلاء إلى المدينة(٣) وكان المنذر تابعا لإمبراطورية فارس ويحكم الخليج باسمها .

جواب ملك الغساسنة التهديد بغزو الجزيرة

أما ملك الجولان ودمشق من قبل الروم (الحارث بن أبى شعر الغسانى) فقد كان جوابه على دعوة الرسول ﷺ له إلى الإسلام . التهديد بغزو المدينة .

فقد ذكر المؤرخون أن الحارث لما وصله شجاع بن وهب بكتاب رسول الله ﷺ . وفيه « سلام على من اتبع الهدى وآمن به ، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » قال الحارث : ومن ينتزع ملكى ؟ إنى سأسير إليه(٤) .

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) هو المنذر بن ساوى بن الأخنس بن بيان بن عمرو بن عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم التميمى الدارمى . وقد وهم البعض . فاعتبره من عبد القيس . والصحيح أنه من بنى تميم . ثبت على إسلامه وكان حسن الإسلام . توفى بالقرب من وفاة النبى ﷺ وحضر وفاته عمرو بن العاص .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٣ ص ٤٣٩ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٨ . وجاء فى طبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٢٦١ .. (أن شجاع بن وهب حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبى شعر . أتى الملك الحارث ، وهو بغوطة دمشق ، وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر . وهو جاء من حمص إلى إيلياء . قال شجاع : فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه إنى رسول رسول الله ﷺ إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه ــ وكان رومياً اسمه مرى ــ يسألنى عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء =

موقف المقوقس حاكم مصر

أما المقوقس حاكم مصر من قبل الرومان . فقد جاءه كتاب النبى ﷺ الذى يدعوه فيه إلى الإسلام . وهو فى الإسكندرية . وكان حامل كتاب الرسول ﷺ إليه حاطب بن أبى بلتعة ، فاستقبل المقوقس مبعوث النبى ﷺ استقبالا حسنا للغاية . فأكرمه . وقبل كتاب النبى ﷺ .

وروى البيهقى ، أن الملك المقوقس عقد اجتماعاً دعا إليه البطارقة على أثر تلقيه دعوة الرسول ﷺ وحضر هذا الاجتماع مبعوث النبى ﷺ حاطب ابن أبى بلتعة . وفى هذا الاجتماع سأل المقوقس حاطبا : (أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ قال حاطب : بل هو رسول الله . قال : فما له حيث كان هكذا لم يَدْعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها .

قال حاطب : فقلت : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟ قال : بلى . قلت : فماله حين أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا ؟ فقال لى : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم . هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك[1]) .

= ويقول : إنى قد قرأت فى الإنجيل فأجد صفة هذا النبى ﷺ بعينه ، فأنا أؤمن به وأصدقه ، وأخاف من الحارث أن يقتلنى .

قال شجاع : وكان يكرمنى ويحسن ضيافتى ، وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه ، فأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به وقال : من ينتزع منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته ، على بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ، ثم قال لشجاع : أخبر صاحبك ما ترى ، وكتب (الحارث) إلى قيصر يخبره خبرى وما عزم عليه (أى من القيام بغزو الرسول ﷺ ، فكتب إليه قيصر .. ألا تسير إليه واله عنه . ووافق بإيلياء .

قال شجاع : فلما تلقى الحارث جواب قيصر دعانى فقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غداً ، فأمر لى بمائة مثقال ذهب .. ووصلنى مرى — يعنى الحاجب الرومانى — وأمر لى بنفقة وكسوة ، وقال : أقرئ رسول الله ﷺ منى السلام ، فقدمت على النبى ﷺ ، فأخبرته فقال : باد ملكه ، وأقرأته من مرى السلام وأخبرته بما قال . فقال رسول الله ﷺ : صدق . قال ابن سعد : ومات (الملك الحارث) عام الفتح سنة ثمان من الهجرة . اهـ .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٢ .

اعتراف المقوقس بنبوة النبى محمد ﷺ .

ثم كتب المقوقس إلى النبى ﷺ يعترف فيه بأنه خاتم الأنبياء . إلا أنه لم يسلم خشية على ملكه . فقد كتب المقوقس « باسمك الله من المقوقس إلى محمد » .

أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقرأته وفهمت ما فيه . أنت تقول : إن الله تعالى أرسلك رسولاً ، وفضلك تفضيلاً . وأنزل عليك قرآناً مبيناً ، فكشفنا يا محمد فى علمنا عن خبرك ، فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله ، وأصدق من تكلم بالصدق . ولولا أنى ملكت ملكاً عظيماً ، لكنت أول من سار إليك ، لعلمى أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، وإمام المتقين »(١) .

كسرى يمزق كتاب الرسول ﷺ فيمزق الله ملكه

ولعل أعنف ردّ فعل أحدثته دعوة النبى ﷺ الملوك والأمراء فى الشرق الأوسط إلى الإسلام . هو ذلك الذى بدا واضحا من تصرف عظيم الفرس الملك (كسرى ـــ أبرويز) الذى مزق كتاب النبى ﷺ إليه قبل أن يترجم له . وسبب ذلك أن النبى ﷺ بدأ بنفسه فى الكتاب فغضب كسرى ومزق الكتاب .

وكان نص كتاب النبى ﷺ إلى كسرى كما يلى : بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك . (٢)

---

(١) الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله ص ١٠٨ .

(٢) الوثائق السياسية ص ١١٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٩ . وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٨ .

وقد ذكر المؤرخون أن مبعوث النبى ﷺ بكتابه إلى كسرى لما وصل وعلم كسرى بذلك أمر بإيوانه أن يزين ثم أذن لعظماء فارس ، ثم أذن بعد ذلك لمبعوث النبى ﷺ . فلما أن دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله ﷺ أن يقبض . فقال المبعوث النبوى الخاص : لا حتى أدفعه إليك كما أمرنى رسول الله ﷺ فقال كسرى أدنه ، فدناه . فناوله الكتاب ثم دعا كسرى كاتبا له (من عرب الحيرة) فبدأ قراءة الكتاب فإذا فيه (من محمد رسول الله إلى عظيم الفرس) فأغضبه ذلك حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه وصاح وغضب ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه[1] فلما بلغ النبى ﷺ ما فعل كسرى بكتابه قال : (مزِّق ملكه)[2] .

وبعض أهل السير يذكر أن كسرى لم يمزق كتاب الرسول ﷺ إلا بعد أن قرأه عليه المترجم كله ، قال (غاضبا) : يكتب إلى هذا وهو عبدى[3] .

وذكر آخرون من المؤرخين والمختصين فى بحث خطابات الرسول ﷺ ووثائقه ومعاهداته أن كسرى (أبرويز) ـــ بعد أن هدأ غضبه . طلب إعادة مبعوث النبى ﷺ الخاص إليه بعد أن أمر بطرده . ولكن حرسه لم يعثروا عليه . حيث وجدوه غادر المدائن[4] .

عامل كسرى على اليمن يعصى أمره ويسلم

ولم يكتف كسرى بتكذيب النبى ﷺ وتمزيق كتابه وطرد مبعوثه . بل أصدر أمره إلى عامله بصنعاء (باذان) وهو ملك اليمن من قبله . أصدر أمره إليه بأن يرسل إلى النبى ﷺ قوة لتقبض عليه ، ثم يرسله إليه فى المدائن مخفوراً .

---

(١) البداية ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٩ جاء فيها (مزق كسرى ملكه) .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٤) الحلبية ج ٢ ص ٢٩٦ .

وقد نفذ (باذان) أمر كسرى أول الأمر . فبعث إلى النبى ﷺ رجلين من خاصته . ليطلبا منه الحضور إلى اليمن . ليبعث به ملكها إلى كسرى .

غير أن رسولى (باذان) عادا إليه من المدينة بأخبار وانطباعات عن الرسول ﷺ جعلت (باذان) — وكان أكبر عقلا وأبعد نظرا من كسرى — يدخل فى الإسلام هو وجميع الذين يقعون تحت سلطانه فى اليمن وذلك بعد أن ثار شيرويه على أبيه كسرى فقتله .

فقد جاء فى أمهات التاريخ أن كسرى (أبرويز) كتب إلى باذان .. أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جَلْدين ، فليأتيانى به .

فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه — وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس — وبعث معه رجلا من الفرس يقال له .. خُرّخِسْره ، وكتب معهما كتابا إلى النبى ﷺ ، يأمره فيه أن ينصرف معهما إلى كسرى . إلا أنّ (باذان) لما يريد الله به من هداية . قال لبابويه : ائت هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) وكلّمه وأتنى بخبره .

استبشار المشركين وفرحهم بتهديد كسرى للنبى ﷺ .

فخرج رسولا (باذان) حتى قدما الطائف ، فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألاهم عن الرسول ﷺ فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا قد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفِيتم الرجل . أى أن الملك كسرى سيتولى القضاء بنفسه على النبى ﷺ ودعوته .

النبى يخبر رسولى باذان بقتل شيرويه لأبيه كسرى .

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه بابويه فقال : إنّ شاهانشاه (ملك الملوك كسرى) قد كتب إلى الملك باذان . يأمره ، أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى ، فإن فعلت كتب

فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكف عنك وإن أبيت ، فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك ، قال الطبرى : وقد دخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما ، ثم أقبل عليهما . فقال : ويلكما ، من أمركما بهذا : قالا : أمرنا بهذا ربنا ـــ يعنيان كسرى ـــ فقال رسول الله ﷺ لكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى . ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غدا ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله فى شهر كذا وكذا ، ليلة كذا وكذا من الليل ، بعد ما مضى من الليل ـــ سلّط عليه ابنه (شيرويه) فقتله .

قال الواقدى : قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها .[1] .

وفى اليوم التالى : استدعى الرسول ﷺ رسولى الملك (باذان) وأبلغهما أن شيرويه قد قتل أباه كسرى فاستعظما ذلك واستنكراه منه . فقالا له : هل تدرى ما تقول . إنّا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال ﷺ : نعم أخبراه ذلك عنى . وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ،[2] وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، ثم أعطى خُرخسرة منطقة فيها ذهب وفضة . كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عند رسول الله ﷺ حتى قدما على (باذان) بصنعاء فأخبراه الخبر : فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول ، ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام ، إنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

شيرويه يأمر باذان بعدم التعرض للرسول ﷺ

وبينما الملك باذان يفكر فيما نقل إليه رسولاه عن النبى ﷺ من أقوال

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ٢ ص ٦٥٦ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) الخف . يكنى به عن نوع الجمال . والحافر عن نوع الخيل .

إذا رسول (شيرويه بن كسرى) يقدم عليه بكتاب جاء فيه « أما بعد فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبا لفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم[1] في ثغورهم ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذلي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فلا تهجه (يعني النبي ﷺ) حتى يأتيك أمري فيه .

وهنا استيقن الملك باذان أن محمدا ﷺ نبي حقاً . فقال : إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن[2] .

قال ابن كثير في البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٠ : وروى الحافظ البيهقي . أن رجلا من أهل فارس أتى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : إن ربي قد قتل الليلة ربك — إشارة إلى تسليط الله شيرويه على أبيه كسرى حتى قتله . وأخبر النبي ﷺ أن كسرى قد استخلف ابنته . فقال ﷺ « لا يفلح قوم تملكهم امرأة »[3] .

ملك اليمامة يقرب من الإسلام ولا يسلم :

أما صاحب اليمامة هوذة بن علي . فقد أعجبه ما دعا إليه الرسول ﷺ فقبل أن يتبعه . ولكنه اشترط أن يجعل له بعض الأمر ولكن النبي ﷺ أبى عليه ذلك .

فقد كتب إليه الرسول ﷺ « من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي : سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

---

(١) التجمير هو حبس الجند في الثغور وتركهم دون أن يقاتلوا .

(٢) انظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٥٤ — ٦٥٥ — ٦٥٦ . والتنبيه والإشراف ص ٢٥٩ — ٢٦٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٨ وما بعدها والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٧٠ والوثائق السياسية ص ١٠٩ وما بعدها ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٦ . وذكر حمزة الأصفهاني في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) ص ٢٤ أن المرأة التي ملكها الفرس عليهم هي (بوران دخت) بنت كسرى أبرويز بعد أخيها (شيرويه) الذي لم يدم ملكه سوى ثمانية أشهر ، وبعد (شهريزاد) الذي لم يكن من بيت الأكاسرة والذي لم يدم ملكه سوى ثمانية وثلاثين يوماً .

فرد هوذة على النبى ﷺ بكتاب قال فيه : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك »[1] .

وقال ابن الأثير كان هوذة بن على نصرانياً ، فلما جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام . أرسل إليه وفدا يخبره بأنه يقبل الدخول فى الإسلام شريطة أن يجعل له الأمر من بعده . فلما تبلغ النبى ﷺ هذا الشرط . رفضه قائلا : (لا ولاكرامة اللهم اكفنيه فمات بعد قليل)[2] .

وذكر أن هوذة هذا كان عنده عظيم من عظماء النصارى حين رد على كتاب النبى ﷺ بما رد . فقال له : لم لا تجيبه قال : أنا ملك قومى ولئن اتبعته لم أملك .

فقال : بلى والله لئن اتبعته ليملكنك ، وأن الخيرة لك فى اتباعه . وإنه النبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل ، محمد رسول الله[3] .

إسلام ملكى عُمان

أما ملكا عمان الأخوان . جيفر وعبد ابنا الجلندى . فقد كتب إليهما رسول الله ﷺ مع عمرو بن العاص كتابا قال فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما »[4] .

وذكر المؤرخون وأصحاب الحديث . أن عمرو بن العاص قد أقنع

---

(١) الوثائق السياسية ص ١٠٩ .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٦٢ .
(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٦ .
(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٤ والوثائق السياسية ص ٧٦ .

الملكين فى عمان . فدخلا فى الإسلام بعد مناقشات طويلة أجرياها مع عمرو بن العاص حول الإسلام وجوهر دعوته وحقيقة أهدافه وأثر تعاليمه .

ومن جملة النقاش الذى دار بين عمرو بن العاص والملك (عبد) ملك عمان هذا الكلام .. قال (عبد) لعمرو .. متى تبعت محمدا (ﷺ) .

قال عمرو : قريبا . فسألنى : أين كان إسلامى ؟ . فقلت عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم .

قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ . قلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة ؟؟ قلت : نعم قال . انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب . قلت : وما كذبت وما نستحله فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى . قلت : بلى . قال : بأى شىء علمت يا عمرو ؟ . قلت : كان النجاشى رضى الله عنه يخرج له خراجا[1] . فلما أسلم النجاشى وصدق بمحمد ﷺ . قال : لا والله ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله . فقال له أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين ديناً محدثاً ؟ . فقال هرقل : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى (أى النبى ﷺ) ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب .

فقال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخى (جيفر) يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا (أى تابعا) . قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم . قال : إن هذا الخلق حسن . قال عمرو : فأخبرته لما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات فى الأموال .

(١) وهذا يعنى أن ملك الحبشة كان تابعاً للإمبراطور هرقل .

ويذكر عمرو بن العاص ، أنه بعد هذا النقاش والبحث الذى دار بينه وبين الملك عبد (وكان حليما سهلا) وبعد ممانعة من حجاب الملك جَيفَر . أوصله (عبد) إلى أخيه جيفر . فسلمه عمرو كتاب رسول الله ﷺ ففضه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه (عبد) فقرأه ، ثم قال (جَيفَر) : ومن معه ؟ فقلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين ، فما أعلم أحد بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم وتتبعه تطؤك الخيل وتبيد خضراءك (أى جماعتك) فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال : دعنى يومى هذا وارجع إلىّ غداً. فلما كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى ، فرجعت إلى أخيه (عبد) فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه . فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاق . قلت : وأنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه (عبد) — وكان حليماً عاقلاً — قال عمرو : ثم أصبح فأرسل إلىّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً وصدقا ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لى عوناً على من خالفنى[1] .

إسلام حمير فى اليمن

أما ملك حمير فى اليمن (وهو الحارث بن عبد كلال) فقد كتب إليه النبى ﷺ وإلى أخويه نعيم ومسروح كتابا مع المهاجر بن أبى أمية هذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم : إلى الحارث ومسروح ونعيم بن كلال من حمير ، سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله .وإن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته ، وخلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود : (عزيز بن الله) وقالت النصارى : (الله ثالث ثلاثة ، عيسى بن الله)[2] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٢) الوثائق السياسية ص ١٠٧ .

ولم يتردد ملوك حمير فى الاستجابة لدعوة الإسلام فعقب تسلمهم كتاب النبى ﷺ . بعثوا إليه وفدا بإسلامهم . وكان هذا الوفد مؤلفا من (الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذى رعين ، ومعافر وهمدان)[1] .

النجاشى الذى لم يسلم

أما الكتاب الذى بعثه النبى ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمرى . فهو ليس النجاشى أصحمة . الذى كان قد أسلم قبل الهجرة على يد جعفر بن أبى طالب . وإنما هو الذى تولى ملك الحبشة بعده . فهذا النجاشى لم يسلم . أثبت ذلك الإمام مسلم فى صحيحه من رواية أنس بن مالك . وأكده الإمام ابن حزم[2] .

أما النجاشى (أصحمة) فقد أسلم على يد جعفر بن أبى طالب قبل الهجرة ، وبنصيحة من أصحمة هذا أسلم عمرو بن العاص « انظر قصة إسلام النجاشى على يد جعفر فى سيرة ابن هشام فى مظنه » غير أن هذا لا ينافى أن يكون عمرو بن أمية الضمرى قد جاء بكتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى أصحمة المسلم . كما جاء بكتاب آخر من الرسول ﷺ إلى نجاشى الحبشة الذى لم يقبل الدخول فى الإسلام . وهو النجاشى الذى خلف أصحمة المسلم على الحبشة ، لأن مجىء عمرو بن أمية الضمرى بكتاب من رسول الله ﷺ إلى النجاشى المسلم أمر متواتر بين أصحاب المغازى والسير .

ويذكر الدكتور محمد حميد الله فى كتابه « الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة » نصوص كتب أربعة بعث بها النبى ﷺ إلى نجاشى الحبشة وقد تكون روايات مختلفة لنص كتاب واحد . ونختار منها هذا النص . ثم نورد نص جواب الملك النجاشى أصحمة الذى أبلغ النبى ﷺ أنه قد آمن به وأسلم على يد ابن عم النبى ﷺ جعفر بن أبى طالب .

(١) إمتاع الأسماع ص ٤٩٥ والوثائق السياسية ص ١٠٨ .
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٠ .

نص الخطاب النبوى إلى النجاشي

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ، أسلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله .

وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ، ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ، ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت نصحى ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى)[1] .

جواب الملك النجاشي على كتاب النبى ﷺ

وكما روى أصحاب المغازى عدة صيغ لكتب النبى ﷺ إلى النجاشي . كذلك أوردوا صيغا مختلفة لإجابة الملك النجاشي على كتاب النبى ﷺ إليه . إلا أن كل الصيغ تؤكد أن النجاشي أعلن إسلامه فى كل هذه الصيغ ونحن نختار هذه الصيغة من أجوبة النجاشي وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحم ابن أبجر .

سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد : فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقا[2] ، إنه كما قلت . وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه وأسلمت على يديه لله رب العالمين وقد بعثت إليك

(١) الوثائق السياسية ص ٧٥ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٣٧ طبعة مطبعة السنة المحمدية .

(٢) التفروق . غلافة ما بين النواة والقشر .

بابنى أرها بن الأضحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله فإنى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله »[1] .

إسلام جبَلة بن الأيهم

وهناك ملوك وأمراء آخرون كتب إليهم النبى ﷺ يدعوهم إلى الإسلام أو أرسل إليهم مبعوثين خاصين فأسلم أكثرهم . ومن أهم هؤلاء الملوك : جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان .

فقد ذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ كتب إلى جبلة يدعوه إلى الإسلام . وأن جبلة كتب إلى الرسول ﷺ يعلن إسلامه . إلا أن أحدا من المؤرخين لم يورد نصّ أى من الكتابين[2] .

مخاطبة الرسول ﷺ ملوك وأمراء الشرق الأوسط : بداية التحول فى مجرى تاريخ المنطقة

ويمكن القول : إن نجاح النبى ﷺ (بحنكته وبعد نظره) فى إقامة هدنة بينه وبين أقوى قوة وثنية تعاديه فى جزيرة العرب (هى قريش) قد أعطته فرصة كبيرة تفرغ فيها لأن يسحق (أولاً) الوجود الاستعمارى اليهودى فى خيبر . ثم مكنته هذه الفرصة من أن يجعل صوت دعوته يتخطى (بصفة رسمية) حدود جزيرة العرب . فيتصل بملوك الروم والفرس والحبشة . يدعوهم (من مركز القوة والثقة) إلى الدخول فى الإسلام والتحول من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق .

فكان بعث النبى ﷺ بكتبه مبعوثيه الخاصين إلى الملوك والأمراء داخل وخارج جزيرة العرب .. يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ حركة وفعالية

---

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٨ وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٦ ــ ٤٦٧ والوثائق السياسية ص ٧٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٦٥ والوثائق السياسية ص ٩٨ وقد ظل جبلة مسلماً حتى ارتد عن الإسلام فى خلافة عمر . وقصته مشهورة .

ونشاط الدعوة الإسلامية .

فقد كانت هذه الدعوة (حتى) صلح الحديبية مقتصرة (في تحركاتها السلمية ومعاركها الحربية) على مناطق محدودة من هذه الجزيرة الشاسعة هي مناطق بعض القبائل النجدية الواقعة شرقي المدينة ومنطقة الحجاز الوسطى والغربية بصفة رئيسية .. فقد كان الصراع بين الإسلام والوثنية (حتى صلح الحديبية) إنما كان يدور بين النبي ﷺ من جهة ، وبين قريش في منطقة الحجاز وقبائل غطفان في الشريط الغربي من منطقة نجد الشاسعة من جهة أخرى . بالإضافة إلى القيام ببعض الدوريات الاستطلاعية على نطاق ضيق في مناطق مبعثرة في الشمال وبعض مناطق الحجاز الشرقية فقط .

أما بعد صلح الحديبية . وبعد القضاء على أقوى قوة مسلحة للمستعمرين اليهود في خيبر (آخر معقل لهؤلاء الدخلاء) . فقد اتسع نشاط الدعوة الإسلامية وازدادت فعالية حركاتها بشكل ملحوظ (سواء على صعيد التبليغ والإنذار . أم على صعيد الحرب والقتال) .

فبعد عقد صلح الحديبية لم يبق أمير أو ملك داخل الجزيرة العربية وخارجها في الشرق الأوسط إلا وتلقى من النبي ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام . ويحذره من مغبة رفض الاستجابة لداعي الله .

ولهذا يمكن القول : إن الكتب التي بعث بها الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء الشرق الأوسط كانت البداية التي هزت عروش وكراسي الملوك والأمراء الذين استكبروا فرفضوا دعوة الحق انتهت هذه البداية بما تعرضت له المناطق والممالك التي يحكمها هؤلاء الملوك والأمراء من أحداث خطيرة على يد الفاتحين المسلمين غيرت مجرى التاريخ كله لا في الشرق الأوسط فحسب بل في العالم كله . على عهد الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم من خلفاء وملوك الإسلام الذين وصلت طلائع جيوشهم إلى قلب فرنسا وأبواب مدينة فيينا في النمسا ووارسو في الغرب وخليج البنغال وقلب الصين وأواسط روسيا في الشرق .

— ٩ —

سرية شجاع بن وهب إلى هوازن .. ربيع الأول سنة ثمان للهجرة

هى دورية قتال قام بها شجاع بن وهب إلى هوازن . وكانت قبائل هوازن من أقوى القبائل التى ظلت فى الحجاز ذات شوكة . تتربص بالمسلمين الدوائر . وكان النبى ﷺ بين الحين والحين يجس نبضها ويحاول إرهابها وشن الغارة عليها داخل أراضيها . لئلا تطمع فى المسلمين أو تظن بهم الضعف .

فرغم بعد ديار هوازن عن المدينة حيث تقع فى المثلث الواقع بين الطائف ونجد ومكة . فإنه ﷺ كان يبعث بالسرايا تجوب خلال ديار هوازن . هذه التى خاضت فيما بعد ضد المسلمين أعنف معركة حربية شهدها العهد النبوى . وهى معركة حنين . التى التقى فيها اثنا عشر ألفا من المسلمين بعشرين ألفا من هوازن .

ففى ربيع الأول من سنة ثمان . بعث الرسول ﷺ بسرية قوامها أربعة وعشرون رجلا . بقيادة شجاع بن وهب إلى ديار بنى عامر بهوازن شرقى الطائف . وأمره بأن يطأ أرضهم فى غارة حربية .

فصدع القائد شجاع .. وتحرك برجاله . فصار يكمن النهار ويسير الليل . زيادة فى الكتمان . وذلك أسلوب يتبعه كل قادة السرايا والدوريات الحربية فى العهد النبوى ليضمنوا مباغتة العدو . لأن المباغتة فى العرف العسكرى (فى كل زمان ومكان) تكون من أهم أسباب النجاح فى تحقيق الأهداف .

نجاح الحملة

وقد نجح القائد شجاع فى حملته وكان عامل الكتمان من أهم عوامل نجاحه . حيث صبح القوم فى ديارهم على حين غفلة فى منطقة السى . فاستولوا على إبل وشاء كثيرة . ولم يذكر المؤرخون أنهم لقوا فى هذه الحملة قتالا . ويظهر أن المشركين هربوا (رعبا) من المسلمين ، ولبعد المسافة بين

المدينة وديار بنى عامر . غابت السرية خمسة عشر يوماً .

النبى يطلق سراح النساء

وكان قد وقع فى أيدى رجال شجاع بن وهب أثناء الغارة بعض النساء سبايا[1] فجاءوا بهن مع الغنائم إلى المدينة .. غير أن بنى عامر الذين شُنت الغارة عليهم جاء منهم وفد إلى المدينة معلنين إسلامهم .. ثم كلموا رسول الله ﷺ فى النساء السبايا . فكلم النبى ﷺ القائد شجاع بن وهب ورجال دوريته فيهن ورغب إليهم أن يردوهن إلى أهلهن ففعلوا جميعهم[2] .

— ١٠ —

سرية غالب بن عبد الله[3] إلى الكديد[4] .. صفر سنة ثمان للهجرة

وهى دورية قتال قوامها بضعة عشر رجلا قادها الأمير غالب بن عبد الله إلى ديار الوثنيين من بنى الملوح[5] . وهم بطن من بنى ليث[6] .

فقد كانت قبائل الساحل الغربى (ما عدى غفار) فى حالة حرب مع النبى ﷺ . وكان بنو الملوح قوة كبيرة . يخشى المسلمون أن تحدثهم أنفسهم بشن الغارة على المسلمين . أو الاعتداء عليهم فى أية منطقة .. لهذا قرر النبى ﷺ كما هى طريقته فى إخضاع القبائل الوثنية وتأديبها — أن ينقل

---

(١) سبى النساء واسترقاق الأسرى كنا قد بحثنا موضوعه ورددنا جميع الشبه التى بها طعن أعداء الإسلام فى الإسلام لموقفه من الرق الحربى . فى فصل خاص فى كتابنا الرابع « غزوة بنى قريظة » فليرجع إليه من يريد الإلمام بهذا الموضوع تفصيلياً .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٣ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) انظر ترجمة غالب هذا فيما مضى من هذا الكتاب .

(٤) الكديد (بكسر أوله وثانيه) موضع بالحجاز على بعد اثنين وأربعين ميلاً من مكة بين عسفان وأمج (مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٥٢) .

(٥) بنو الملوح (بفتح اللام وتشديد الواو) بطن من بنى ليث بن بكر من بنى عبد مناة .

(٦) بنو ليث بطن من كنانة . وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . كانوا يقيمون بالقرب من الحرم .

المعركة إلى ديار بنى الملوح .

فكون كتيبة من أصحابه وأسند قيادتها إلى غالب بن عبد الله الذى كان قد قاد عدة حملات تأديبية ناجحة ضد الأعراب الوثنيين فى العهد النبوى .

وكما هى أوامر الرسول ﷺ تحركت هذه الدورية من المدينة فى شهر صفر . ولما وصل غالب بن عبد الله برجاله إلى قديد[1] على الساحل الغربى للجزيرة فى جنوب الحجاز . التقت طليعة السرية برجل اسمه الحارث بن مالك بن البرصاء فألقت عليه القبض خشية أن يكون جاسوسا للعدو .

اعتقلوه تحفظاً . وهو مسلم

وعندما ألقت الطليعة القبض على الحارث بن مالك .. احتج على اعتقاله لأنه إنما جاء يريد الإسلام . ولكن قائد السرية . لم يكذبه . ولكنه أمر بالتحفظ عليه زيادة فى الاحتياط قائلا : لا يضرك رباط ليلة إن كنت تريد الإسلام .. ثم أمر القائد بأن يشد الرجل وثاقاً . ويترك فى حراسة أحد رجال السرية وهو سويد بن صخر[2] . وأمر غالب سويدا بأن يضرب عنق الحارث إن نازعه . حيث قال له : إن نازعك فاحتز رأسه .

وقد وصف أحد أفراد هذه الدورية الحربية تحركات رجالها ناحية الكديد فقال :

ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس . فكمنا ناحية الوادى فبعثنى أصحابى ربيئة لهم فخرجت فأتيت تلا مشرفا على الحاضر[3] يطلعنى عليهم . حتى أسندت فيه وعلوت على رأسه ثم انبطحت ، فوالله إنى لأنظر إذ خرج رجل منهم من خباء له فقال لامرأته والله إنى لأرى على هذا التل سوادا ما رأيته عليه صدر يومى هذا . فانظرى إلى أوعيتك لا تكون

---

(١) قديد موضع فى الحجاز قرب ساحل البحر وهو قريب من مكة . قاله فى مراصد الاطلاع .

(٢) هو سويد بن صخر الجهنى قال فى الإصابة .. ذكر الطبرى أنه أحد الأربعة الذين يحملون ألوية جهينة وشهد الحديبية .

(٣) الحاضر غير البادى . وهو المقيم فى مدينة أو قرية .

الكلاب أخذت منها شيئا ، فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتى شيئا فقال : ناولينى قوسى ونبلى ! فناولته قوسه وسهمين معهما . فأرسل سهما . فوالله ما أخطأ به جنبى فانتزعته فوضعته وثبت مكانى ، ثم رمانى الآخر فخالطنى به أيضا . فأخذته فوضعته وثبت مكانى فقال لامرأته : والله لو كان زائلة[1] لتحرك بعد . لقد خالطه سهماى لا أبالك إذا أصبحت فاتبعيهما لا تمضغهما الكلاب . ثم دخل خباءه وراحت ماشية الحى من إبلهم وأغنامهم فحلبوا وعطنوا[2] ، فلما اطمأنوا وهدأوا شننا عليهم الغارة فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية واستقنا النعم والشاء . فخرجنا نحدر قبل المدينة حتى مررنا بأبى البرصاء فاحتملناه . واحتملنا صاحبنا . وخرج صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به . ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادى . وهم موجهون إلينا . فجاء الله الوادى من حيث شاء بماء ملأ جنبيه . وأيم الله ما رأينا قبل ذلك سحاباً ولا مطراً . فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا وقد أسندنا فى المشلل[3] وفتناهم . فهم لا يقدرون على طلبنا . فما أنسى رجز أميرنا غالب .

أبى أبو القاسم أن تعز بى ... وذاك قول صادق لم يكذب
فى خَضَلِ[4] نباته مغلو لب ... صفر أعاليه كلون المُذْهب[5].

— ١١ —

بعثة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح . شهر ربيع الأول سنة ثمان للهجرة

وفى ربيع الأول من سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير مع أربعة عشر رجلا من أصحابه إلى ناحية الشمال خلف وادى

---

(١) الزائلة . قال فى نهاية غريب الحديث : كل شيء من الحيوان يزول عن مكانه ولا يستقر .
(٢) عطنت الإبل : إذا سقيت وبركت عند الحياض لتعاد إلى الشرب أخرى . كذا قال فى النهاية .
(٣) المشلل . ثنية مشرفة على قديد .
(٤) الخضل : النبات الأخضر .
(٥) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٢ .

القُرى . ولم يذكر أحد من المؤرخين السبب الذى اقتضى بعث هذا العدد القليل إلى مسافة أكثر من ستمائة ميل (حيث وصلت هذه البعثة إلى ذات أطلاح من أرض الشام خارج جزيرة العرب) .

والذى يغلب على الظن أن كعب بن عمير وأصحابه . كانوا بعثة سلمية مهمتها التبشير بالإسلام . كلف رجالها بارتياد الأراضى الشامية .

فقد ذكر المؤرخون أن كعب بن عمير تحرك بأصحابه من المدينة حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام . وهناك وجدوا جمعا من الناس (لم يحدد المؤرخون هويتهم ويظهر أنهم من الغساسنة المتنصرين) وكانوا كثيراً .. فاعتدوا على أصحاب النبى ﷺ فدافع الأصحاب عن أنفسهم وقاتلوا القوم أشد قتال ولكن جميع الصحابة الأربعة عشر استشهدوا . ما عدا واحداً منهم جريح نجا بنفسه أثناء الليل . وتحامل على نفسه حتى أتى المدينة فأخبر النبى ﷺ . وقد كان الذين اعتدوا على كعب بن عمير وأصحابه . كلهم من الفرسان جاءوا إليهم وأخذوهم على حين غرّة . وكان ابن عمير . قد جاء يدعوهم إلى الإسلام . فكان جوابهم على الدعوة أن أمطروه وأصحابه وابلا من سهامهم وهاجموهم حتى أبادوهم .

ولما بلغ رسول الله ﷺ الخبر شق عليه وقرر أن يبعث قوة من أصحابه لتأديبهم . ولكنه عدل بعد أن بلغه أن هؤلاء المعتدين قد تحولوا إلى موضع آخر[1] .

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٢ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٢٧ .

الفصل الثالث

معركة مؤتة[1]

- أسباب المعركة
- النبى يعين قادة ثلاثة للجيش
- أول جيش إسلامى يجتاز حدود الشام
- تعليمات الرسول ﷺ لقادة الجيش
- توقف الجيش فى معان بعد تلقيه معلومات عن ضخامة قوات العدو
- تباين وجهات نظر القادة حول المصادمة
- الاتفاق على مصادمة الرومان
- معركة رهيبة
- مصرع قادة الجيش الإسلامى الثلاثة

---

(١) مؤتة (بضم الميم وواو مهموزة ساكنة) قال ياقوت : قرية من البلقاء فى حدود الشام . وهى من مشارف الشام وبها تطبع السيوف . وإليها تنسب السيوف المشرفية . وإلى ذلك يشير كثير عزة فى شعره :

إذا الناس ساموكم من الأمر خطة　　لها خطمة فيها السمام المشمل
أبى الله للشم الأنوف كأنهم　　صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

- خالد بن الوليد يتولى القيادة بعد هزيمة الجيش
- خالد ينقذ الجيش من خطر الإبادة بمكيدة محكمة
- النبى ﷺ يمنح خالداً أول وأعلى وسام فى الإسلام تقديرا لمهارته فى الانسحاب
- تقييم نتائج معركة مؤتة
- معركة ذات السلاسل امتداد لمعركة مؤتة

كانت فلسطين والبلقاء[1] امتدادا طبيعيا لجزيرة العرب وكانت منطقة الأردن (بصفة خاصة) هى التى تتاخم الحدود الطبيعية لجزيرة العرب من الناحية الشمالية . وكانت الأردن (مثل فلسطين ولبنان) تسمى فى ذلك العهد (بالشام) ضمن ممتلكات الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطا) .

وعندما فكر النبى ﷺ فى الاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط . لدعوتهم إلى الإسلام ونفذ هذه الفكرة كان على رأس هؤلاء الملوك (الملك هرقل ملك القسطنطينية) الذى وصله كتاب النبى ﷺ وهو مقيم بمدينة القدس التى حج إليها على قدميه شكرا لله على انتصاره الذى حققه على جيوش الفرس التى هزمها فى المعارك التى دارت بين الفريقين فى تلك الفترة .

وقد رأينا فيما مضى من هذا الكتاب كيف حاول هذا الإمبراطور العظيم إقناع القساوسة والبطارقة بالدخول فى الإسلام . وكيف اعتنق هو الإسلام (كما يقول اليعقوبى) وكتم إسلامه .

---

(١) البلقاء قال فى مراصد الاطلاع : كورة « أى مقاطعة » بين الشام ووادى القرى قصبتها « أى عاصمتها » عمان . وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة .

الكومنولث البيزنطى

وكان من بين الملوك المرتبطين بتاج بيزنطا داخل ما يسمى بلغة اليوم (الكومنولث) أحد ملوك الغساسنة العظام هو الحارث بن أبى شمر الغسانى . الذى كان مقره الجولان[1] . وكان هذا الملك العربى المتنصر يحكم (باسم الرومان) منطقة الجولان وبُصرى وكل المناطق الممتدة جنوبا حتى حدود جزيرة العرب .

وكان لدى الحارث بن أبى شمر قسط كبير من الاستقلال كما أن لديه قوات حربية من العرب الغساسنة المتنصرين قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف مقاتل .

وكان هؤلاء العرب المتنصرون محاربين ممتازين (كعرب) . وزادهم ميزة أن ارتباطهم بتاج الإمبراطورية البيزنطية أكسبهم الشيء الكثير من الفنون والتنظيمات العسكرية التى يتقنها ويمتاز بها جيش الإمبراطورية الذى ظل عدة قرون يتنازع السيادة على العالم مع جيوش الإمبراطورية الفارسية العريقة هى الأخرى فى السيادة والملك وذات المهارة الفائقة فى القتال .

اغتيال رسول النبى ﷺ إلى ملك بصرى والجولان

وكان النبى ﷺ قد بعث إلى ملك بصرى والجولان الحارث بن أبى شمر الغسانى . بعث إليه أحد أصحابه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام . وهو الحارث بن عمير الأزدى . فاجتاز حدود الشام . وعند قرية (مؤتة) بالبلقاء التقى به شرحبيل بن عمرو الغسانى أحد الأمراء العاملين للملك الحارث بن أبى شمر . فقال شرحبيل لرسول النبى ﷺ : لعلك من رسل محمد ؟ قال نعم : فأوثقه شرحبيل رباطا ثم ضرب عنقه صبرا .

فقد روى الواقدى بسنده عن عمر بن الحكم . قال : بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى ، إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة

---

(١) الجولان « بفتح الجيم » قال ياقوت : جبل فى الشام ناحية حوران .. وكان موطن ملوك الغساسنة المرتبطين بالإمبراطورية البيزنطية .

عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى . فقال : أين تريد ؟ الشام قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم أنا رسول رسول الله ﷺ . فأمر به فأوثق رباطا ، ثم قدّمه فضرب عنقه صبرا ، ولم يُقتَلْ لرسول الله ﷺ رسول غيره فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فاشتد عليه[1] .

اغتيال ١٥ من الصحابة على يد المرتزقة العرب فى الشام

يضاف إلى ذلك أن جنودا من العرب المتنصرة التابعين للكومنولث البيزنطى . قد اعتدوا على بعثة سلمية دخلت أرض الشام تدعو العرب إلى الإسلام . فقتلوا جميع أفرادها غدرا فى ذات الطلح كما مر تفصيله فيما مضى من هذا الكتاب .. وكانت المنطقة التى قتل فيها الصحابة (وعددهم أربعة عشر) تقع جنوب الشام فى البلقاء من الأردن ضمن ممتلكات التاج البيزنطى .. وهى منطقة يحكمها الحارث بن أبى شمر الغسانى باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

ويظهر أن كل هذه الاعتداءات الغادرة على أصحاب النبى ﷺ — بالإضافة إلى تهديد ملك غسان المتنصر الحارث بن أبى شمر — المسلمين بالغزو حيث روى عنه أنه قال — بعد أن قتل رجال استخباراته صاحب النبى ﷺ ورسوله إلى الملك الحارث — إننى سائر إليه (أى النبى ﷺ) يظهر أن كل الاعتداءات والتهديدات بغزو الجزيرة واحتلال المدينة من قبل جيوش الإمبراطورية الرومانية — على يد عميلها الحارث بن أبى شمّر — قد كان السبب الأكبر فى غزوة (مؤتة) .

فهذه الأعمال العدوانية إن سكت عليها المسلمون قد تمنح وزارة الحربية فى القسطنطينية مزيدا من الجرأة على اجتياز حدود الجزيرة العربية لاحتلال عاصمة الإسلام (المدينة) لا سيما وأن القلق أخذ (بصورة جدية) يساور المتعصبين من بطارقة وقادة الإمبراطورية الرومانية على أثر الموقف الإيجابى الذى وقفه الملك (هرقل) من الكتاب الذى وجهه النبى ﷺ إلى هذا الإمبراطور يدعوه فيه وشعبه إلى الدخول فى الإسلام .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٦ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٦ .

فقد كانت تصرفات ملوك العرب المتنصرة المرتبطين بالتاج البيزنطى فى جنوب وأواسط الشام وتصرفات أركان الإمبراطورية من الرومان ـــ تشم منها رائحة العزم على القيام بغزو كاسح لاحتلال المدينة والجزيرة كلها . وجعلها إقليما جديدا تابعا للقسطنطينية . لا سيما وأن الجيش الرومانى كان (إذ ذاك) يعيش نشوة انتصاره الساحق على جيوش الإمبراطورية الفارسية التى استعاد منها « بقيادة الإمبراطور هرقل » كل ما كان الفرس قد اغتصبوه من ممتلكات إمبراطورية بيزنطا .

القرار الخطير

لذلك « والله أعلم » رأى النبى ﷺ أن لابد من تجريد حملة عسكرية كبيرة تطأ أرض الشام غازية لتأديب أولئك الغادرين من العرب المتنصرة الدائرين ضمن فلك « الكومنولث البيزنطى » وليثبت المسلمون « عمليا » للسادة الرومان أنفسهم أن جزيرة العرب أمنع وأحصن من أن يفكر هؤلاء الرومان أو أعوانهم من الغساسنة فى اجتياز حدودها .

ولتحقيق هذا الغرض استنفر النبى ﷺ ثلاثة آلاف من خيرة أصحابه للحرب . ولم يبين الغرض من هذا الحشد والاستنفار حتى خرج الجيش من المدينة وعسكر بالجرف[1] على بعد عدة أميال من المدينة . وهناك أخبر الجيش وقادته بأن عليهم أن يجتازوا حدود الجزيرة ويطأوا أرض الشام ويقاتلوا فيها أعداء الإسلام الذين غدروا بأصحابه[2] .

تعيين قادة الجيش

وفى منطقة الجرف حيث عسكر الجيش ، أصدر النبى والقائد الأعلى للجيش مرسوماً شفوياً ، عين بموجبه قادة ثلاثة للجيش يتولون القيادة

---

(١) الجرف (بالضم ثم السكون) قال فى مراصد الاطلاع : موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، نحو الشام . بها كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة . والجرف أيضاً موضع بالحيرة فى العراق . والجرف أيضاً موضع قرب مكة . كانت به وقعة بين هذيل وسليم . والجرف أيضاً موضع ناحية اليمامة . والجرف أيضاً موضع باليمن (مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٢٦) .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٦ ومغازى الواقدى ص ٧٥٦ .

بالتناوب الواحد بعد الآخر وهم « جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة » .

فقد قال الرسول ﷺ فى مرسومه : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة .

ثم أمر أن تكون مسألة قيادة الجيش بعد هؤلاء الثلاثة شورى بين وجوه القبائل وقادة الكتائب ، لينتخبوا من يرتضونه قائدا عاما . فقال ﷺ : فإن قتل عبد الله بن رواحة ، فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم[1] .

معارضة جعفر تقديم زيد عليه فى القيادة

وقد أبدى جعفر بن أبى طالب ما يمكن تسميته مراجعة لرسول الله ﷺ فى تقديم زيد عليه فى قيادة الجيش . فقد روى الحافظ البيهقى أن جعفر حين صدر مرسوم التعيين وثب وقال : يا رسول الله ، ما كنت أرغب أن تستعمل زيد على قال ﷺ : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير . فامتثل زيد ومضى .

تحرك الجيش يوم الجمعة .. وفضل الجهاد

وقد روى الإمام أحمد أن تحرك الجيش إلى « مؤتة » كان يوم الجمعة قبل الصلاة . وأن عبد الله بن رواحة بعد مرابطة الجيش فى ضواحى المدينة بالجرف . تخلف فى المدينة ليصلى الجمعة مع النبى ﷺ فنبهه النبى ﷺ إلى أن الجهاد فى سبيل الله أفضل شيء يقوم به المسلم .

فقد قال النبى ﷺ لابن رواحة — حين رآه تخلف عن الجيش — ما خلفك ؟ قال : أجمع معك ، فقال الرسول ﷺ : « لغدوة أو روحة خير من الدنيا وما فيها » .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤١ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٥ .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس . أن النبى ﷺ قال لابن رواحة : « ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ » فقال : أردت أصلى معك الجمعة ، ثم ألحقهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما أدركت غدوتهم » وهذا الحديث ــ أيضا ــ رواه الترمذى .

تاريخ تحرك الجيش إلى مؤتة وعدد قواته

وكان عدد الجيش الذى تم حشده للتحرك إلى (مؤتة) ثلاثة آلاف مقاتل وكان تحركه يوم جمعة من شهر جمادى الأولى عام ثمان للهجرة .

روى ذلك ابن إسحاق . قائلا : بعد عمرة القضية . أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذى الحجة ــ وولى تلك الحجة المشركون ــ والمحرم وصفرا وشهرى ربيع ، وبعث فى جمادى الأولى بعثة إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة وقال : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير . قال : بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى من سنة ثمان .

عبد الله بن رواحة يستوصى من الرسول ﷺ ويتمنى الشهادة

كان القائد الثالث عبد الله بن رواحة من الزهاد العابدين وكان مع ذلك شاعرا مجيدا . وعندما ودّع النبى ﷺ والمسلمون الجيش . قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، مرنى بشىء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غدا بلداً ، السجود فيه قليل ، فأكثر السجود . قال عبد الله : زدنى يا رسول الله . قال : اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب . فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع إليه فقال : يا رسول الله إن الله وتر يحب الوتر . قال : يابن رواحة ، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشرا أن تحسن واحدة . فقال ابن رواحة . لا أسألك عن شىء بعدها[1] .

القائد عبد الله بن رواحة يبكى خوف النار

وروى ابن إسحاق . أن القائد عبد الله بن رواحة لما ودع مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى . فقالوا : ما يبكيك يابن رواحة ؟ .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٨ .

فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾[1] ، فلست أدرى كيف لى بالصدور بعد الورود ، فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين .

فقال عبد الله بن رواحة : يتمنى الشهادة .

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا[2]
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا[3]
حتى يقال إذا مروا على جدثى[4] أرشده الله من غاز فقد رشدا

ثم أتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ — وقد تهيأ الجيش للخروج فودعه ثم قال : يخاطب الرسول ﷺ .

فثبّت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذى نظروا
أنت الرسول فيمن يُحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر[5]

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودّعته في النخل خير مشيع وخليل[6]

---

(١) سورة مريم / آية ٧١ .
(٢) ذات فرع .. ذات سعة . والزبد هنا ، رغوة الدم .
(٣) مجهزة (بضم الميم وسكون الهاء وكسر الزاى) سريعة القتل .
(٤) الجدث (بفتح أوله وثانيه) القبر . وكذلك الجدف .
(٥) نافلة : هبة من الله تعالى ، وعطية منه والنوافل العطايا . وأزرى به القدر . قال أبو ذر : قصر به .
(٦) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٥ — ١٦ .

مقالة أحد أحبار اليهود فى تعيين القادة

وذكر الواقدى فى مغازيه أن النعمان بن فنحص اليهودى كان حاضرا ساعة عيّن النبى ﷺ قادة الجيش على تلك الصيغة فقال : (أبا القاسم إن كنت نبيا فسميت من سميت قليلًا أو كثيراً أصيبوا جميعا . إن الأنبياء فى بنى إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا : إن أصيب فلان . فلو سُمى مائة أصيبوا (أى قتلوا جميعا) ثم جعل اليهودى يقول لزيد بن حارثة : اعهد (أى أوص) فلا ترجع إلى محمد أبدا . إن كان نبيا ! . فقال زيد : فأشهد أنه نبى صادق بار .

خالد بن الوليد يغزو لأول مرة مع المسلمين

وكان خالد بن الوليد الفارس المشهور . جندياً ضمن هذا الجيش . فقد استنفر النبى ﷺ المسلمين فى هذا الجيش . وخالد لم يمض على دخوله فى الإسلام سوى ثلاثة أشهر . فمعركة مؤتة الطاحنة هذه . هى أول معركة يشترك فيها خالد بن الوليد مجاهداً فى سبيل الله . وعندما قتل القادة الثلاثة فى المعركة (كما سيأتى) أسند وجوه الجيش قيادته إلى خالد . فقام بعملية انسحاب بارعة دلت على مهارته الحربية الفائقة . وقد أعطاه النبى ﷺ على نجاحه فى الانسحاب بجيشه بانتظام ودونما خسارة تذكر . لقب سيف الله . وهو أول وسام يمنح لقائد فى تاريخ الإسلام .

النبى يخطب فى الجيش ويضع أعدل وأشرف قانون حرب فى التاريخ .

وبعد تعيين القادة على الجيش . ألقى النبى ﷺ فى الجيش خطابا تضمن أرقى قانون للحرب العادلة ، قانون عجزت — حتى الآن — كل النظم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف فى معاملة الأعداء واجتناب الأعمال اللاإنسانية من التعرض للنساء والأطفال والعجزة ورجال الدين بأى نوع من أنواع الأذى . ولأهمية هذا الخطاب الذى يعد أعظم دستور عادل للحروب العادلة . نورد نصه كاملا .

فقد قال النبى ﷺ لجيشه قادة وجنودا فى هذا الخطاب « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا . اغزوا بسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا . ولا تقتلوا وليدا » .

ثم وجه كلامه إلى القائد العام والمسئول الأول فى الجيش قائلا : وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث . فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم . ادعهم إلى الدخول فى الإسلام . فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين . يجرى عليهم حكم الله . ولا يكون لهم فى الفىءولا فى القسمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن فعلوا فاقبل منهم . واكفف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين للناس فلا تتعرضوا لهم . وستجدون آخرين للشيطان فى رؤوسهم مفاحص[1] فاقلعوها بالسيوف . ولا تقتلن امرأة ولا صغيرا مرضعا ولا كبيرا فانيا . لا تغرقن نخلا ولا تقطعن شجرا ولا تهدموا بيتا[2] .

وقفة عند دستور الحرب الرائع

فيا لروعة الإيجاز مع الشمول الكامل .. توصيات فى الآداب الحربية .. ودروس فى الشرف العسكرى . وأسس راسخة فى المعاملة الإنسانية والرأفة بغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال .. وتربيات عالية شريفة ما سمعت ولا وعت أمة مثلها منذ فجر التاريخ حتى اليوم من غير سيد البشر محمد ﷺ .

---

(١) قال فى نهاية غريب الحديث : المفحص مفعل من الفحص ، ومفحص القطاة موضعها الذى تجثم فيه وتبيض ، أى أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص ، كما تستوطن القطاة مفاحصها .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٨ .

إن أرقى الأمم فى العهد الحاضر لا تزال فى مجال محاولتها الالتزام بقانون الشرف العسكرى ، لا تزال تحبو حبوا إذا ما قسنا محاولتها بما وضعه الرسول ﷺ فى خطبته هذه من قواعد راسخة لقانون الشرف العسكرى الذى بموجبه فرض الإسلام على المحارب المسلم أن يعامل به أعداءه فى ظروف الحرب .

تصرف المسلم حجة للإسلام أو عليه

لقد كان تطبيق صحابة محمد لهذا الدستور الحربى من أعظم الأسباب التى حببت الإسلام إلى نفوس غير المسلمين . فدخلوا فيه طائعين مختارين فرحين مستبشرين . لأنهم رأوا حقيقة الإسلام متمثلة فى سلوك أولئك الأصحاب الكرام . الذين ربّاهم القرآن وأدبهم الرسول الكريم ﷺ .

وهكذا فالمنتسب إلى الإسلام (بسلوكه) يستطيع أن يسىء أو يحسن إلى هذا الدين ، أمام من لا يعرفه على حقيقته .

المسلمون يودعون الجيش

وقد عقد الرسول ﷺ اللواء لقائد الجيش وكان لونه أبيض . ووقف المسلمون يودعون الجيش ويدعون لهم قائلين دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين .

وهكذا فصل من المدينة ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة المحاربين المسلمين . وهو أكبر جيش يجتمع للنبى ﷺ تحت قيادة واحدة حتى ذلك اليوم .

جواسيس الرومان فى المدينة يبلغونهم نبأ الغزو

وكان قادة الجيش يحاولون (كما هى طريقة الرسول) الكتمان وأخذ الأعداء فى الشام على حين غرة . ولكن يظهر أن الطابور الخامس من اليهود والمنافقين فى المدينة . قد طيروا خبر حشد المسلمين وتحركهم نحو الشام ليأخذوا حذرهم .

استخبارات الرومان فى شمال الجزيرة

وكان شرحبيل بن عمرو الأزدى . عاملا للرومان على مناطق الشام الجنوبية المتاخمة للجزيرة العربية . فكان أول من تلقى من جواسيس الرومان فى المدينة أنباء تحركات الجيش النبوى . فبعث إلى الرومان من يخبرهم خبر تحرك المسلمين نحو الشام . ثم أخذ فى حشد الجيوش من القبائل الموالية للرومان فى جنوب الشام . وفى الوقت نفسه بعث أخاه سدوس طليعة مع بعض رجاله ، يستكشفون له خبر الجيش الإسلامى .

أما جيش الإسلام فقد واصل تحركه حتى نزل وادى القرى فاستراح به أياما ، ثم واصل تحركه نحو الشمال .

مقتل أخى قائد الأعداء

وقد التقت طلائع الاستكشاف فى الجيش الإسلامى بسدوس وفصيلة استخباراته فاشتبكت معهم داخل الجزيرة (وهم يقومون بالتجسس على ما يظهر) فتمكن المسلمون من قتل سدوس . أخى القائد العميل لروما ن (شرحبيل بن عمرو الذى أعدم رسول النبى ﷺ) .

فخاف شرحبيل خوفا شديدا (بعد مقتل أخيه) وتحصن . ثم طلب النجدة من القيادة الرومانية العليا التى كانت موجودة مع الأمبراطور (هرقل) فى بيت المقدس . فسارعت هذه القيادة إلى نجدة شرحبيل بن عمرو بقوات كثيفة جداً .

عدد الجيش الرومانى

وذكر الواقدى أن الرومان قد حشدوا لملاقاة المسلمين مائة ألف مقاتل كلهم من مرتزقة العرب المتنصرة (بلى وبهراء ووائل وبكر ولخم وجذام) وغسان وإن مكان تجمع هؤلاء المرتزقة كان بلدة (مآب)[1] وكان قائدهم

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٠ .

رجلا يقال له : مالك . وهو من قبيلة بلى[1] .

هل الملك هرقل هو الذى قاتل المسلمين فى مؤتة

كما أن الرومان أنفسهم قد حشدوا « لمقاتلة المسلمين » أيضا مائة ألف رومانى احتشدوا تحت قيادة الإمبراطور « هرقل نفسه » الذى عسكر هو الآخر فى بلدة « مآب »[2] . وبعض المؤرخين يذكرون أن الذى زحف بالمائة الألف الرومانى لملاقاة المسلمين هو تيودور أخو الإمبراطور « هرقل » وهذا أقرب إلى الصواب . لأن الملك « هرقل » تدل تصرفاته « منذ جاءه كتاب النبى ﷺ » على أنه لا يرى مقاومة المسلمين . وإنما يرى الدخول فى دينهم أو إعطاءهم الجزية . كما جاء ذلك مفصلاً فى تاريخ الطبرى .

توقف المسلمين فى معان للتشاور

أما الجيش الإسلامى . فقد واصل التحرك من وادى القرى فاجتاز حدود الجزيرة عند تبوك وتوغل فى أراضى الشام حتى وصل بلدة « معان » من إقليم البلقاء فى الأردن . وهناك تلقى القائد العام زيد بن حارثة تقريراً من استخباراته العسكرية التى كان قد بعث بها إلى أرض العدو للحصول على المعلومات اللازمة .. وفى هذا التقرير رأى أن الرومان يتحركون فى مائتى ألف مقاتل تسندهم عشرات الآلاف من سلاح الفرسان وأن مكان تجمعهم هو منطقة مآب .

وعند الإحاطة بهذا التقرير الخطير قفز أمام القائد العام سؤال : (هل يمكن لثلاثة آلاف مقاتل أن يصمدوا ويثبتوا فى وجه مائتى ألف مقاتل . فضلا عن أن يهزموهم ويتغلبوا عليهم) .

ولم يتسرع القائد العام المسئول عن هذا الجيش الصغير فى الإجابة على

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ، ص ٣٧ .

(٢) قال البقاعى فى مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢١٦ : مآب (بوزن معاب) مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء .

هذا السؤال . بل — ليسمع الإجابة القاطعة على هذا السؤال الخطير — دعا جميع أمراء الجيش وقادة الكتائب ورؤساء القبائل إلى اجتماع عاجل لبحث هذا التطور الخطير الذى لم يكن منتظرا .

المجلس العسكرى فى معان

وفى هذا المجلس العسكرى الذى حضره كل قادة الجيش عرض القائد العام كامل التفاصيل التى نقلها إليه جهاز اختباراته العسكرية عن مدى قوة العدو ومكان تجمعه . وطلب منهم فى هذا المجلس أن يتخذوا قرارا حاسما لمواجهة الموقف الخطير . فالرومان ومن تابعهم من المرتزقة قد احتشدوا فى جيش لجب جرار قوامه مائتا ألف مقاتل ، بينما جيش الإسلام لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .

اختلاف قادة الجيش فى معان

وأثناء اجتماع قادة الجيش الإسلامى لبحث الموقف انقسم القادة إلى قسمين .

قسم يرى التريث وعدم مصادمة الرومان حتى يشعروا النبى ﷺ بحقيقة الوضع الحرج الذى يواجهونه ويطلبوا منه المدد . ويستأذنوه فى مصادمة هذه الجيوش الهائلة . لأن هذا الفريق يرى أن اشتباك ثلاثة آلاف فى معركة حاسمة مع مائتى ألف مقاتل يمثل أخطر مغامرة فى تاريخ الحروب . ولهذا رأى التأنى والتريث حتى يأتى القول الفصل من النبى والقائد الأعلى للجيش فى المدينة .

أما الفريق الثانى . فقد كان يرى المضى والإسراع بمصادمة العدو (أياً كانت النتائج) أليس كلا الأمرين (النصر أو الشهادة) فوز للمسلم المجاهد فى سبيل الله ؟ . فلتكن المصادمة إذاً . فالفوز مضمون حسب مقاييس مفهوم الجهاد عند المسلمين .

وكان النائب الثانى للقائد العام (عبد الله بن رواحة الأنصارى) على

رأس الفريق من القادة المتحمسين للصدام الفورى مع العدو دون استطلاع رأى القيادة العليا فى المدينة أو حتى انتظار المدد منها .

لأن هذا الفريق يرى أن الرومان وحلفاءهم ومرتزقتهم (وقد أصبحوا على مقربة منهم) لن يتركوا المسلمين حتى يتصلوا بالمدينة . بل سيهاجمونهم بأسرع ما يمكن . لا سيما وأن الجيش الإسلامى قد أصبح متوغلا مسافة أكثر من خمسين ميلاً داخل الشام . التى يعتبرها الرومان إحدى ممتلكات إمبراطوريتهم العظيمة التى ترى نفسها أقوى دولة فى العالم .

وكان المنطق (من الناحية العسكرية) إلى جانب الفريق الثانى . لأن جيش الإسلام وقد أصبح على مسافة قريبة من مكان تجمع الجيوش الرومانية — يحتم عليه الظرف العسكرى الخطير القائم القيام بأحد أمرين لا ثالث لهما .

إما التراجع والعودة إلى جزيرة العرب دون أن يلقى المسلمون عدوهم .. وهذا ما لا يمكن فعله أبداً لأنه ليس فى تعليمات القائد الأعلى النبى شىء يمكن الاستناد إليه لتبرير هذا التراجع .

وإما الصدام الفورى مع الرومان الذين إن لم يسارع المسلمون إلى مصادمتهم سيقومون « هم » بالهجوم على المسلمين حيث توقفوا فى مدينة معان .

اتفاق أركان الجيش على مصادمة الرومان

وبعد نقاش وبحث ومداولة بين هيئة أركان حرب الجيش إستمرت فى معان يومين كاملين . مالت الأكثرية من هيئة الأركان إلى الأخذ بالرأى الداعى إلى الصدام الفورى دونما الرجوع إلى المدينة لتلقى التعليمات منها من جديد .

وكان لموقف النائب الثانى للقائد العام « عبد الله بن رواحة الأنصارى » الأثر الأكبر فى اتخاذ هيئة أركان الجيش قراراً حاسماً إجماعياً . بمصادمة الجيوش الرومانية صداما فوريا ودونما أىّ تردد .

كلمة ابن رواحة في اجتماع هيئة الأركان

ففى اليوم الثانى وفى آخر جلسة لأمراء الجيش ورؤساء القبائل وقف عبد الله بن رواحة الأنصارى شارحا وجهة نظره وداعيا الناس إلى عدم التردد فى الصدام الفورى مع العدو فقال : « يا قوم إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان . ويوم أحد فرس واحد . فانطلقوا بنا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك الذى وعدنا نبينا . وليس لوعده خلف وإما الشهادة . فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان[1] .

ورغم ما فى دعوة القائد عبد الله بن رواحة من مغامرة خطيرة فقد أثرت كلماته البليغة فى نفوس الجيش وأثارت حماسهم فوافقه جميع الأمراء والقادة قائلين : صدقت وهكذا أجمعوا على الأخذ بالرأى القائل بمصادمة الجيوش الرومانية مهما كانت النتائج .

وعقب هذا القرار الذى اتخذته هيئة أركان حرب الجيش الإسلامى فى « معان » أصدر القائد العام زيد بن حارثة أوامره إلى فرق الجيش وكتائبه بالتحرك لملاقاة الرومان والعرب المتنصرة فى البلقاء من أرض الشام .

وفى الوقت نفسه كان الرومان والعرب المتنصرة يتحركون بقواتهم الهائلة لملاقاة المسلمين ومهاجمتهم بقيادة القائد تيودور أخى الإمبراطور .

وقد التقى المسلمون بجموع الرومان والعرب المتنصرة عند تخوم البلقاء . حيث وجدوا الرومان معسكرين فى قرية من قرى البلقاء يقال لها : مشارف .

وصف أئمة التاريخ ما حدث فى معان من اختلاف وجهات النظر

قال المقريزى فى كتابه « إمتاع الأسماع ص ٣٤٧ » : ومضى المسلمون ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٧ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٠

وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير وسمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم . فقام رجل من الأزد يقال له : شرحبيل بن عمرو الغسانى . وقدم الطلائع أمامه ، وبعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين فلقوا المسلمين بوادى القرى فقاتلوه وقتلوه ونزلوا معان من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل « مآب » من البلقاء فى مائة ألف من الروم ، ومعه من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف » عليهم رجل من بلى يقال له مالك « بن رافلة » .

فأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن يكتبوا إلى الرسول ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالا ، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ويوم أحد فرس واحد ، فإنما هى إحدى الحسنيين .. إما ظهور « أى نصر » عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا ، وليس لوعده خلف وإما الشهادة فنلحق بالإخوان في الجنان فشجع الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والكراع ، والديباج ، والحرير ، والذهب . قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصرى فقال ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة مالك ؟ كأنك ترى جموعا كثيرة . قلت : نعم ، قال : لم تشهدنا ببدر ، إنا لم ننصر بالكثرة .

وعن ابن إسحاق « فى سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٧ وما بعدها » ثم مضى « أى المسلمون » حتى نزلوا معان فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض الشام فى مائة من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة ، يقال له : مالك بن رافلة .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال . وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضى له .

فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا بنا فإنما هى إحدى الحسنيين . إما ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة . فمضى الناس . فقال عبد الله بن رواحة فى محبسهم ذلك .

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ... تغرّ من الحشيش لها العكوم[1]
حذوناها من الصوان سبتا ... أزلّ كأن صفحته أديم[2]
أقامت ليلتين على معَان ... فأعقب بعد فترتها جموم[3]
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس فى مناخرها السموم[4]
فلا وأب مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب وروم[5]
فعبأنا أعنتها فجاءت .. ... عوابس والغبار لها بريم[6]
بذى لجب كأن البيض فيه ... إذا برزت قوانسها النجوم[7]
فراضية المعيشة طلقتها ... أسنتها فتنكح أو تئيم[8]

(١) أجأ : أحد جبلى طى ، والآخر سلمى ، وفرع (بفتح الفاء وسكون الراء) : موضع من وراء الفرك . وقال ياقوت : الفرع أطول جبل بأجأ وأوسطه . وتغر : تطعم شيئاً بعد شيء . والعكوم : جمع عكم (بفتح العين) وهو الجنب .

(٢) حذوناها . قال أبو ذر : جعلنا لها حذاء ؛ وهو النعل . والصوان حجارة ملساء واحداتها صوانة . والسبت : النعال التى تصنع من الجلود ، يصون حوافرها .

(٣) فترتها (أى ضعفها) وفترت الرجل ، إذا أصيبت بالخدر . والجموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .

(٤) مسومات : مرسلات . والسموم (بفتح السين) : الريح الحارة .

(٥) مآب : اسم مدينة فى أطراف الشام ناحية الجنوب من نواحى البلقاء .

(٦) قال أهل اللغة : البريم (بفتح الباء وكسر الراء) هو فى الأصل : خيطان أحمر وأبيض تشدهما المرأة على وسطها وعضدها ، وكل ما فيه لونان مختلفان فهو بريم أيضاً . يريد ما علا الخيل من غبار فخالط لونه لونها .

(٧) ذى لجب : أى جيش : واللجب اختلاط الأصوات وكثرتها ، والبيض ما يوضع على الرأس من الحديد للحرب ، والقوانس جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .

(٨) تئيم : تبقى دون زوج . يقال : آمت المرأة إذا لم تتزوج . كذا قال أبو ذر .

وقال الأشخر اليمنى فى بهجة المحافل « ج ١ ص ٣٩٠ » : روينا فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر . قال أمّر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وقال : إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت معهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ووجدنا فى جسده بضعا وتسعين ما بين طعنة ورمية ، وكان من خبرهم فى غزوتهم أنهم لما بلغوا « معان » بلغهم أن هرقل نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة ــ لخم وجذام والقين وبهراء وبلى ــ وكان المسلمون ثلاثة آلاف ، فتشاوروا أن يراجعوا رسول الله ﷺ فيأمرهم بأمره فشجع الناس عبد الله بن رواحة . وقال : يا قوم إنما هى إحدى الحسنيين إما نصر وإما شهادة . فقال الناس : صدق عبد الله فمضوا حتى التقوا بمؤتة .

وقال ابن سعد فى الطبقات الكبرى « ج ٢ ص ١٢٨ » : فلما فصلوا « أى المسلمون » سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو ، فجمع أكثر من مائة ألف وقدّم الطلائع أمامه ، وقد نزل المسلمون « معان » من أرض الشام وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام . فأقاموا ليلتين لينظروا فى أمرهم وقالوا : نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضى ، فمضوا إلى مؤتة ووافاهم المشركون فجاء ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب فالتقى المسلمون والمشركون .

وقال الواقدى : فى كتابه المغازى « ج ٢ ص ٧٥٩ » : ومضى المسلمون من المدينة ، فسمع العدو بمسيرهم قبل أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير . فلما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا الجموع . وقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل ، بالناس . وقدم الطلائع أمامه ، وقد نزل المسلمون وادى القرى ، وأقاموا أياما ، وبعث أخاه سدوس ، وقُتل سدوس وخاف شرحبيل بن عمرو فتحصن ، وبعث أخا له يقال له وبر بن عمرو . فسار المسلمون حتى نزلوا أرض « معان » من أرض الشام . فبلغ الناس أن

هرقل قد نزل « مآب » من أرض البلقاء فى بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام فى مائة ألف عليهم رجل من بلى يقال له مالك ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا ليلتين لينظروا فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فإما يردنا وإما يزيدنا رجالاً . فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم ابن رواحة فشجعهم ثم قال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد . ولا بكثرة سلاح . ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد ، وإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان فشجع الناس على مثل قول ابن رواحة .

تحصن المسلمين فى مؤتة

لا شك أن قائد جيش المسلمين زيد بن حارثة وهيئة أركان حربه (بعد أن بلغهم عدد الجيش الرومانى ومسانديه من العرب المتنصرة) وقد وضعوا فى حسابهم (وهم يرسمون الخطة للمعركة) أسلوب التطويق الذى قد يلجأ إليه القائد الرومانى (تيودور) ليسهل عليه القضاء على المسلمين إما بإبادتهم أو إجبارهم على الاستسلام .

وفى حساب المقاييس الحربية العادية المجردة ليس من الصعب بل من أيسر الإجراءات ــ على مائتى ألف مقاتل مجهزة أحسن تجهيز ومسلحة أحسن تسليح . أن تقوم بتطويق ثلاثة آلاف وإبادتها عن آخرها . أو إجبارها على الاستسلام .. ذلك منطق عسكرى لا غبار عليه .. وذلك دونما شك هو الذى على أساسه يكون القائد الرومانى (تيودور قد وضع خطته للمعركة التى ما كان يتصور أنها ستدوم أكثر من ساعة أو بعض ساعة ــ يتم فيها لجيشه العرمرم اللجب (مائتى ألف مقاتل) أن يمحو من الوجود جيش المسلمين الصغير جدا (ثلاثة آلاف مقاتل) .

ولا أعتقد أن أحدا يستطيع مناقشة القائد الرومانى (تيودور) عند ما يقرر (سلفا) أن الفناء الكامل لجيش الإسلام فى البلقاء أو الاستسلام حتى

آخر جندى على قيد الحياة هو النتيجة الحتمية للمعركة التى غامر قادة الجيش الإسلامى « وكلمة مغامرة هنا تستوفى كل معانيها » عندما قرروا خوضها . بعد علمهم (مفصلًا) بحقيقة أعداد جيش الرومان الهائلة الغامرة .

ففى الجيش الرومانى ومن يسانده من عرب (الكومنولث البيزنطى) أعنى العرب المتنصرة . ما لا يقل عن خمسين ألف فارس . يتبعهم مائة وخمسون ألف مقاتل من المشاة كلهم غائص فى الحديد يتسربلون أحسن الدروع ويعتمرون أجود الخوذات . فالجيش الرومانى من مختلف الأجناس كان « حتى يوم معركة مؤتة » من أحسن وأكمل جيوش العالم دربة وتسليحا .

ولكى يجنب القائد الإسلامى زيد بن حارثة جيشه الصغير خطر التطويق وقطع خط الرجعة أثناء القتال . انحاز إلى قرية يقال لها « مؤتة » وعسكر فيها لتكون حائلا بين الرومان وبين ما يهدفون إليه من اتباع أسلوب التطويق .. وقد تحصن جيش المسلمين فى قرية مؤتة .

التعبئة للقتال

وبعد الانحياز إلى قرية « مؤتة » والتحصن فيها . قام زيد بن حارثة « القائد العام » بتعبئة جيشه أحسن تعبئة .

وقد جعل القائد زيد على ميمنة الجيش سيداً من سادات بنى عذرة . وهو قطبة بن قتادة ..(١)

---

(١) قال ابن حجر فى الإصابة : قطبة بن قتادة العذرى : ذكره ابن إسحاق فيمن شهد مؤتة وأنشد له فيها شعراً ، وجوز ابن الأثير أن يكون هو قطبة بن قتادة السدوسى ، وفيه قال ابن إسحاق : فالتقى الناس عند قرية يقال له : مؤتة ، وجعل المسلمون على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة ، يقال له : قطبة بن قتادة . وذكر الواقدى بسند له إلى كعب بن مالك عن نفر من قومه قال لما انكشف الناس جعل قطبة بن قتادة يصيح يا قوم يقتل الرجل مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً ، وأنشد شعراً قاله يفتخر بقتله ياسيمة القوم ، وذكر الكلبى هذه القصة نحو هذا ، لكن قال : فقال قتادة بن قطبة وأنشد له الشعر المذكور . اهـ . قلت : وكان قطبة بن قتادة العذرى هذا هو الذى قتل =

وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصارى(١) .

أما القلب فقد تمركز فيه القادة الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة الأنصارى .

حراجة موقف المسلمين بمؤتة

أما جيوش الرومان والعرب المتنصرة والمرتزقة الإغريق . فقد أخذت تتدفق على (مؤتة) حيث يتحصن الجيش الإسلامى أخذت تتدفق فى زهو وخيلاء وغرور . وكأنها أمواج بحر متلاطم . وجيش الإسلام الصغير المرابط فى (مؤتة) كأنه جزيرة صغيرة مهددة بالغرق فى محيط ذلك البحر المتلاطم من الكتائب الرومانية ومسانديها من غير الرومان .

حقاً لقد كانت الحالة (بالنسبة للمسلمين) حالة مخيفة مفزعة تثير الخوف والرعب وتزيغ العقول والأبصار .

ولقد عبر أبو هريرة(٢)ـــ وكان ممن حضروا معركة مؤتة ـــ عبر عن

= قائد قوات العرب المتنصرة فى جيش الرومان (مالك بن رافلة) . قال ابن إسحاق : وقد كان قطبة بن قتادة العذرى ، الذى كان على ميمنة المسلمين ، قد حمل على مالك بن رافلة فقتله . فقال قطبة بن قتادة فى ذلك (شعراً) .

طعنت ابن رافلة بن الأرا ... ش برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمه ... غداة رقوقين سوق النعم

(١) لم يذكر ابن حجر فى الإصابة حين ترجم له ، أكثر من قوله : عباية بن مالك الأنصارى . ذكر ابن إسحاق وقال : إنه كان على ميسرة المسلمين يوم (مؤتة) وقال ابن هشام : يقال له عبادة .

(٢) أبو هريرة : اسمه عبدنهم بن عامر بن عبد ذى الشرى بن طريف بن عتاب بن أبى صعب بن منبه ابن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس . فهو دوسى « ودوس قبيلة عدنانية من قيس عيلان » وقد سمى النبى ﷺ أبا هريرة (عبد الرحمن) لأن اسمه الأول اسم جاهلى وسبب تسميته أبا هريرة أنه ـــ روى الترمذى ـــ كان يرعى غنم أهله ، وكانت له هرة صغيرة قال : فكنت أضعها بالليل فى شجرة ، وإذا كان النهار ذهبت بها معى فلعبت بها فكنونى بها . أسلم أبو هريرة عام سبع من الهجرة . قدم المدينة والرسول ﷺ يحارب اليهود فى خيبر فالتحق به ، وحضر معركة خيبر . أجمع أهل الحديث على أن أبا هريرة أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ . روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ خمسة آلاف وثلاثمائة حديث وكسر . (كذا قاله ابن حزم فى جوامع السير) . وقد =

هذه الحقيقة المفزعة كما ذكره المقريزى الذى قال يصف الموقف الحرج ؟ (فرأوا المشركين — يعنى المسلمين — ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب . قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصرى . فقال ثابت بن أقرم[1] : يا أبا هريرة مالك ؟ . كأنك ترى جموعا كثيرة !! قلت : نعم . قال : لم تشهدنا ببدر إننا لم ننصر بالكثرة[2] .

= طعن أعداء الله الحاقدون على الإسلام فى أبى هريرة . وشككوا الناس فى صحة أحاديثه . وتبعهم على ذلك المرضى بمركب النقص من المفتونين بهم أمثال المسمى (عبد الله القصيمى) وأبو رية ومجلة العربى والتى (منذ قامت وأسست) وهى منبر للطعن فى الإسلام والتشكيك فيه والحط من قدر رجاله (انظر العدد الأول والثانى من هذه المجلة المشبوهة) . ولكن الطعن فى أحاديث أبى هريرة . بل والطعن فى الإسلام ذاته لا يمكن أن يكون ذا أثر فعال على جوهر هذا الدين ومسيرته الظافرة . فالإسلام رغم التجنى عليه والطعن فيه بأقلام ينتسب حاملوها إليه فإنه يشق طريقه بنفسه إلى القلوب التى يدخلها دون تبشير ولا مبشرين .

العودة إلى المنطلق :

كان أبو هريرة من العباد : أخرج أحمد فى مسنده ، أن أبا هريرة وامرأته وخادمه يقسمون الليل (لقيامه) أثلاثاً ، يصلى هذا ثم يوقظ هذا . كان أبو هريرة من ولاة عمر بن الخطاب الموثوقين . فقد ولاه البحرين ، وقدم المدينة ومعه عشرة آلاف درهم . فأجرى عمر التحقيق معه . وقال له : استأثرت بهذه الأموال . فمن أين لك ؟ قال : خيل نتجت أو عطية تتابعت فتحرى الخليفة الفاروق ما قاله أبو هريرة فوجده صحيحاً . ثم دعاه الخليفة ليكون عاملاً له فأبى . فقال عمر : لقد طلب العمل من هو خير منك . قال أبو هريرة : إنه نبى الله ابن نبى الله ، وأنا أبو هريرة بن أميمة ، وأخشى ثلاثاً أن أقول بغير علم أو أقضى بغير حكم ، ويضرب ظهرى ويشتم عرضى وينزع مالى . توفى أبو هريرة عام تسعة وخمسين وله من العمر ثمانون سنة .

(١) هو ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدى بن العجلان البلوى (نسبة إلى بلى) حليف الأنصار . ذكره موسى بن عقبة فى البدريين . أجمع أهل المغازى على أن ثابت بن أقرم استشهد فى عهد الخليفة الصديق . قتله طليحة بن خويلد الأسدى أثناء فتنة ادعائه النبوة . قتله هو وعكاشة بن محصن . عندما كانا يقومان بالاستطلاع لخالد بن الوليد وهو زاحف بجيش الخلافة لخوض معركة بزاخة التاريخية مع حشود المرتدين التى جمعها طليحة بن خويلد . روى أن الخليفة الفاروق ، قال لطليحة (بعد أن تاب وعاد إلى الإسلام) كيف أحبك وقد قتلت الصالحين ، عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ؟ فقال طليحة : أكرمهما الله بيدى ولم يهنى بأيديهما .

(٢) إمتاع الأسماع ص ٣٤٧ . وبرق – بفتح أوله وكسر ثانيه : دهش فلم يبصر وتحير فلم يطرق من فزع وحيرة . والكراع بضم الكاف كناية عن الخيل .

ولا لوم على أبى هريرة (كبشر) أن يصل به الخوف إلى تلك الدرجة من الذهول .. إن الإنسان عندما يقيس الموقف فى « مؤتة » بالمقاييس العسكرية التقليدية . يأخذ العجب منه كل مأخذ : كيف يتورط ثلاثة آلاف مقاتل فى مصادمة مائتى ألف مقاتل يفوقونهم فى كل شيء مادى ؟ .

لقد كان على كل جندى مسلم أن يقاتل فى (مؤتة) سبعين من جنود الجيش الرومانى .

لقد كان بوسع قادة الجيش الإسلامى الصغير أن يعودوا بالجيش إلى المدينة عند ما تلقوا وهم فى (معان) تقارير استخباراتهم العسكرية عن الحشود الرومانية الهائلة تلك . ولو عادوا أدراجهم لما كان عليهم من لوم .. ولكنهم — مع استطاعتهم التراجع دونما قتال — قرروا الاصطدام بالجيش الرومانى . فزحفوا حتى اصطدموا به .

أكبر مغامرة حربية فى التاريخ

حقا إنها لأكبر مغامرة حربية فى التاريخ « دونما جدال » تلك التى أقدم عليها قادة الجيش الإسلامى الصغير فى « مؤتة » .

ففى القوانين والأعراف العسكرية بين الأمم الأخرى يعتبر ما أقدم عليه قادة الجيش النبوى فى « مؤتة » بالشام — ضربا من الانتحار . تعاقب عليه القوانين العسكرية .

فلو أقدم على ما أقدم عليه زيد بن حارثة وهيئة أركان حربه المسئولون فى « مؤتة » قائد عسكرى فى جيش نظامى فى هذا العصر لقدم للمحاكمة العسكرية بتهمة تعريض جنوده لموت محقق . فثلاثة آلاف مقاتل لا تسمح القوانين العسكرية لمن يقودهم أن يواجه بهم مائتى ألف مقاتل . مع قدرته على تجنب هذه المواجهة .

ولكن الحال يختلف بالنسبة للمسلمين « ونعنى المسلمين الذين ينطلقون

فى قتالهم من منطلق مفهوم الجهاد فى الإسلام » وهو المفهوم الذى على أساسه دخل القادة « زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب . وعبد الله بن رواحة » معركة مؤتة . وخاضوا ، أتونها بثلاثة آلاف مقاتل ضد مائتى ألف مقاتل .

فالموت فى سبيل الله هو غاية ما يتمنى المسلم الصادق . لأنه موقن أن موته فى سبيل الله سينتقل به إلى حياة فى الدار الآخرة حيث الخلود فى النعيم الذى لا يمكن وصفه أو تصوره .

ومن هذا المنطلق كانت دعوة عبد الله بن رواحة الذى حث قادة الجيش وشجعهم حينما ترددوا فى « معان » على مصادمة الجيش الرومانى رغم تفوقه الساحق حينما أشار إلى أن موتهم مجاهدين فى سبيل الله إنما يعنى الالتحاق بإخوانهم الشهداء فى جنات النعيم ، وهذا غاية ما يتمنى المسلم فلماذا الخوف والتردد إذن ؟ .

نشوب المعركة الطاحنة

كان القادة الثلاثة لجيش الإسلام (زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب . وعبد الله بن رواحة) فى الصف الأول وفى القلب . وذلك هو الأسلوب المتبع عند المسلمين لخوض المعارك . القائد العام وهيئة أركان حربه (دائما) يكونون فى القلب فى الصف الأول فى مواجهة العدو .

لقد كانت معركة « مؤتة » معركة رهيبة وكان إقدام المسلمين على خوضها مع ذلك التفاوت العظيم . هو (كما قلنا) مخاطرة عظيمة لم يشهد التاريخ مثلها .

وقد دفع المسلمون الثمن غاليا (دونما شك) لهذه المخاطرة .. تمثل هذا الثمن الغالى (بصورة رئيسية) فى مصرع قادة الجيش الرئيسيين الثلاثة

الواحد بعد الآخر . وبأسلوب تمثلت فيه أرقى معانى البطولة واسترخاص الأرواح فى سبيل الله .

لقد صمد المسلمون فى معركة مؤتة صموداً هو أروع ما يصنع الإيمان الصادق . وعلى المرء إذا أراد أن يتبين حقيقة هذا الصمود والفداء .. عليه أن يتصور ثلاثة آلاف مقاتل وهم يصارعون مائتى ألف مقاتل تتدفق كتائبهم الغائصة فى الحديد كما تتدفق أمواج البحر الهادر ، وليس هناك من يواجهها على مشارف قرية « مؤتة » سوى ثلاثة آلاف مقاتل . أكثرهم حاسر من الدروع .

كانت النتيجة مضمونة وهى النصر للرومان ولكن

لقد كانت نتيجة الصدام فى (مؤتة) مضمونة للرومان وهى النصر الساحق بإبادة الجيش الإسلامى إبادة كاملة .. وذلك حسب المقاييس والمفاهيم العسكرية العادية .

فثلاثة آلاف مقاتل (مهما كان المستوى الذى هم عليه من الشجاعة وقوة البأس والصبر عند اللقاء) لا يمكنهم الصمود فى وجه مائتى ألف مقاتل يفوقونهم (مع هذا العدد الغامر) فى كثرة العتاد وجودة التسليح .. بل (حسب هذه المقاييس والمفاهيم) لا يمكنهم الإفلات من قبضة الجيش الرومانى الذى لديه فقط من سلاح الفرسان حوالى خمسين ألف فارس .

ولكن الإيمان وصحة العقيدة والاستبسال فى سبيل الله يعكس المفاهيم ويقلب المقاييس التقليدية للحروب .. فهو يثبت كل مرة أن كثرة العدد ووفرة السلاح — وحتى الإلمام الكامل بالعلوم العسكرية .. التكنولوجيا . (حجة المهزومين أمام شراذم اليهود فى حزيران الأسود) ليس هو الذى يكفل النصر المؤزر الساحق .. وأن عدم توفر كل ذلك للمقاتلين ليس هو (دائما) الذى يصنع الهزائم . وإنما الذى يصنع النصر ويحققه . أو يصنع الصمود الذى يحول دون الهزائم الماحقة (ساعة التفاوت الهائل فى كل

شيء) إنما هو الإيمان .. الإيمان بالله تعالى واستشراب القلوب عقيدة القرآن الوضاءة المشرقة .. لا عقيدة ماركس ولينين الهدامة المظلمة .

إن روعة المقاومة الإسلامية فى معركة « مؤتة » التاريخية . والتى يسرت للمسلمين انسحابا منظما مشرفا بعد ذلك الصدام الهائل المروع . انسحابا يمثل فى واقعه أعلى درجات الانتصار . بالنسبة لظروف المعركة الصعبة . حيث كانت قوات العدو فيها تفوق قوات المسلمين سبعين ضعفا .

روعة صمود العقيدة الإسلامية فى مشارف قرية (مؤتة) تفرض علينا ونحن نئن حتى الآن تحت وطأة عار هزيمة حزيران الفاضحة — أن نلقى نظرة على المعركتين . معركة مؤتة . ومعركة الأيام الستة . ونقوم بالمقارنة العادلة الصحيحة .. وعندها يتبين لنا الدليل الحى الصارخ القاطع على بطلان الادعاءات السخيفة الممجوجة القائلة : إن انتصار إسرائيل على العرب وإلحاقها بهم مجتمعين تلك الهزيمة المدمرة إنما يعود سببه إلى تفوق إسرائيل التكنولوجى . وإلى تمسك العرب ببقايا الإيديولوجية الغيبية (التعاليم الإسلامية)[1] .

مصرع قادة الجيش الإسلامى الثلاثة

لقد تدفق الجيش الرومانى كالبحر الهائج يريد أن يطوى بأمواجه الهائلة قرية مؤتة الصغيرة مع من فيها من عسكر المسلمين وكان ذلك حسب مقتضى العادة أمرا ميسورا بالنسبة لكثرة جيوش الرومان وقلة عسكر الإسلام .

لولا أن الذين كانوا يقفون على مشارف قرية (مؤتة) هم من أصحاب

---

(١) فيما يلى من هذا الكتاب (وفى إطار الحديث عن معركة مؤتة) سنسهب إن شاء الله فى الحديث لتفنيد هذه الادعاءات الانهزامية السخيفة .

محمد ﷺ الذين لفهمهم الصحيح لمعنى الجهاد فى سبيل الله يتحولون إلى أعاصير فى هجماتهم . وإلى جبال رواسى فى دفاعهم .

معركة مؤتة تستمر سبعة أيام

فبدلا من أن يجهز الجيش الرومانى على المسلمين خلال عدة ساعات (كما كان قادته يتوقعون) قوبل الرومان بما أذهلهم وكاد يزيغ عقولهم من مقاومة الجيش الإسلامى الصغير الذى لاقى أعداءه وقاتلهم قتالاً مريراً ضارياً . جعل المعركة الطاحنة تستمر سبعة أيام كاملة[1] .

وهو أمر ما كان قادة الجيش الرومانى يتصورون أنه سيحدث .. إذ حددوا وقتا للمعركة لا يزيد على بضع ساعات خلالها إما تتم إبادة الجيش الإسلامى وإما أن يقع كل رجاله أسرى فى يد الجيش الرومانى .. ولم لا ؟؟ أليس جحافل الرومان الزاحفة تبلغ مائتى ألف مقاتل وعساكر الإسلام المدافعة التى لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل ؟ .. بلى .

ولكن المواجهة التى واجه بها المسلمون الحشود الرومانية الهائلة الزاحفة . ما كان قادة الجيش الرومانى (وهم يضعون خطة المعركة) يتوقعون أنها ستكون على هذا المستوى من الصمود والثبات والشراسة والضراوة .

فقد ثبت المسلمون على مشارف (مؤتة) وقاتلوا أعداءهم قتالا شرسا مريرا ضارياً . أوقفوا به تقدم الجيش الرومانى الزاحف .

فاحتدم القتال وقام المسلمون (على قلتهم) بهجوم معاكس أتوا فيه بالعجائب . فصرعوا عدة مئات من أفراد الجيش الرومانى وأتباعه . بعد أن خالطوهم فى هجمات صاعقة .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٢ .

وكان الذى يقود المسلمين ويتقدم صفوفهم القائد الأول (زيد بن حارثة) فلقى الرومان وأعوانهم ، من المسلمين الأهوال . حتى أن بعض الرومان (مع كثرتهم الهائلة) بدأ يركن إلى الفرار . لهول ما لاقى من عسكر الإسلام .

غير أن عامة الجيش الرومانى ظلوا يقاتلون بشدة وعنف محاولين (عبثا) اقتحام مواقع المسلمين فى (مؤتة) لتطويقهم تمهيدا لإبادتهم .

ولكن الرومان (فى كل محاولة) يبوءون بالفشل ويفقدون مزيداً من القتلى . حيث ظل المسلمون صامدين . والحرب سجال بينهم وبين الرومان .

ولا أدل على ضراوة المعركة واستبسال المسلمين فيها من أن هذه المعركة استمرت سبعة أيام يتجالد فيها الفريقان طوال النهار . حتى يحجز بينهم ظلام الليل فيكفوا عن القتال .

وللمنصف أن يتصور أية بطولة كان عليها المسلمون .

والمنصف سيدرك أى مستوى رفيع من الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء والإيمان العميق كان عليه المسلمون عندما يعلم أنهم (وهم ثلاثة آلاف محارب) استمروا يخوضون المعركة بصبر وشجاعة طوال سبعة أيام ضد جيش قوامه مائتا ألف مقاتل . دون أن يتمكن هذا الجيش من تسجيل أى نصر يذكر على المسلمين .

متى وكيف استشهد القادة الثلاثة

لقد ذكر بعض المؤرخون أن معركة مؤتة استمرت سبعة أيام[1] .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٩٢ .

وفى اليوم السادس استشهد القادة الثلاثة (زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة) الذين باستشهادهم تحول ميزان القتال لصالح الرومان وكادوا أن يبيدوا القوات الإسلامية (بالفعل) لولا أن أنقذها الله بأن تولى المحارب المخزومى الشهير خالد بن الوليد قيادة الجيش بعد استشهاد قادته الثلاثة الأبرار .

فاستخدم ما لديه من مهارة قيادية وسياسة عسكرية لإنقاذ الجيش الإسلامى فجمع شتاته بعد أن انفرط عقده (لموت قادته الثلاثة) ثم اتبع أسلوبا موفقاً به سحب الجيش من مؤتة بعد أن أنزل بالرومان خسائر فادحة . كما سيأتى تفصيله ضمن إطار بحث أحداث معركة (مؤتة) هذه .

مصرع زيد بن حارثة

أما كيف ومتى استشهد القادة الأبرار الثلاثة فى هذه المعركة اللاهبة الحاسمة . فخلاصة ما ذكره المؤرخون وما يدل عليه سياقهم أن القادة الثلاثة ظلوا يخوضون المعركة فى مقدمة الجيش لمدة خمسة أيام . وأنهم استشهدوا جميعا فى اليوم السادس .

أما كيف قتلوا . فقد أجمعت المصادر التاريخية على أن أول من استشهد منهم زيد بن حارثة القائد العام الذى كان يتقدم الصفوف وفى يده علم الجيش (وهو علم أبيض[1] أعطاه له الرسول ﷺ عند استعراضه الجيش فى ضواحى المدينة قبل تحركه)

فقد ظل القائد زيد يقاتل الرومان (قائدا للجيش) طوال خمسة أيام . وفى اليوم السادس احتدم القتال وزاد الرومان من ضغطهم على المسلمين فى (مؤتة) فصمد فى وجههم وقاتلهم أشد قتال حتى مزقته رماحهم وهو مقبل كالأسد الهصور .

قال الطبرى : ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٢٨ .

ﷺ حتى شاط(١) فى رماح القوم .

وقال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : فمضى المسلمون إلى مؤتة ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، فالتقى المسلمون والمشركون ، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم . فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل . وقاتل المسلمون معه على صفوفهم . حتى قتل طعنا بالرماح . رحمه الله .

ومثل هذا القول . ذكره باقى المؤرخين .

مصرع جعفر بن أبى طالب

وكما هى تعليمات الرسول الأعظم والقائد الأعلى للجيش . كان جعفر بن أبى طالب مكلفا بأن يخلف زيد بن حارثة فى قيادة الجيش إذا ما استشهد زيد .

ولذلك كان جعفر ملازما (أثناء القتال) للقائد العام زيد بن حارثة استعدادا لتولى منصب القائد العام إذا ما أصيب زيد أثناء القتال .

وفعلا . فعندما استشهد القائد زيد بعد أن شاط فى رماح العدو . سارع جعفر واستلم علم الجيش من يد زيد قبل أن يقع على الأرض . وبهذا تولى (تلقائيا) مسئولية القائد العام للجيش فقاد المسلمين وقاتل الرومان قتالا ضارياً . حتى أذهلهم .

جعفر يعقر فرسه

وكان جعفر يقاتل على فرس له شقراء فاقتحمت به أتون المعركة المضطرم وعلم الجيش فى يده . والمسلمون خلفه يقاتلون بضراوة واستماتة .

وعندما تسلم جعفر بن أبى طالب القيادة . أقحم فرسه وسط حشود

---

(١) شاط الرجل إذا سال دمه فمات .

الرومان فصار يدفع كتائبهم أمامه (ومن ورائه جموع المسلمين) كما تدفع الريح القوية أمامها بالورق اليابس .

ولكن كثرة الزحام وشدة الالتحام فى المعركة جعل فرس القائد جعفر عاجزة عن الحركة كما يجب . فاقتحم جعفر عنها ثم عقرها . توطينا لنفسه على الموت وليقفل عليها باب الطمع فى الهرب ــ فكان أول من عقر فى الإسلام أثناء القتال ــ وبعد أن ترجل جعفر عن فرسه أحاط به الرومان فقاتلهم قتالًا شديداً وراية الرسول ﷺ فى يده .

ثم تمكن أحد فرسان الرومان من قطع يد جعفر التى يحمل بها اللواء فحمله باليد الأخرى فحمل عليه أحد الرومان فقطع اليد الثانية . وكان الهدف أن يقع علم الجيش الإسلامى فتعم المسلمين الهزيمة .

ولكن القائد الشاب جعفر أظهر بطولة فذة لا مثيل لها ، فبعد أن فقد كلتا يديه (وحفاظاً على اللواء من أن يقع على الأرض احتضنه مكباً عليه : ليظل مرفوعا فلا يقع أرضا . فتنهار لوقوعه معنويات المحاربين المسلمين . فبقاء اللواءِ منصوبا ساعة القتال له أثره النفسى الفعال فى نفوس المحاربين من حيث الثبات والصمود .

ورغم استبسال جعفر وثباته هذا . فقد انتهى صموده الرائع بأن سقط شهيداً بعد أن اعتورته سيوف الرومان وهو يحتضن اللواء فى إصرار وتصميم حتى صعدت روحه الطاهرة ليأخذ مكانه بين الصديقين والشهداء .

وذكر بعض المؤرخين أن فارسا من الروم ضرب القائد جعفر ضربة بالسيف (بعد أن أثخنته الجراح) فقطعه نصفين . فوقع أحد نصفيه فى كرم . فوجد فى نصفه بضع وثلاثون جرحا كما وجد به طعنة من رمح قد أنفذته[١] .

قال ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٤ : قال ابن إسحاق : ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قتل .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦١ وإمتاع الأسماع ص ٣٤٨ .

وقال ابن إسحاق : ثم أخذها (أى الراية) جعفر حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس[1] له شقراء ، فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام .

وحدثنى يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبّاد . قال : حدثنى أبى الذى أرضعنى ـــ وكان أحد بنى عوف ، وكان فى تلك الغزوة ، غزوة مؤتة فقال :

والله لكأنى أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها . ثم قاتل حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها   طيبة وباردٌ شرابُها
والرُّوم رومٌ قَدْدَنا عذابُها   كافرة بعيدةٌ أنسابُها
علىّ إذ لاقيتُها ضرابُها[2]

الشهيد الشاب

قال ابن هشام وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما . حيث شاء . ويقال : إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين[3] .

قال ابن كثير (معلقا على عقر جعفر فرسه فى المعركة) .. روى هذا الحديث أبو داود من حديث ابن إسحاق . وقد استدل (أى بفعل جعفر)

---

(١) ألحمه القتال ، نشب فيه فلم يجد مخلصاً . واقتحم عن فرس له ، رمى بنفسه عنها .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠ .

على جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو كما يقول أبو حنيفة فى الأغنام . إذا لم تتبع السير ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها أنها تذبح وتحرق ليحال بينهم وبين ذلك والله أعلم . قال السهيلي : ولم ينكر أحد على جعفر ، فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له ولا يدخل ذلك فى النهى عن قتل الحيوان عبثا[1] .

قلت : لا غبار على شرعية ووجاهة صنيع الشهيد جعفر رضى الله عنه حين عقر فرسه بعد أن أحاط به العدو . لأن الخيل فى ذلك العصر أهم سلاح حربى . وهو بمثابة سلاح المدرعات فى هذا العصر . فجعفر قد عقر فرسه لئلا ينتفع به العدو .. وفى العصر نرى أن من أهمّ التعليمات للمحاربين أن يتلفوا أى سلاح فى أيديهم يكونون غير قادرين على استخدامه . ويخشون أن ينتفع به العدو .

عودة إلى المنطلق

وقال الواقدى : وضرب رجل من الروم (جعفر) فقطعه نصفين فوقع أحد نصفيه فى كرم ، فوجد فى نصفه ثلاثون أو بضع وثلاثون جرحا . وحدثنى أبو معشر عن نافع عن ابن عمر ، قال : ووجد مما قتل من بدن جعفر اثنان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح . وقال : حدثنى يحيى بن أبى عبد الله بن أبى قتادة عن عبد الله بن أبى بكر بن صالح عن عاصم بن عمر ، قال : وجد فى بدن جعفر أكثر من ستين جرحا ، ووجد به طعنة قد أنفذته[2] .

وقال البخارى : عن عبد الله بن عمر : كنت فيهم فى تلك الغزوة (أى غزوة مؤتة) فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ووجدنا فى جسده بضعا وتسعين من ضربة ورمية . قال ابن كثير تفرد به البخارى[3]

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٤ .
(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس (جامعة اكسفورد)
(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٥ .

وروى البخارى عن ابن عمر . أنهم وقفوا على جعفر بعد استشهاده . فوجدوا جميع الطعنات التى أصيب بها ليس منها شيء خلفه . بل كلها تلقاها وهو مقبل[1] .

مصرع عبد الله بن رواحة القائد الثالث

واستمر القتال بضراوة وعنف فى مؤتة . وكما هو الترتيب الذى وضعه النبى ﷺ بتناوب القادة الثلاثة فى المعركة سارع القائد الثالث عبد الله بن رواحة . بعد مصرع جعفر بن أبى طالب إلى تسلم مسئولية قيادة الجيش فحمل اللواء ، كقائد عام للجيش ، فخاض بالمسلمين المعركة .

والعجيب أن عبد الله بن رواحة الذى كان فى (معان) صاحب الدعوة إلى مصادمة الرومان عندما بدا بعض التردد على بعض القادة لكثرة الحشود الرومانية الهائلة . عبد الله هذا ، قد أدركه شيء من الضعف البشرى ، عندما جاء دوره فى تسلم قيادة الجيش ، عقب مصرع القائد الثانى جعفر ابن أبى طالب . فقد تردد بعد أن حمل الراية ، وتقدم بفرسه ، إلا أنه تغلب على هذا التردد ، فتقدم وقاد الجيش ، وقاتل به حتى استشهد .

فقد عاتب عبد الله بن رواحة نفسه على هذا التردد قائلا شعراً .

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... طائعة أو فلتكرَهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... ما لى أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة فى شَنَّة ؟

ثم نزل القائد ابن رواحة من على فرسه ولواء رسول الله ﷺ بيده . فقاتل قتال الأبطال حتى تخطفته سيوف ورماح الرومان فالتحق بزميليه شهيداً ، وكان قتله حسب سياق المؤرخين فى اليوم السادس من المعركة .

تمنى الشهادة فأعطيها

وكان عبد الله بن رواحة قد تمنى أن يرزقه الله الشهادة ، وهو فى الطريق

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٦ .

إلى مؤتة . فقد روى ابن إسحاق عن زيد بن أرقم[١] ، قال : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة فى حجره ، فخرج فى سفره ذلك مردفى على حقيبة رحله ، فوالله إنه ليسير ليلتئذ سمعته يقول :

إذا أدنيتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعدَ الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذَم ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المسلمون[٢] وغادَرونى بأرض الشام مستنهى الثواء[٣]
وردّك كلُّ ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلعَ بَعْل ولا نخل أسافلها رواءِ[٤]

قال : فلما سمعتهن منه بكيتُ . قال فخفقنى[٥] بالدُّرة وقال : ما عليك يا لُكع[٦] أن يرزقنى الله شهادة وترجع بين شُعبْتَى الرحل[٧] .

قال : قال عبد الله بن رواحة فى بعض سفره ذلك وهو يرتجز .

يا زيد زيد اليعملات[٨] الذُّبّل تطاول الليلُ هديت فانزل[٩]

كيف استبسل ابن رواحة بعد التردد

ويصف ابن إسحاق مضاء عزيمة ابن رواحة بعد التردد الذى حدث له فيقول : إن عبد الله استمر فى معاتبة نفسه وحضها على الاستشهاد فقال :

---

(١) انظر ترجمة زيد بن أرقم فى كتابنا (غزوة أحد) .
(٢) فى مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٥٩ .. (وآب المسلمون) بدلاً من (وجاء المسلمون) وهو الأقرب إلى الصواب .
(٣) قال فى القاموس المحيط : ثوى بالمكان ثواء إذا أطال الإقامة به ، أو نزل فيه .
(٤) البعل : هو الذى يشرب بعروقه من الأرض ورواء (بكسر الهمزة) صفة لنخل .
(٥) خفقه بالدرة ضربه بها ضرباً خفيفاً غير موجع .
(٦) لكع بضم أوله وفتح ثانيه ، كلمة تقال للزجر .
(٧) قال أبو ذر : شعبتى الرحل ، طرفاه المقدم والمؤخر .
(٨) اليعملات : جمع يعملة ؛ وهى الناقة السريعة . والذبل التى أضناها السير . فقل لحمها .
(٩) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٣ .

يا نفس ألا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيتى   إنْ تفعلى فعلهما هُديتِ

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً ، ثم نزل ، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق[١] من لحم فقال : اشدد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه[٢] ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثم انتهس[٣] منه نهسة ، ثم سمع الحطمة[٤] فى ناحية الناس ، فقال : وأنت فى الدنيا ، ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل[٥] .

مصرع قائد العرب المتنصرة

وكان الرومان قد عانوا الأهوال من المسلمين أثناء الأيام الستة . فقد أصاب المسلمون منهم ومن أتباعهم العرب المتنصرة ، مقتلة عظيمة ، وكان من قتلى الجيش الرومانى القائد العام لقوات العرب المتنصرة واسمه . مالك ابن رافلة . قتله قائد ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذرى .[٦]

خالد بن الوليد يتولى قيادة الجيش فى مؤتة

وبعد أن لقى القادة الثلاثة مصرعهم فى معركة الأيام الستة بمؤتة .

وكان الجيش الإسلامى (على قلة عدده) قد ظل رجاله ثابتون يصارعون الرومان وحلفاءهم طوال ستة أيام . دون أن يبدو عليهم الوهن أو الاضطراب . غير أن مصرع القادة الثلاثة وبقاء الجيش دونما قائد . رجح كفة الرومان . وحدث بعض الخلل والاضطراب فى صفوف

(١) العرق : العظم الذى عليه لحم .
(٢) هذا القول من ابن عم عبد الله بن رواحة ، يدل على أن معركة (مؤتة) استمرت بين المسلمين وبين الرومان أياماً عديدة .
(٣) انتهس .. أخذ منه بفمه شيئاً يسيراً . هكذا قال أبو ذر .
(٤) الحطمة (بفتح أوله وسكون ثانيه) شدة ازدحام الناس ، وحطم بعضهم بعضاً .
(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢١ .
(٦) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٣ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٠ .

المسلمين الذين اختلطوا (بعد مصرع ابن رواحة) بالرومان . وأخذ بعض المسلمين ينهزم . لا سيما بعد أن سقط لواء الجيش أرضا بعد مصرع القائد الثالث . لقد هزموا هزيمة منكرة .

ولكن أحد فرسان الأنصار وهو (ثابت بن أقرم) أخذ اللواء من قطبة ابن عامر الأنصارى[1] . وصاح : يا قوم يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا . أما ثابت بن أقرم : فقد أخذ يصيح باسم الأنصار فثاب إليه الناس .

وهكذا أنقذ ثابت بن أقرم الموقف حين رفع اللواء ونادى يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم (أى يحمل اللواء ويتحمل مسئولية قيادة الجيش) فرشحه وجوه الجيش لأن يكون هو القائد فاعتذر قائلا ما أنا بفاعل .

وكان الموقف لا يحتمل النقاش فقد بلغ الدرجة القصوى من الخطورة بعد مصرع القادة الثلاثة . والباحث العسكرى الخبير هو الذى يستطيع تقييم الخطر الداهم الذى أحاق (يوم ذاك) بثلاثة آلاف مقاتل . فقدوا كل قادة جيشهم . فى الوقت الذى يصارعون فيه مائتى ألف مقاتل من أعدائهم الرومان وأتباعهم .

لقد أصبح هم وجوه الجيش وزعماء القبائل فيه ــ بعد أن فقد قادته الثلاثة ــ وبدت علائم الفوضى والاضطراب على بعض صفوفه ــ أصبح همهم النجاة بهذا الجيش الصغير الذى رغم استبساله وشراسته فى القتال .. قادة وجنودا .. كاد يفقد تنظيمه كلياً .

ولم يكن هناك فى الجند من تتجه الأنظار إليه لإنقاذ الموقف سوى

---

(١) قطبة بن عامر هذا ؛ كان أحد الأنصار الستة الأوائل الذين كانوا أول من أسلم من أهل المدينة . وأول من أدخل الإسلام بين أهل المدينة قبل الهجرة . انظر ترجمة قطبة بن عامر فى كتابنا « غزة بدر الكبرى » وقصة إسلامه الشيقة فى نفس الكتاب ص٤٣ الطبعة الرابعة وما بعدها .

المحارب الشهير خالد بن الوليد الذى لم يمض على دخوله فى الإسلام سوى ثلاثة أشهر فقط .

ولذلك صاح ثابت بن أقرم (الذى رفع لواء الجيش من الأرض) بخالد : خذ اللواء يا أبا سليمان . فقال : لا آخذه أنت أحق به . أنت رجل لك سن .

فقال ثابت : خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك[1] . أنت أعلم بالقتال منى[2] . وأيد وجوه الجيش وزعماء القبائل فيه فكرة تولى خالد بن الوليد القيادة . وحثوه على ذلك . لإنقاذ الموقف المتدهور الذى بات يهدد أفراد الجيش بالإبادة .

ولم يسع المحارب البطل والقائد الفذ خالد بن الوليد إلا أن يستجيب لرغبة وجوه الجيش ويحققها . فقبل أن يتحمل مسؤولية القيادة . فحمل اللواء من ثابت بن أقرم . فأصبح قائداً عاماً للجيش .

لقد كان اختيار خالد بن الوليد قائداً للجيش (فى تلك الساعات الحرجة) اختياراً موفقا . لأن خالداً ــ بالإضافة إلى كونه محاربا ممتازا شجاعا لا يشق له غبار ــ كان قمة فى السياسة العسكرية والمهارة القيادية فى حالتى الهجوم والدفاع . وقد أثبت ذلك (عمليا) وخاصة بعد أن دان بالإسلام وقاد الجيوش فى أعنف المعارك .. مما جعله فى مقدمة عظماء قادة العالم . ولقد أنقذ الجيش الإسلامى فى مؤتة من التدمير ، بعد الهزيمة المنكرة التى نزلت به عقب مصرع قادته الثلاثة .

فقد أعاد خالد (أولا) للجيش التنظيم الذى فقده ، ثم أعاد بمهارته إلى هذا الجيش ثقته بنفسه ، وبعد ذلك شن به هجوما معاكسا على الرومان

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٢

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٠

حتى زلزل صفوفهم ثم — وبمهارة فائقة — تمكن من الانسحاب بهذا الجيش الصغير انسحابا عظيما يعتبر فى عرف الخبراء العسكريين أعظم انتصار .. ولهذا لقب الرسول ﷺ خالدا سيف الله بعد أن نجح فى إنقاذ الجيش .

النبى ﷺ يصف المعركة قبل عودة الجيش بعد أن كشف الله له ما بين المدينة والشام

وذكر المؤرخون وأصحاب السير والحديث . أن الله تعالى كشف لرسوله المسافة الفاصلة بين المدينة ومكان المعركة فى (مؤتة) حتى صار ينظر عيانا إلى ما حدث هناك من قتال ضار عنيف ، ويشهد مصرع القادة الثلاثة . وتولى خالد بن الوليد القيادة ، ولقبه (لأول مرة بسيف الله) . وهذا من المعجزات التى أكرم الله بها نبيه ﷺ .

حديث البخارى عن معجزة الرسول ﷺ .

فقد روى البخارى عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة . للناس قبل أن يأتيهم خبر ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله — يعنى خالد بن الوليد — حتى فتح الله عليهم[1] .

رواية البيهقى عن المعجزة

وقال البيهقى بسنده عن خالد بن سمير . قال : قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصارى وكانت الأنصار تفقهه ، فغشيه الناس فغشيته فيمن غشيه . فقال أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٥ .

جيش الأمراء . وقال : عليكم زيد بن حارثة : وقال : إن أصيب زيد فجعفر ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة . قال فوثب جعفر وقال : يا رسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل زيدا على . قال : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير ، فانطلقوا ، فلبثوا ما شاء الله ، فصعد رسول الله ﷺ ، فأمر فنودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس على رسول الله ﷺ . فقال : أخبركم ، أخبركم هذا ؟ .

إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيداً ، فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، شهد له بالشهادة واستغفر له ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه سيف من سيوفك أنت تنصره » فمن يومئذ سمى خالد سيف الله ، ورواه النسائى من حديث عبد الله بن المبارك ، وفيه زيادة حسنة ، وهو أنه ﷺ لما اجتمع إليه الناس . قال : باب خير ، باب خير ، فذكر الحديث[1] .

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وحدثنى عبد الجبار بن عمارة بن عبد الله بن أبى بكر ، زاد أحدهما على صاحبه فى الحديث ، قالا : لما التقى الناس بمؤتة ، جلس رسول الله ﷺ على المنبر وكشف له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى معركتهم ، فقال رسول الله ﷺ : أخذ الراية زيد بن حارثة ، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت وحبب إليه الدنيا . فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تحبب إلى الدنيا ، فمضى قدما ، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسعى ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمناه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا . فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تمنينى الدنيا ، ثم مضى قدماً حتى

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٦ .

استشهد ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودعا له ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة ، فهو يطير فى الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء من الجنة ، ثم أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فاستشهد ودخل الجنة معترضاً . فشق ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : أصابه الجراح . قيل : يا رسول الله ؛ ما اعتراضه ؟ قال : لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فشجع ، فاستشهد فدخل الجنة . قال الراوى فسرى عن قومه[1] .

رواية ابن إسحاق

وجاء فى سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق : ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ ـــ فيما بلغنى ـــ : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا . قال : ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار . وظنوا أنه قد كان فى عبد الله ابن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم قال : لقد رفعوا إلى فى الجنة ، فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة إزورارا عن سريرى صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا وتردد ، ثم مضى[2] .

جناحان بدل اليدين لجعفر فى الجنة

قال الحافظ ابن حجر : وفى الجزء الرابع من فوائد أبى سهيل بن زياد بن القطان من طريق سعدان بن الوليد عن عطاء عن ابن عباس : بينما رسول الله ﷺ جالس وأسماء بنت عيسى (زوج جعفر) قريبة منه ، إذ قال : « يا أسماء هذا جعفر بن أبى طالب قد مر مع جبريل وميكائيل فردى عليه السلام ـــ الحديث ـــ وفيه .. فعوضه الله من يديه جناحين يطير بهما حيث شاء »[3] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٢ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٢ .
(٣) الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ج ١ ص ٢٤٦ .

وذكر موسى بن عقبة . أن يعلى بن أمية[1] قدم على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة . فقال له رسول الله ﷺ : إن شئت فأخبرنى وإن شئت أخبرك ، قال : أخبرنى يا رسول الله . قال فأخبرهم رسول الله ﷺ خبرهم كله ، ووصفه لهم ، فقال (يعلى) والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره وإن أمرهم لكما ذكرت . فقال رسول الله ﷺ « .. إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم »[2] .

النبى ﷺ يشيد ببطولة خالد

ويذكر المؤرخون أن النبى ﷺ ــ وهو يخبر أصحابه فى المدينة بعد أن كشف الله له مكان المعركة بمؤتة ــ أكد لهم أن ميزان المعركة تحول لصالح المسلمين بعد أن هزموا بعد مقتل قادتهم الثلاثة . وكان هذا التحول بعد أن تولى خالد بن الوليد القيادة ، فقد روى الواقدى عن عبد الله بن الفضيل عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال ــ لما أخذ خالد الراية ــ : الآن حمى الوطيس[3] . كناية عن عودة المسلمين إلى القتال واشتداد القتال بينهم وبين الرومان .

صعوبة المهمة الملقاة على عاتق خالد فى مؤتة

لقد كانت معركة مؤتة أول معركة يشترك فيها خالد بن الوليد (مسلما) . كما أنه لأول مرة فى حياته يتولى منصب القائد العام لجيش إسلامى .

كانت حالة الجند الإسلامى ــ عندما تولى خالد القيادة بمؤتة ــ حالة

---

(١) هو يعلى بن أمية بن أبى عبيدة التيمى الحنظلى . حليف قريش . قال ابن سعد : شهد حنينا والطائف وتبوك . وكان عاملاً لعمر على نجران ثم عزله ، ثم ولاه عثمان صنعاء اليمن ، وحج سنة قتل عثمان . روى عنه أولاده صفوان وعثمان ومحمد وعبد الرحمن وكذلك مجاهد وعطاء . مات سنة ٤٧ هـ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٧ .

(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٤ .

سيئة بمعنى هذه الكلمة .

فقد تمزقوا تمزقا شديدا حتى تبعثروا فى أرجاء الميدان فى حالة من الفوضى هى الهزيمة بعينها . بل إنها أشنع هزيمة تنزل بجيش إسلامى فى العهد النبوى .. وصف هذه الحقيقة ابن سعد فى طبقاته الكبرى (ج ٢ ص ١٣٠) بقوله ــ يصف حالة الجيش الإسلامى بعد مصرع قادته الثلاثة ــ .. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وطاعن حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا .. والكلام هنا لشاهد عيان هو أبو عامر .

ومن هنا كانت المهمة التى ألقيت على عاتق القائد الجديد (خالد بن الوليد) مهمة على غاية من الصعوبة والتعقيد .

فقد تولى قيادة جيش أنهكه القتال الشديد الضارى طوال أيام . فكان (وهو ثلاثة آلاف فقط) يجالد ــ طيلة هذه الأيام الستة ــ جيشا قوامه مائتا ألف مقاتل .

ومع ذلك ، فقد هذا الجيش الصغير الباسل قادته الثلاثة الواحد بعد الآخر ، فانفرط عقده ، وفقد تنظيمه ، وكان فى حالة اضطراب شديد وارتباك خطير ، جعلاه مهيئا لأن يدمر تدميرا كاملا ، أو يقع بكامله أسيرا فى قبضة الرومان وأحلافهم من العرب المرتزقة من غير المسلمين .

وهذه الحالة التى وصل إليها الجيش الإسلامى فى (مؤتة) لا يلام عليها . فرغم زخم الإيمان وثبات اليقين والبسالة النادرة التى قاتل بها هذا الجيش الصغير ، فإن للطاقة البشرية حدودا .

وإذا نظرنا إلى ظروف معركة مؤتة (وخاصة بعد فقد الجيش الإسلامى قادته الثلاثة ، ومضى ستة أيام عليه وهو يقاتل ذلك القتال الضارى) لوجدنا أن استمراره إلى ما لا نهاية فى التصدّى لمائتى ألف مقاتل ومجالدتها هو فوق طاقة البشر .

وليس بوسع أى خبير عسكرى منصف يلم بتفاصيل وظروف معركة مؤتة لا يسعه إلا أن يعترف بأن ثبات المسلمين فى وجه الرومان كل هذه الأيام هو أرقى مراتب النصر والغلبة مهما قيل عن اضطرابهم ومحاولة

بعضهم الانهزام .

خالد وخطة الانسحاب الرائعة

قام القائد خالد بن الوليد (أثناء الليل) بتبديل كلى فى الميمنة والميسرة والقلب من جيشه . فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة . كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة أثناء التعبئة للمواجهة فى اليوم السابع . كما استبدل رجال القلب فى الصفوف بآخرين . وهدفه من ذلك أن يدخل (عمليا) فى نفوس قيادة الرومان الاعتقاد أن جيشا جديداً وعسكراً لم يسبق لهم أن اشتركوا فى القتال قد جاءوا مددا للمسلمين من المدينة .

نجاح خطة التضليل أنقذت المسلمين فى مؤتة

هذه هى خطة الإيهام والتضليل التى رسمها ونفذها القائد الفذ المحنك خالد بن الوليد فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء يكاد يكون محققاً .[١] .

فما كاد يطلع الصباح حتى وجد الرومان أنفسهم أمام جيش جديد فأنكروا من المسلمين ما كانوا يعرفونه طوال أيام القتال الستة .

فقد وجد الرومان (قادة وجنودا) أنفسهم ــ أثناء تقابل الصفوف فى اليوم السابع ــ أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير القادة والجنود والرايات والهيئات التى كانوا يواجهونها فى الصفوف الأولى (ميسرة وميمنة وقلب) أثناء القتال فى الأيام الستة الماضية .

وبينما كانت الأسئلة تلح على قادة الجيش الرومانى . ما إذا كان هذا الذى يرون يعنى أن جيش الإسلام قد تلقى (أثناء الليل) مددا كبيرا من

---

(١) واذكر أن المارشال روميل القائد الألمانى الشهير قد طبق – فى حرب الصحراء الليبية – خطة الإيهام والتضليل التى رسمها ونفذها خالد بن الوليد فى (مؤتة) فأنقذ روميل بتطبيق (خطة خالد) مجموعة كبيرة من القوات الألمانية التى كان الجيش الإنكليزى يهددها إما بالسحق وإما بإجبارها على التسليم « إقرأ كتاب عيون التاريخ العالمى ج ٤ الحديث الخاص بمعارك صحراء ليبيا » .

المدينة . إذا بغبار يسد الأفق من بعيد (جنوبا) ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامى . أثارت هذا الغبار سنابك خيل تركض بأقصى سرعة .

وما هى إلا برهة وجيزة حتى دوت أرجاء (مؤتة) بأصوات التهليل والتكبير منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذى حجب الأفق . ثم انشق هذا الغبار عن كتائب من الفرسان تتبع إحداهما الأخرى فى تنسيق وإحكام راكضة نحو المسلمين فى (مؤتة) قد رجفت الأرض رجفا لوقع حوافر خيلها المنطلقة بأقصى سرعة وأصوات فرسانها تصم آذان الرومان بالتهليل والتكبير . ولإدخال مزيد من الرعب فى قلوب الرومان . اهتز معسكر المسلمين المواجه للرومان فى (مؤتة) بالتكبير والتهليل . كل ذلك تم بتخطيط محكم من القائد المحنك المظفر خالد بن الوليد .

وكان ذلك آخر حلقة فى الخطة الرائعة التى أحكمها القائد خالد لتضليل قادة الجيش الرومانى وإيهامهم بأن مدداً عظيماً قد تلقاه المسلمون فى (مؤتة) من المدينة .

فقد أيقن قادة الجيش الرومانى أن كل ما رأوه من تغير شامل فى رجال القوات الإسلامية فى الميمنة والميسرة والقلب وتدفق هذه الكتائب التى رأوا غبار وقع سنابك خيلها يحجب الأفق منذ الصباح الباكر خلف خطوط المسلمين . إنما هو مدد كبير يمثله جيش عظيم جاء من المدينة لمساندة المسلمين ليستمروا فى خوض المعركة فى مؤتة حتى النصر .

خالد يهاجم الرومان ويلحق بهم أعظم الخسائر ثم ينسحب

ونتيجة هذا الاعتقاد الذى أوجده لدى القادة الرومانيين نجاح خطة التضليل البارعة التى نفذها خالد بن الوليد . دب الفزع والرّعب إلى نفوس الرومان وسادهم الهرج والمرج ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف مقاتل من هؤلاء المسلمين قد فعلوا كل هذه الأفاعيل بالرومان وحلفائهم وظلوا يجالدون مائتى ألف مقاتل طوال ستة أيام . منزلين بهم أفدح الخسائر فماذا عسى أن يصنعوا بهم إذن بعد أن وصل إليهم هذا المدد الكبير من المدينة ؟

وأدرك خالد (بحاسة القائد الماهر المحنك) ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب وارتباك . نتيجة نجاح خدعته الحربية البارعة المحكمة . فاغتنمها فرصة . فأمر فى الحال بالهجوم على خطوط الرومان وبأسلوب عام صاعق كاسح فتم له ما أراد .

فقد مالت كل صفوف جيش الإسلام على خطوط الرومان الأمامية . فتملك الرعب نفوسهم . ثم تضعضعت صفوفهم فركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة . كانت بكل معانى الكلمة (مذبحة) وصفها الواقدى فى كتابه المغازى بقوله : (حدثنى عطاف بن خالد . قال : لما قتل ابن رواحة مساءا بات خالد بن الوليد . فلما أصبح غدا . وقد جعل مقدمته ساقته . وساقته مقدمته . وميمنته ميسرته . وميسرته ميمنته . فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم . وقالوا : قد جاءهم مدد ! فرعبوا فانكشفوا منهزمين فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم قط) [١] .

وقال ابن سعد فى طبقاته الكبرى ج ٢ ص ١٣٠ (وهو يروى قصة انتصار خالد على الرومان بعد توليه القيادة) : ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وطاعن حتى قتل . ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط لم أر اثنين جميعاً .. ثم أخذ خالد (بن الوليد) اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط . حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا[٢] .

تسعة أسياف تتكسر فى يد خالد بمؤتة

واستمر خالد يطارد الرومان بكل قواته حتى أثخنوهم . وكان القتال قتالا ضاريا خاضه المسلمون (بعد هزيمتهم) بحنق وغيظ . وكان الرومان فى تراجعهم أمام هجوم خالد المضاد . يقاتلون بشراسة ولا أدل على عنف المعركة التى انتصر فيها خالد على الرومان (والفضل الأول للخدعة

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس . طبع جامعة أكسفورد .

(٢) هذا مقطع من حديث طويل عن أحد أصحاب رسول الله ﷺ ــ وهو أبو عامر ــ روى فيه تفاصيل مصرع القادة الثلاثة . وكان فى مهمة فى الشام بعثه فيها رسول الله ﷺ . فشاهد ما حدث فى مؤتة وهو عائد من الشام . ــ انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها ــ .

البارعة) من أن القائد خالدا تكسرت فى يده تسعة سيوف بعد أن تولى قيادة الجيش وشن هجومه المضاد المفاجئ على الرومان فقد روى الإمام البخارى عن خالد نفسه أنه قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف . وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية[1] .

تنفيذ خطة الانسحاب إلى المدينة

ولما كان هدف القائد خالد من كل الأعمال والخدع الحربية التى لجأ إليها هو أن يؤمن لجيش الإسلام انسحابا منظما من مؤتة اغتنم فرصة ارتباك الجيوش الرومانية واضطرابها واعتقادها أن المسلمين قد تلقوا نجدة من المدينة . فأصدر أمره إلى قادة الفرق والكتائب فى جيش الإسلام بالارتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام كما هو متفق عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الانسحاب فى الليل .

فأخذ الجيش الإسلامى يغادر ميدان المعركة فى مؤتة منسحباً بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة .

وأشرف القائد خالد نفسه على عملية الانسحاب فكان يجول بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام سائدا أثناء الانسحاب ولتظل روح الجند والقادة ومعنوياتهم عالية . فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى .

فتمت عملية الانسحاب من (مؤتة) كما قدر ويريد القائد البطل خالد . تمت على أدق نظام ودونما أية خسارة .

قيادة الرومان تأمر بعدم تعقب المسلمين فى انسحابهم

فالجيش الرومانى الذى يمكن أن يقوم بملاحقة المسلمين ومطاردتهم أثناء انسحابهم . قد وقف (رغم كثرته الهائلة) شبه مشلول يسوده الذهول عقب الأهوال التى لقيها على أيدى المسلمين فى الهجوم الكاسح المضاد الذى

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٢ .

قام به خالد بن الوليد بعد نجاح حيلته العسكرية وخدعته الحربية البارعة .

فمع ما أنزله المسلمون فى هجومهم المضاد من خسائر فادحة بين صفوف الجيش الرومانى كان قادة هذا الجيش لا يزالون يعتقدون أن ما حدث من المسلمين من قتال شرس وهجوم كاسح فى المرة الأخيرة . إنما هو نتيجة تلقيهم نجدات عظيمة من المدينة . ولهذا أصدر القادة الرومان إلى كافة قادة الكتائب والفرق فى جيشهم بأن لا يتعقب أحد المسلمين فى انسحابهم .

وقد فسر أحد الباحثين من المؤرخين إحجام الرومان عن مطاردة المسلمين المنسحبين مع قدرة الرومان الكاملة — من الناحية البشرية — على مطاردة المسلمين وإنزال أكبر خسارة ممكنة بهم أثناء انسحابهم حيث يوجد لدى الرومان وحلفائهم من سلاح المطاردة (سلاح الفرسان) مالا يقل عن خمسين ألف فارس .. فسّر ذلك بأنه إما راجع إلى أن القيادة الرومانية العليا تعتقد أن الانسحاب الذى قام به خالد بن الوليد وجيشه فى ذروة انتصاره فى المعركة . إنما هو مكيدة حربية يدبرها القائد لإيقاع الجيش الرومانى — إذا ما تتبع المنسحبين المسلمين — فى كمائن قد أعدها (مقدماً) .. ولا أحد يجيد الكمائن وإحكامها مثل العرب . فأحجمت القيادة الرومانية لذلك عن تعقب المسلمين فى انسحابهم رغم قلة عددهم ورغم كونهم يتحركون فى انسحابهم داخل أراض رومانية . بل ورغم أن الرومان يعرفون أن المسلمين سيقطعون (أثناء انسحابهم) مسافة ستمائة ميل ، مزروعة كلها بأناس وثنيين أو عرب متنصرة يناصبون الإسلام والمسلمين العداوة والخصومة .

وإما أن إحجام الرومان عن المطاردة راجع إلى أن الرومان (كما أشار الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد) قد فرحوا وكانوا مسرورين لانسحاب المسلمين من ميدان المعركة التى لم يستطع الرومان أن يسجلوا على المسلمين النصر الذى كانوا يأملون الحصول عليه رغم كثرتهم الغامرة الهائلة ورغم قلة المسلمين القليلة ، بل لقد أنزل هؤلاء المسلمون بالرومان خسارة كبيرة قبل أن يصل إليهم هذا المدد — الذى توهم الرومان

أنه قد وصلهم فعلاً ــ لهذا أحجم الرومان عن ملاحقة المسلمين وكان سرورهم عظيماً بانسحابهم .

وعلى أى حال فقد نجح القائد خالد فى انسحابه بجيش الإسلام إنسحابا سليما منظما أنجاه به من أخطار مدمرة كانت ستحيق به بل إنها لمحيقة به لولا أن وفق الله وجوه الجيش وقادة الكتائب فأسندوا قيادته إلى هذا القائد البطل المحنك خالد بن الوليد .

المظاهرة فى المدينة ضد الجيش

واصل القائد خالد بن الوليد انسحابه بالجيش من مؤتة فى الشام حتى وصل المدينة دون أن يتعرض لأى مكروه .

وكانت أنباء معركة (مؤتة) فى الشام قد وصلت مشوشة إلى المدينة . وشاعت شائعات فيها تقول : إن عسكر الإسلام فى (مؤتة) قد فروا ، وانهزموا .

.. والفرار ــ منذ أن شرع الله الجهاد للمسلمين فى سبيله ــ خلة مرذولة قبحها القرآن . وما سبق للمسلمين أن فر أحد منهم من ميدان المعركة .

ولهذا فإن ما أشيع من أن المسلمين قد فروا من الرومان وانهزموا دون أن يقوموا بما يجب القيام به من الثبات والتضحية . قد أحدث استياءاً عاماً بين الجماهير فى المدينة .

لذلك لم يكد خالد يصل بجيشه إلى ضواحى المدينة (بالجرف) حتى اصطدم بمظاهرة كبيرة تندد بالجيش وكان المتظاهرون يصيحون بالجيش يا فرار .. فررتم فى سبيل الله .. ويحثون فى وجوه الجند والقادة التراب .

وكان الرسول العظيم ﷺ يدافع عن موقف الجيش ويحاول تهدئة المتظاهرين ويقول .. ليسوا بفرار ولكنهم كرّار إن شاء الله .. وكانت حقائق البطولات النادرة التى تفوق الوصف والتى قام بها جيش الإسلام فى

مؤتة . قد وصلت النبى ﷺ فى تقارير صحيحة كما هى[1] ولهذا انبرى ﷺ يرد على المتظاهرين فى المدينة مدافعاً عن جيشه الباسل وقائده البطل خالد بن الوليد . الذى بدهائه العسكرى (كما تقدم) أنزل (فى هجوم صاعق) بالرومان فى مؤتة . أفدح الخسائر ثم انسحب بالجيش انسحابا منظما نال عليه الإعجاب والتقدير من الرسول الأعظم ﷺ بل ولا يزال حتى هذه اللحظة محل إعجاب القادة العسكريين فى العالم الذين يعرفون تفاصيل خدعة خالد الحربية التى بها نفذ خطة الانسحاب وأنقذ الجيش من فناء محقق .

ومع أن الحقيقة خلاف ما أشيع عن جيش الإسلام فى مؤتة فقد ظل أهل المدينة حانقين على الجيش يؤنبون كل من لا قوه من أفراده حتى المرأة كانت لا تفتح الباب لزوجها منهم وتذكره بأنه من الذين فروا وفضلوا الحياة على الاستشهاد فى سبيل الله .

فقد روى عن أبى بكر بن عبد الله بن عتبة أنه كان يقول ما لقى جيش بعثوا معنا ما لقى أصحاب مؤتة من أهل المدينة لقيهم أهل المدينة بالشر حتى أن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله . فيدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له . يقولون : ألا تقدمت مع أصحابك .

أما كبار القادة من وجوه أصحاب الرسول ﷺ الذين حضروا مؤتة فكانوا يلازمون بيوتهم خوفا من أن يسمعوا ما يكرهون مما يعيرهم به أهل المدينة . الذين أصروا على أن جيش مؤتة قد فر وهرب .. حتى اضطر النبى ﷺ إلى أن يبعث إليهم رجلاً رجلاً . ويقول : أنتم الكرّار فى سبيل الله .

وروى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : كان فى ذلك البعث (يعنى جند مؤتة) سلمة بن هشام بن المغيرة . فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبى ﷺ فقالت أم سلمة : مالى لا أرى سلمة بن هشام ؟ أاشتكى شيئا ؟ قالت امرأته : لا والله . ولكنه لا يستطيع

---

(١) قدم هذه التقارير الصحيحة إلى النبى ﷺ أحد رجال استخباراته وهو رجل يقال له « أبو عامر » انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ .

الخروج . إذا خرج صاحوا به وبأصحابه « يا فرار . أفررتم فى سبيل الله » حتى قعد فى البيت . فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : بل هم الكرار فى سبيل الله فليخرج ! فخرج ..

وقد كانت هذه المظاهرات التى قام بها أهل المدينة احتجاجا (على ما ظنوه فراراً وهربا قام به جيش الرسول ﷺ المبعوث إلى الشام) — أول مظاهرة يقوم بها المسلمون فى تاريخ الإسلام . ومن الجدير بالذكر أن الرسول والقائد الأعلى للجيش لم يحاول التعرض للمتظاهرين ولم يأمر بتفريقهم بالقوة عندما تجمهروا بالجرف خارج المدينة يحثون التراب فى وجوه الجيش ويهتفون ضده هتافات معادية ، بل كل ما فعله الرسول ﷺ أنه كان يرد على المتظاهرين مزاعمهم وينفى عن جيشه تهمة الفرار والجبن . أما المتظاهرون فقد تركهم ﷺ يعبرون عن مشاعرهم بكامل الحرية . حتى انجلت لهم الحقيقة على مدى الأيام . واتضح لهم أن جيش الإسلام فى مؤتة (وخاصة بعد تسلم خالد قيادته) قام ببطولات لا يمكن لأى جيش هو فى حجم صغره . أن يقوم بها .

أثر مقتل جعفر على رسول الله ﷺ

كان جعفر بن أبى طالب ابن عم الرسول ﷺ . وكان شابا ذا أخلاق رفيعة . وأريحية متناهية وصاحب كرم ونفس عالية . وكان من السابقين الأولين فى الإسلام .. وهو الذى أسلم على يده النجاشى أصحمة إمبراطور الحبشة .. وكانت له هناك مواقف محمودة . بها نافح عن الإسلام .. وشرح وأجلى وجهة نظره السليمة لملك الحبشة وأركان دولته . مما كان له أكبر الأثر فى حماية المهاجرين المسلمين اللاجئين إلى إمبراطور الحبشة من اضطهاد مشركى مكة الذين لحقوا بالمسلمين وحاول وفد ظالم منهم التأثير على إمبراطور الحبشة كى يسلمهم إليهم ليعودوا بهم إلى مكة ليضطهدوهم ويفتنوهم عن دينهم .

ولكن جعفراً — وكان رئيس اللاجئين المهاجرين عند ملك الحبشة أصحمة — وقف بما أعطاه الله من رجاحة عقل واتقاد ذهن واستنارة

بصيرة وقدرة على الكلام المؤثر والإقناع . لا أن يحبط محاولة المشركين القرشيين الإجرامية التى تستهدف إعادة المسلمين إلى جو الشرك الخانق الذى يسطر على مكة يوم أن كان المشركون فى عنفوان جبروتهم .. بل استطاع أن يقنع ملك الحبشة (النجاشى) أن يدخل فى الإسلام . ويعلن ذلك رغم معارضة مجلس الكنائس فى مملكته ورغم محاولة أركان دولته القيام بثورة مسلحة لإسقاطه بعد أن أعلن إسلامه[1] . وقد كان النقاش الذى دار فى قاعة العرش بمملكة النجاشى ، فى الحبشة بين جعفر والنجاشى ورسل قريش الذين جاءوا يطالبون النجاشى بتسليم المسلمين لهم .. كان هذا النقاش مثيراً للغاية دل على فطنة وذكاء وإيمان راسخ وجزالة منطق . يتمتع بها جعفر بن أبى طالب . الذى غلب بالحجة والمنطق والحق باطل وفد المشركين فى بلاط النجاشى . حتى بلغ التأثر من كلام جعفر ، بالنجاشى إلى أن يأمر بطرد وفد المشركين ويعلن حمايته للمهاجرين المسلمين فى بلاده ، بل وإلى أن يدخل فى الإسلام ، بعد أن عرف من حديث جعفر بن أبى طالب أن ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ هو ما جاء به نبى الله عيسى من مشكاة واحدة .. (انظر تفاصيل هذه القصة الشيقة فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ وما بعدها) وقد سجل جعفر بن أبى طالب تلك الانتصارات للإسلام على الشرك والمشركين وتمكن بحكمته وقوة إيمانه وقدرته على الإقناع من إدخال الإسلام إلى قلب ملك الحبشة نفسه فأسلم على يده[2] تمكن جعفر من تسجيل وتحقيق كل ذلك وهو دون الثلاثين من عمره .

محبة النبى الشديدة لجعفر

وكان النبى ﷺ يحب جعفرا حبا شديدا لما فيه من خصال قل أن توجد فى غيره . قوة الإيمان وحسن الخلق وطيب العشرة ونقاء الضمير والشجاعة

---

(١) تمكن النجاشى من القضاء على هذه الثورة وظل « بتأييد من الله » ملكاً مسلماً على شعب مسيحى حتى توفاه الله فى العهد النبوى ، فصلى عليه النبى ﷺ فى المدينة صلاة الغائب .

(٢) انظر الوثائق السياسية ص ٧٥ — ٧٨ .

الفائقة والكرم العظيم . حتى قيل إنه ليس أحد أقرب إلى أخلاق رسول الله ﷺ من ابن عمه جعفر بل إنها لحقيقة .. أكدها الرسول ﷺ بقوله يخاطب جعفراً (وكان معه فى عمرة القضاء) : « أشبهت خَلقى وخلقى »[1] .

ولم يقم النبى ﷺ لأحد جاء من سفر إلا لجعفر بن أبى طالب . الذى قام له عند عودته بالمهاجرين من الحبشة ، وقبل ما بين عينيه . وحجل[2] فرحا بقدومه[3] .. وهذا يدل على علو منزلة جعفر ومكانته العالية فى نفس النبى ﷺ .

وبعض الصحابة يرون أن جعفر بن أبى طالب أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ .. فقد روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى هريرة أنه قال : ما احتذى النعال ولا انتعل ، ولا ركب المطايا ، ولا لبس الثياب من رجل بعد وسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبى طالب[4] .

بكاء الرسول لموت جعفر

وقد حزن رسول الله ﷺ على ابن عمه جعفر حزنا شديدا . فقد تأثر لمقتله إلى حد أن صار يذرف الدموع حزنا عليه .. وذهب بنفسه إلى بيت جعفر لمؤاسات أهله وأبنائه وكانوا أطفالاً صغاراً .

فقد روى المؤرخون عن أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب أنها قالت : أصبحت فى اليوم الذى أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتانى رسول الله ﷺ ، ولقد هيأت أربعين مناً[5] من أدم[6] ، وعجنت عجينى وأخذت بنى فغسلت وجوههم ودهنتهم .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) حجل : مشى على رجل واحدة . والعرب يفعلون ذلك تعبيراً عن الفرح .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٦ . وقال ابن كثير تعقيباً على هذا الحديث : « إسناده جيد ، وكأنه إنما يفضله فى الكرم ، فأما الفضيلة الدينية فمعلوم أن الصديق والفاروق بل وعثمان بن عفان أفضل منه ، وأما أخوه على رضى الله عنهما فالظاهر أنهما متكافئان أو على أفضل » اهـ .

(٥) المن : قال فى شرح أبى ذر : المن ؛ هو الذى يوزن به ، وهو الرطل .

(٦) الأدم . قال فى النهاية فى غريب الحديث ج ١ ص ٢١ : ما يؤكل مع الخبز . أى شىء كان .

فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا أسماء ، أين بنو جعفر فجئت بهم إليه فضمهم وشمهم ، ثم ذرفت عيناه فبكى ، فقلت : أى رسول الله ، لعلك بلغك عن جعفر وأصحابه شيء قال نعم . أصيبوا هذا اليوم . وفى رواية لعلك بلغك عن جعفر شيء ؟ فقال .. نعم ، قتل اليوم . قالت : فقمت أصيح واجتمع إلىّ النساء . قالت فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا أسماء لا تقولى هُجرًا[1] ولا تضربى صدراً . قالت : فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهى تقول : واعماه . فقال رسول الله ﷺ : على مثل جعفر فلتبك الباكية . ثم قال : اصنعوا لآل جعفر طعاما ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .. وفى رواية : (لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم) .

وروى عن عبد الله بن جعفر أنه قال : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسى ورأس أخى ، وعيناه تهرقان الدموع حتى تقطر لحيته . ثم قال : اللهم إن جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب فاخلفه فى ذريته بأحسن مما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته .

ثم قال : يا أسماء ألا أبشرك ؟ قالت : بلى ، بأبى أنت وأمى قال : فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة قالت : بأبى وأمى يا رسول الله ، فأعلم الناس ذلك . فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدى يمسح بيده رأسى حتى رقى على المنبر وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى ، والحزن يعرف عليه ، فتكلم فقال : إن المرء كثير بأخيه وابن عمه ، ألا إن جعفراً قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما فى الجنة ، ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلنى وأمر بطعام فصنع لأهلى . وأرسل إلى أخى فتغدينا عنده ، والله غداء طيبا مباركا ، عمدت سلمى خادمته إلى شعير فطحنته ، ثم نسفته ، ثم أنضجته وأدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلا . فتغديت أنا وأخى معه ، فأقمنا ثلاثة أيام فى بيته ، ندور معه كلما صار فى إحدى بيوت نسائه ثم رجعنا إلى بيتنا . فأتى رسول الله ﷺ وأنا أساوم

(١) الهجر (بضم أوله وسكون ثانيه) قال فى الإصحاح ص ٨٥١ : هو الإفحاش فى القول .

بشاة أخ لى فقال : اللهم بارك فى صفقته . قال عبد الله .. فما بعت شيئا ولا اشتريت إلا بورك فيه .

أولاد جعفر الصغار

وفى حديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر . أن رسول الله ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثا أن يأتيهم ، ثم أتاهم فقال : لا تبكوا على أخى بعد اليوم ، ادعوا لى أبناء أخى .. فجئ بنا كأننا أفرخ (تعبيرا عن شدة صغرهم) فقال : ادعوا لى الحلاق . فجئ بالحلاق فحلق رؤوسنا . ثم قال : أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب . وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى ، ثم أخذ بيدى فأشالها وقال : (اللهم اخلف جعفرا فى أهله ، وبارك فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه) قالها ثلاث مرات . قال فجاءت أمنا فذكرت يتمنا وجعلت تفرح[1] له فقال « العَيلة تخافين عليهم وأنا وليّهم فى الدنيا والآخرة » وروى هذا الحديث النسائى فى السير وروى بعضه أبو داود[2] .

فضل أمراء معركة مؤتة الثلاثة

لقد كان الأمراء الذين استشهدوا فى معركة مؤتة . من أبرز وأشرف وجوه أصحاب الرسول ﷺ .. اثنان منهم من المهاجرين . وهما جعفر بن أبى طالب . وزيد بن حارثة وواحد من الأنصار وهو عبد الله بن رواحة . وكلهم من السابقين الأولين فى الإسلام .

أما زيد بن حارثة فقد كان يسمى .. (حبّ رسول الله) ويكفيه فضلا وفخرا . أنه نشأ وتلقى تربيته منذ الطفولة فى أحضان النبوة . حيث كان

---

(١) تفرح . قال فى النهاية تفسيراً لهذا الخبر : فهو من أفرحه إذا غمه وزال عنه الفرح . ثم قال : وإن كان بالجيم فهو من المفرج الذى لا عشيرة له ، حتى قال لها النبى ﷺ : أتخافين العيلة وأنا وليهم ؟

(٢) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٦ ــ ٧٦٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ والإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ج ١ ص ٢٣٩ .

مولى لرسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله . وعندما بعثه بالرسالة . كان من أول الذين آمنوا به .

وكان زيد محاربا ممتازا لذلك تولى قيادة عدة سرايا حاربه المشركين داخل الجزيرة . أما جعفر فقد ذكرنا تاريخه ونبذة عن حياته بشيء من الإسهاب كما تقدم .. إلا أن جعفر . لم يتمكن من أن يشارك فى شرف النضال الحربى ضد المشركين . لكونه غائباً فيما رواء البحار أميراً على المهاجرين برعى شؤونهم فى الحبشة منذ أوائل ظهور الإسلام حتى معركة خيبر .. ولهذا فإن معركة مؤتة التى استشهد فيها . هى أول عمل حربى يشارك فيه .

أما عبد الله بن رواحة . فقد كان من سادات الأنصار (الخزرج) وكان من السابقين الأولين فى الإسلام . شهد بيعة العقبة التاريخية . وكان فيها أحد النقباء الأنصار الاثنى عشر الذين انتخبهم قومهم ليتعهدوا باسمهم لرسول الله ﷺ بتنفيذ ما جاء فى اتفاقية بيعة العقبة . وكان شاعرا من فحول الشعراء المشهورين وهو كزميليه (زيد وجعفر) من المقطوع لهم بدخول الجنة .

انظر مزيدا من التفاصيل عن تاريخ هؤلاء الأمراء الثلاثة الحافل . فى الإصابة لابن حجر العسقلانى ، ونسب الأشراف والاستيعاب . لابن عبد البر . وحياة الصحابة . لمحمد يوسف الكاندهلوى . وهو كتاب قيم فى أربع مجلدات .

غزوة ذات السلاسل ..[1] جمادى الاخرة .. سنة ثمان للهجرة

تعتبر قبيلة (قضاعة)[2] وما تفرع منها من بلى وبهراء وبلقين وعذرة من

---

(١) ذات السلاسل . قال فى إمتاع الأسماع : هو ماء وراء وادى القرى من المدينة ، بينه وبين المدينة . عشرة أيام .

(٢) قضاعة (بضم القاف) قال فى معجم قبائل العرب : شعب عظيم . واختلف النسابون فيه فبعضهم ينسب قضاعة إلى حمير فيقول : قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن =

أعظم القبائل العربية المعادية للإسلام والموالية للرومان فى العهد النبوى .

وقد رأينا كيف كانت قبائل (قضاعة) رأس الحربة فى جيش الرومان الذى خاض معركة (مؤتة) ضد المسلمين ، وكيف أن المائة ألف من العرب المتنصرة التى حشدها الرومان على مشارف الشام لمحاربة المسلمين ، كان قائدها أحد سادات قضاعة وهو (مالك بن رافلة) الذى لقى مصرعه فى معركة مؤتة وهو يقود العرب المتنصرة ..

والظاهر أن قبائل (قضاعة) التى تسكن فخائذها المنطقة الواسعة التى تشمل الركن الشمالى الغربى من جزيرة العرب بما فى ذلك (ذات السلاسل) ، والركن الجنوبى الغربى من الشام ناحية البلقاء .. هذه القبائل .. الظاهر أنها بإيعاز من حلفائها الرومان قد أخذت تحشد الجيوش للهجوم على المدينة ، الأمر الذى جعل الرسول ﷺ يجرد (على وجه السرعة) حملة عسكرية كبيرة لضرب هؤلاء الأعراب .. وقد جرد الرسول ﷺ هذه الحملة إلى ديار (قضاعة) فى الشمال ، قبل مرور أقل من نصف شهر على معركة مؤتة الحاسمة ، فقد كانت غزوة (مؤتة) فى شهر جمادى الأولى ، وغزوة (ذات السلاسل) فى شهر جمادى الآخرة من سنة ثمان للهجرة .

= حمير . وبعضهم ينسب قضاعة إلى العدنانيين . فيقول قضاعة بن معد بن عدنان . والمشهور أن قضاعة من القحطانيين من حمير .. كانت ديار قضاعة بالشحر ثم نجران . ثم نزحوا إلى أقصى الشمال الشرقى للجزيرة فانتشروا هناك ، فصار لهم ملك تمتد رقعته ما بين الحجاز والعراق والشام وكل سواحل خليج العقبة الشرقية . وامتد ملكهم حتى جبال الكرك داخل الأردن . قال فى معجم قبائل العرب : وكانت النصرانية منتشرة بينهم . وقد استعملهم الرومان على بادية العرب هناك . بلى (بفتح الباء وكسر اللام) فخائذ عظيمة . متفرعة من قضاعة . وهم بنو بلى بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة . قال فى معجم قبائل العرب . مساكنها تقع بين المدينة ووادى القرى ، من منقطع دار جهينة إلى حدود جذام بالنبك على شاطئ البحر ، ثم لها ميامن البر إلى حد تبوك ، ثم إلى جبال الشراة ، ثم إلى معان . وقال ابن خلدون : كانت مواطن بلى شمالى جهينة إلى عقبة أيلة على العدوة الشرقية (من الخليج) من بحر القلزم (البحر الأحمر) وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة . وقال الأستاذ عمر كحالة فى كتابه « معجم قبائل العرب » : أما فى الإسلام فقد انضمت « بلى » إلى هرقل فى غزوة مؤتة وكان معه من المستعربة عدد كبير من لخم وجذام ، بلقين ، بهراء ، وبلى . فبلغ مائة ألف محارب . عليهم رجل من بلى .

من هنا صح القول . إن غزوة (ذات السلاسل) هى امتداد لمعركة مؤتة . لأن العناصر التى جرد الرسول ﷺ حملته لضربها هى نفس العناصر التى حاولت (بمساندة الرومان) سحق الجيش الإسلامى الصغير فى معركة (مؤتة) . كما أن المنطقة التى وصلت الحملة النبوية إليها فى تحركها ، هى نفس المنطقة التى اجتازها الجيش النبوى إلى (مؤتة) بقيادة زيد بن حارثة .

ولهذا أدرجنا هذه الغزوة فى هذا الكتاب باعتبارها (كما قلنا) امتدادا لمعركة مؤتة .

الاستخبارات النبوية تبلغ الرسول نبأ الغزو

لم يكن جهاز الاستخبارات العسكرى التابع للمدينة بغافل عن هؤلاء الأعراب . فقد كان هذا الجهاز يترصد حركاتهم ويتلقط أخبارهم . لا سيما بعد الصدام الذى حدث فى مؤتة .

ولهذا فلم يكد هؤلاء الأعراب المعادون يبدأون الحشد ويتصل قادتهم بعضهم ببعض لوضع خطة غزو المدينة . حتى كان جهاز الاستخبارات النبوى ملما بكامل تفاصيل نوايا وتحركات هؤلاء الأعراب المعادية للمسلمين ، فسارع هذا الجهاز (وبأقصى سرعة) إلى تقديم تقرير شامل إلى النبى القائد ﷺ عن هؤلاء الأعراب وما يعتزمونه من القيام بغزو المدينة .

إسراع النبى فى غزوهم قبل أن يتحركوا

وعندما اطلع الرسول القائد ﷺ على تقارير استخباراته العسكرية هذه . قرر أن ينقل المعركة إلى ديار هؤلاء الأعداء فيفاجئهم بجيشه فى ديارهم قبل أن يتحركوا .

وتلك (غالباً عادته ﷺ عندما يبلغه نبأ حشود تنوى غزو المدينة) .

فقد حشد النبى ﷺ على جناح السرعة جيشا بلغ (أول الأمر)

ثلاثمائة مقاتل . ثم أمده بنجدة حتى صار هذا الجيش خمسمائة مقاتل .

عمرو بن العاص القائد

وفى المدينة استدعى النبى ﷺ القائد عمرو بن العاص السهمى وأسند إليه قيادة هذا الجيش وكلفه أن يطأ بهذا الجيش ديار أولئك الأعراب فيخضد شوكتهم ويدوخهم . وقد عقد النبى ﷺ للقائد عمرو لواءاً أبيض .

وروى أن النبى ﷺ لما عين عمرواً قائداً على الجيش فى تلك الغزوة . قال له : إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك . قال عمرو : فقلت ، إنى لم أسلم رغبة فى المال ، قال ﷺ نعم المال الصالح للرجل الصالح[1] .

عمرو بن العاص القائد لأول مرة

وكما أن خالد بن الوليد كان توليه القيادة للجيش فى مؤتة (عقب استشهاد القادة الثلاثة) أول عمل حربى يقوم به مجاهدا فى سبيل الله عقب إسلامه . فإن غزوة ذات السلاسل هذه كانت أول مجال يقوم فيه عمرو بن العاص بعد إسلامه بعمل حربى مجاهداً فى سبيل الله .

فقد أسند النبى ﷺ قيادة الجيش فى غزوة ذات السلاسل هذه إلى عمرو بن العاص . وكان الجيش هذا يضم سراة المهاجرين والأنصار . بينهم أبو بكر الصديق . وعامر بن ربيعة وصهيب الرومى . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسعد بن أبى وقاص من المها-جرين .. ومن سادات الأنصار . أسيد بن حضير وعباد بن بشر . وسلمة بن سلامة وسعد بن عبادة .

والعجيب أن عمرو بن العاص حين تولى قيادة هذا الجيش الذى يضم

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ والإصابة فى تمييز أسماء الصحابة (موضع ترجمة عمرو بن العاص) .

أركان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يكن قد مر على إسلامه أكثر من أربعة أشهر . حيث إن إسلامه وخالد بن الوليد إنما كان فى شهر صفر سنة ٨ للهجرة .. وغزوة ذات السلاسل التى قادها كانت فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨ للهجرة .

ولا شك أن فى هذا التصرف من الرسول ﷺ تربية لأصحابه وحكمة يقصد من ورائها تعليمهم كيف يكون السمع والطاعة للقائد العسكرى الكفؤ حتى وإن كانوا أفضل منه وأسبق إلى الإسلام وإلى الجهاد بأرواحهم وأموالهم فى سبيله .. فعمرو بن العاص وإن كان قد تأخر إسلامه . إلا أنه كان يمتاز بمقدرة كبيرة فى فن القيادة العسكرية والمهارة السياسية . لهذا أسند إليه النبى ﷺ قيادة هذا الجيش الذى كان ضمن جنوده سراة المهاجرين والأنصار .. وكذلك فعل أبو بكر وعمر . حين توليا الخلافة . فقد قدما عمرو بن العاص فى القيادة على سادات المهاجرين والأنصار حيث كان فى عهد الخليفة الأول . أحد قادة الجيوش الأربعة التى اجتازت حدود الشام غازية فى عهد الملك (هرقل) ثم كان فى عهد الفاروق هو قائد الجيش الإسلامى الذى حرر مصر من الاحتلال الرومانى فتم فتحها جميعها تحت قيادته .

الجيش يتحرك من المدينة

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٨ للهجرة تحرك القائد عمرو بن العاص من المدينة بجيشه البالغ ثلاثمائة مقاتل فى اتجاه الشمال نحو الحدود المتاخمة للشام حيث تحتشد القبائل العربية المتنصرة الموالية للرومان . وكان مع ابن العاص من سلاح الفرسان ثلاثون فرساً[١] .

وكان القائد يغذ السير بجيشه ليأخذ العدو على حين غرة ــ وكما هى عادة السرايا والبعوث النبوية ــ كان القائد عمرو بن العاص يسير بالجيش الليل ويكمن النهار .

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٥٢ .

وقد استغرق التحرك بالجيش من المدينة عشرة أيام . بعدها وصل ابن العاص بجيشه إلى أطراف ديار الأعداء فنزل على ماء يقال له : السلاسل . والذى سميت هذه الغزوة باسمه .

ابن العاص يطلب النجدة من المدينة

وكان القائد عمرو بن العاص قد بعث أمامه برجال من استخبارات الجيش متنكرة لتختلط بالعدو فى دياره وأماكن تحشداته لتعرف مدى قوته وحقيقة نواياه . ثم تقدم للقائد عمرو تقريراً مفصلا عن ذلك . ليكون تصرفه العسكرى ضد هؤلاء الأعداء مضمون العاقبة .

وقد قام رجال استخبارات الجيش بمهمتهم خير قيام . فتمكنوا من الوصول إلى ديار قضاعة وبلى وأحلافهم من الأعداء واختلطوا بهم داخل معسكراتهم دون أن يشعروا بهم . ثم عادوا إلى قائد الجيش عمرو بن العاص وقدموا له تقريرا شفويا مفصلا عن تجمع هؤلاء الأعراب ومدى قوتهم وأماكن احتشادهم .

فاتضح للقائد عمرو من هذا التقرير أن قضاعة وبلى وأحلافهم من عذرة والقين هم فى جموع كبيرة لا تكفى القوة التى يقودها عمرو بن العاص لمصادمتهم .

لذلك قرر القائد عمرو التريث وعدم التعجل فى الهجوم على القوم حتى يكتب إلى النبى ﷺ يطلب منه المدد . ثم أمر جيشه بالتراجع قليلا عن ديار القوم والاختفاء لئلا يشعروا بعمرو وأصحابه حتى تأتى النجدة من المدينة .

ولشدة حرص القائد عمرو على إخفاء وجوده وجيشه عن أنظار الأعداء فى ذات السلاسل أمر بأن لا يشعل أحد النار فى الليل . لئلا يكتشفهم العدو وكان الوقت شتاءاً والبرد قارصا . فحاول بعض الصحابة من جنود عمرو أن يشعل النار للتدفئة فى الليل . فمنعهم القائد عمرو من ذلك . فتذمروا وشق عليهم هذا المنع لأنهم كانوا فى الشمال وهى منطقة شديدة

البرودة كما هو معروف .

وكلم بعض المهاجرين القائد عمراً كى يسمح للجند بإشعال النار فى الليل ليستدفئوا . فأغلظ له عمرو فى القول . وقال ــ بلهجة القائد العسكرى الحازم المسئول ــ : أنا القائد لا أنت فاسمع وأطع ــ وكان أصحاب محمد ﷺ قمة فى التربية الحربية والانضباط العسكرى ــ ولذلك فإن قائد الجيش عمرو بن العاص قال للصحابى المهاجر : اسمع لى وأطع . قال : أفعل . واستمر إشعال النار على الجيش فى ذات السلاسل أمراً محظوراً فى الليل حتى جاءت النجدة من المدينة . وشرع القائد عمرو فى عملياته الهجومية الحربية على الأعداء .

وقد لام بعض الناس عمراً لشدته وإغلاظه الجواب للمهاجرين حين طلبوا منه السماح للجند بإشعال النار لدفع البرد . ولكن يظهر أن عمراً غير ملوم فى حظره إشعال النار فى الليل بالقرب من معسكرات وتجمعات أعداء يخشى أن يعرفوا مكان جيشه فيعجلوا بمهاجمته قبل أن تصله النجدة التى طلبها من المدينة .

فكان عمرو بن العاص قائدا مسئولا عن سلامة جنده . وله أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل هذه السلامة . حتى وإن بدت هذه الإجراءات قاسية وشديدة .

فهو يرى أن إشعال النيران فى الليل ــ وهو بالقرب من حشود معادية يريد مباغتتها . بل ويتحاشى الصدام معها حتى تصله النجدة من المدينة ــ يرى أن فى ذلك خطراً على سلامة جنده لأن إشعال النيران فى الليل يكشف للأعداء مكان جيشه .

النجدة تتحرك من المدينة لإسناد عمرو بن العاص

وكان القائد عمرو بن العاص . عندما رأى فى تقارير استخباراته أن حشود الأعداء من الكثافة والقوة . إلى درجة ليس فى الإمكان أن يقوم جيشه بمهاجمتها وهو فى ذلك العدد القليل (ثلاثمائة مقاتل) بعث (على جناح السرعة) إلى المدينة يبلغ الرسول القائد ﷺ حقيقة الموقف .

ويطلب منه أن يمده بنجدة قوية ليتمكن من تدويخ الأعداء وخضد شوكتهم وتشتيت جموعهم التى كانت تحتشد للإغارة على المدينة .

رسول عمرو إلى النبى ﷺ

وكان المبعوث الذى بعثه القائد عمرو إلى الرسول ﷺ لطلب النجدة هو رافع بن مكيث الجهنى . وقد وصل رافع المدينة وأبلغ النبى ﷺ رسالة القائد عمرو بن العاص . فلما اطلع النبى ﷺ على حقيقة الموقف . سارع إلى إمداد القائد عمرو بن العاص بنجدة كبيرة قوامها مائتان من المهاجرين والأنصار .. فيهم كثير من سراتهم — مثل أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب — وقد أسند النبى ﷺ قيادة هذه النجدة الى أبى عبيدة بن الجراح .

اختلاف أبى عبيدة وعمرو

تحرك قائد النجدة أبو عبيدة بنجدته نحو الشمال يغذ السير للالتحاق بالقائد عمرو بن العاص الذى أوقف تحرك جيشه ورابط به فى ذات السلاسل فى انتظار المدد من المدينة .

وكان النبى ﷺ قد أوصى أبا عبيدة بن الجراح أن لا يختلف مع عمرو ابن العاص عندما يلتحق به .

ووصل قائد النجدة أبو عبيدة بنجدته إلى عمرو فى ذات السلاسل . فقوى جيش المسلمين حيث صار خمسمائة مقاتل .

وعقب وصول أبى عبيدة بنجدته أراد أن يؤم الجيش ويتقدم عمراً فى الصلاة . فاعترض عمرو وقال (محتجا) إنما قدمت مددا لى وليس لك أن تؤمنى . وأنا الأمير . وإنما أرسلك النبى ﷺ إلى مدداً .

فقال المهاجرون (مثل أبى بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص) لعمرو : كلا بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه فقال عمرو : لا . بل أنتم مدد لنا .

فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف ــ وكان حسن الخلق لين العريكة ــ قال لتطمئن يا عمرو ــ وتعلمن أن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك . فأطاع أبو عبيدة . فكان عمرو يصلى بالجيش[1] .

وقفة اعتبار وتدبر

ولعله يجدر بنا معشر المسلمين ــ وخاصة العرب الذين مررنا ولانزال نمر بأحلك فترة فى تاريخ الصراع بل والاقتتال والختل والشتائم من أجل الزعامة . فأخلينا الساحة للعدو يفعل بنا ما يشاء ويذلنا ويمتهن كرامتنا كيف يشاء بينما تكرس كل الجهود فى أكثر أقطارنا (إياها) من أجل هدمنا من الداخل ــ لعله يجدر بنا (إن أردنا الاتعاظ والاعتبار) أن نقف عند هذه الحادثة وقفة تدبر وإمعان .

لنرى مدى الأخلاقية العالية . ودقة الضبط فى السلوك . وشيوع روح التضحية بالجاه والمنصب فى سبيل جمع الصف ووحدة الكلمة . بين أولئك الرجال الذين أدبهم الإسلام ورباهم القرآن أحسن تربية فصاروا يجعلون مصلحة الإسلام وأمته فوق كل مصلحة وغاية . ولذلك تم لهم النصر والغلبة فى كل ميدان .

فأبو عبيدة بن الجراح من السابقين الأولين ومن صفوة أصحاب محمد ﷺ الذين آمنوا به وكانوا إلى جانبه منذ انبثاق شمس دعوته الخيرة ــ وظلوا ــ أيام اشتداد المحنة عليه بمكة ــ كذلك يشاركونه سراء الدعوة وضراءها .

وعمرو بن العاص (رضى الله عنهم أجمعين) لم يدخل فى الإسلام إلا قبل أربعة أشهر من هذه الغزوة التى أعطاه النبى ﷺ قيادة القوات التى كلفت القيام بها .

فأبو عبيدة ومن معه من سراة المهاجرين وأركانهم ــ مثل أبى بكر وعمر ــ يرون أن أبا عبيدة أولى من عمرو بأن يؤم الجيش ــ لكون أبى

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٧١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس . طبعة جامعة أكسفورد .

عبيدة من المهاجرين السابقين الأولين .

ولكن عمرو بن العاص . يرى خلاف ذلك . فهو يرى أن لا دخل للفضل والسابقة فى هذا الموضوع . وإنما هو ــ حسب اعتقاد عمرو ــ الانضباط العسكرى والالتزام القيادى .

فعمرو هو القائد الأول للجيش فى هذه الغزوة . لأن النبى ﷺ أعطاه لواءها وحدد له المهمة . وهى غزو قبائل قضاعة وبَلى وعُذرة وأحلافهم من الأعداء . فتحرك من المدينة على هذا الأساس . قائدا لغزوة ذات السلاسل .

وأبو عبيدة وأصحابه (رضى الله عن الجميع) إنما جاءوا مددا لعمرو . ونجدة بعد أن اتصل عمرو بالنبى ﷺ وطلب إمداده بهذه النجدة .

ولا شك أن النبى الأعظم ﷺ ــ كقائد أعلى مجرب مسئول ــ قد توقع أن يحدث الذى حدث من الاختلاف بين القائدين (أبى عبيدة وعمرو) ولهذا كان من توصيته ﷺ لأبى عبيدة أن لا يختلف مع عمرو . ولهذا سارع أمين الأمة أبو عبيدة إلى حسم الخلاف وألقى بقياده إلى عمرو ابن العاص . بالرغم من أن كتيبة أبى عبيدة تضم صفوة المهاجرين والأنصار .

إن فى هذه الحادثة عبرا ودروسا لكل ذى منصب صغر أو كبر ...

إن تولية عمرو بن العاص على هذه الصفوة من المهاجرين والأنصار الذين هم أفضل منه وأسبق إلى نصرة الإسلام . تعنى أشياء كثيرة ولها مغاز واسعة فى مجال التربية والتوجيه المعنوى والانضباط العسكرى والتهذيب الخلقى .

بل إنها لقاعدة مكينة للسلوك الحربى المستقيم والانضباط العسكرى الدقيق . فتولية عمرو على أولئك الصفوة من الصحابة تعنى (من وجهة نظر التربية العسكرية الإسلامية) أن إطاعة أوامر القائد العادل الأعلى المسئول لا تقبل النقاش . وخاصة فى ظروف الحرب .

كما أن فى تولية عمرو بن العاص قيادة أمثال أبى بكر وعمر وسعد وأبى عبيدة وسعد بن عبادة . يستفاد منها درس مهم آخر وهو أن صلاح الإنسان وتقواه وسابقته فى نصرة الإسلام لا تعنى أحقيته دائما فى السيادة وقيادة الجيوش . وإنما الأحقية هنا للخبرة الحربية . والمهارة فى القيادة والسياسة العسكرية .

فالنبى ﷺ قد أعطى عمرو بن العاص القيادة العامة لجيش يضم صفوة أهل السابقة فى الإسلام من المهاجرين والأنصار وعمرو (مع حنكته السياسية ومقدرته الحربية) لا يصل إلى منزلة واحد ممن تولى قيادتهم من المهاجرين والأنصار من حيث الفضل والسبق إلى النصرة . فهو لم يمض على إسلامه (حينما تولى قيادة هؤلاء الأصحاب) أكثر من أربعة أشهر . ومع ذلك فقد أعطاه النبى ﷺ قيادتهم وصاروا جنودا يأتمرون بأمره . لأنه عالم بشئون الحرب[1] .

وهذا لا يعنى أن هؤلاء المهاجرين والأنصار ليس فيهم من لديه المؤهلات لقيادة الجيوش . فبينهم من قاد الجيوش (كعمرو) وفتح الفتوح مثل سعد ابن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح . وعلى كل حال فإن ما حدث فى غزوة ذات السلاسل . من إسلاس سادات المهاجرين والأنصار قيادهم لمثل عمرو بن العاص الذى هو (بدون شك) دونهم فى المنزلة من حيث الفضل والسابقة ــ هو الخط الصحيح المستقيم الذى رسمه (عبر التربية النبوية العالية) أولئك السادة البررة الكرام لمن يأتى بعدهم من أمة محمد . ليسيروا عليه فى مجال التضحية ونكران الذات . من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين العليا . إنها عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ . ممن يريدون حقا نصر الإسلام وإعزاز المسلمين .

---

(١) وقد شهد له بعلمه بفنون الحرب أبو بكر الصديق . فقد ذكر فى السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ أن أبا عبيدة وعمرو بن العاص لما اختلفا وأصر عمرو على أن يمنع الجيش من إشعال النار فى الليل غضب ابن الخطاب وهم أن يأتى عمرا فمنعه أبو بكر . وقال : إن رسول الله ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب . فسكت .

الغزوة تحقق أهدافها

كانت التقارير ـــ كما أشرنا فيما مضى ـــ تؤكد أن قبائل قضاعة وبلى وعذرة الموالية للإمبراطورية الرومانية تحتشد على حدود جزيرة العرب مما يلى الشام لغزو المدينة . فسارع النبى ﷺ وبعث بعمرو بن العاص ثم أمده بمائتى مقاتل . فتكامل له من المقاتلين الصحابة خمسمائة .

وعندما استكمل هذا العدد للقائد عمرو . شرع فى مهاجمة هذه القبائل المعادية واجتياح ديارها الواحدة بعد الأخرى . وقد نجح فى تشتيت جموعها وخضد شوكتها وتدويخها فأزال بذلك من أذهان قادتها فكرة القدرة على مهاجمة المدينة .

فقد ذكر المؤرخون أن جموع قضاعة وبلى وعذرة وبلقين ـــ رغم كثرتهم ورغم مساندة الرومان لهم بالمال والسلاح ـــ قد عجزوا عن . مواجهة جيش عمرو بن العاص . حيث لم يصمدوا إلا قليلًا ثم شردوا ممزقين فى كل سهل وجبل . تاركين ديارهم وأموالهم التى وقعت غنيمة فى أيدى المسلمين .

وقد استمر عمرو بن العاص فى مطاردة هؤلاء الأعراب حتى انتهى فى مطاردته إلى آخر بلادهم ولم يلق أثناء مطاردتهم إلا مقاومة قليلة سحقت فى الحال . وبعد أن انتهى جيش عمرو من مطاردة القوم إلى آخر بلادهم . أمر القائد عمرو بإيقاف المطاردة وأراد المسلمون أن يستمروا فى تتبع المشركين فمنعهم عمرو خوفا من أن يقعوا فى كائن ينصبها الأعداء .

قال الواقدى : يصف انتصار المسلمين فى هذه الغزوة ـــ : فآب إلى عمرو جمع ـــ فصاروا خمسمائة ـــ فسار الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلى(١) ودوخها وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا به تفرقوا . حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة(٢) وبلقين(٣) . ولقى

(١) قبيلة بلى (بفتح أوله وكسر ثانيه) هى أعظم قبائل قضاعة .

(٢) عذرة (بضم أوله وسكون ثانيه) قبيلة عظيمة من قضاعة .

(٣) بلقين (بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثة) قبيلة من العرب المستعربة كانوا تبعاً للدولة الرومانية . كذا قال فى معجم قبائل العرب . ولم يذكر أى تفاصيل عن نسبهم .

فى آخر ذلك جمعا ليس بالكثير . فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل ، ورمى يومئذ عامر بن ربيعة بسهم فأصيب ذراعه . وحمل المسلمون عليهم فهربوا . وأعجزوا هربا فى البلاد وتفرقوا . ودوخ عمرو ما هناك وأقام أياما لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، لم يكن فى ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تقسم إلا ما ذكر له(١) .

ولا شك أن المسلمين ــ بنجاحهم فى تشتيت جموع قبائل الشمال المعادية ــ قد أمنوا على المدينة من أى غزو خارجى . فقد جربت غطفان (أقوى وأشرس القبائل النجدية الوثنية) حظها حيث كان نصيب محاولتها اقتحامَ المدينة (بتحريض من يهود خيبر فى غزوة الأحزاب) الفشل وها هى عشائر قضاعة من بلى وعذرة وغيرهم تنالها ــ بالتأديب ــ قوات الجيش النبوى فى ديارها قبل أن تستكمل احتشادها لتتحرك نحو المدينة لغزوها بإسناد من القادة العسكريين الرومان الذين يحكمون الأقاليم الجنوبية من الشام .

عودة ابن العاص المنتصر إلى المدينة

وبعد أن دوخ عمرو بن العاص قبائل بلى وعذرة وكل عشائر قضاعة وبلقين فى الشمال وشتت جـ ـعهم وجاس خلال ديارهم حتى وصل مشارف الشام . قرر العودة إلى المدينة بجيشه الذى لم يصب منهم أحد سوى رجل واحد جرح جراحة طفيفة بسهم أصـ به من الأعداء أثناء الترامى .

البشير بالنصر إلى المدينة

وقبل أن يتحرك عمرو بن العاص ـ ر الجنوب عائدا بجيشه بعث عوف ابن مالك الأشجعى(٢) أمامه إلى المديـ ـ ـشر النبى ﷺ بما حقق الله لجيشه

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٧١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس . وطبعة جامعة أكسفورد .

(٢) هو عوف بن مالك بن أبى عوف الأشجعى .. قال الواقدى : أسلم عام خيبر وقيل كانت معه راية =

من انتصار ساحق على أعدائه .

وقد وصل المدينة قبل أن يصل عمرو بجيشه . وحسب رغبة القائد عمرو ـــ قدم للرسول ﷺ تقريرا عن كل الأعمال التى قام بها عمرو فى الشمال والنتائج الإيجابية التى انتهت إليها حملة التأديب التى قادها عمرو . وقد سر النبى ﷺ سرورا عظيما بنجاح عمرو فى حملته التأديبية .

ثناء الرسول ﷺ على أبى عبيدة لسماحة خلقه

كذلك أخبر عوف بن مالك (حامل بريد القائد عمرو) أخبر النبى ﷺ بتفاصيل الخلاف الذى حدث بين عمرو بن العاص وأبى عبيدة بن الجراح . وإطاعة أبى عبيدة لعمرو بن العاص . وتسليمه إياه كامل القيادة . فأثنى النبى ﷺ على أبى عبيدة ودعا له قائلاً : يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح .

وكان القائد عمرو قد أصابته جنابة من احتلام فتوضأ فقط ثم تيمم وصلى بالجيش دون أن يغتسل . لأن البرد كان شديدا . فأنكر عليه البعض . فقال لهم : إن اغتسلت مت .

= أشجع يوم الفتح .. آخى النبى ﷺ بينه وبين أبى الدرداء . روى عن النبى ﷺ . وعن عبد الله ابن سلام ، وروى عنه أبو مسلم الخولانى وأبو إدريس الخولانى وغيرهم . شهد فتوح الشام . وروى مجالد عن الشعبى . قال : لما قدم عمر الشام قام إليه رجل من أهل الكتاب فقال : إن رجلاً من المسلمين صنع بى ما ترى . وهو مشجوج مضروب . فغضب عمر غضباً شديداً وقال لصهيب الرومى : انطلق فانظر فأتنى به . فانطلق . فإذا هو عوف بن مالك . فقال : إن أمير المؤمنين قد غضب عليك غضباً شديداً فأت معاذ بن جبل فكلمه فإنى أخاف أن يعجل عليك ، فلما قضى عمر الصلاة . قال أجئت بالرجل ؟ قال : نعم . فقام معاذ . فقال : يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل عليه . فقال عمر : مالك وهذا (يعنى اليهودى) . قال رأيته يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع فلم تصرع ، فدفعها فصرعت فغشيها أو أكب عليها . قال فلتأتنى المرأة فلتصدق ما قلت فأتاها عوف . فقال له أبوها وزوجها : ما أردت إلى هذا فضحتنا . فقالت المرأة : والله لأذهبن معه . فقالا : فنحن نذهب عنك ، فأتيا عمر فأخبراه بمثل قول عوف . فأمر عمر باليهودى فصلب وقال ما على هذا صالحناكم . قال سويد : فذلك اليهودى أول مصلوب رأيته فى الإسلام . مات عوف سنة ٧٣ هـ فى خلافة عبد الملك .

النبى ﷺ يقر كل تصرفات القائد ولم ينكر عليه .

وعندما عاد القائد عمرو بن العاص بالجيش إلى المدينة . أثير أمام الرسول ﷺ موضوع منع عمرو الجيش من تعقب المنهزمين فى الشمال . وموضوع صلاته وهو جنب . ومنعه الجيش من إشعال النار للتدفئة وقد استجوب النبى القائد عمرا حيال هذه الأمور الثلاثة .

فأجاب بشأن منعه الجيش من تعقب عشائر قضاعة المنهزمة فى أقصى بلادها قائلاً : كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مددا فيعطفون عليهم .

أما بشأن منعه الجيش من إشعال النار أجاب عمرو : يا رسول الله . كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم .. فاستصوب النبى ﷺ تصرف عمرو هذا وحمده عليه(١) .

أما بشأن صلاته بالجيش وهو جنب . فقد قال : والذى خلقك لو اغتسلت لمت ، لم أجد قط برداً مثله . وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾(٢) . فضحك رسول الله ﷺ ولم يثبت أنه قال له شيئا(٣) .

نصيحة لا بد من سماعها

وهنا قصة حدثت فى غزوة ذات السلاسل لابد من ذكرها لما فيها من دروس فى التربية العالية التى كان عليها أصحاب محمد ﷺ .

فقد روى عن أبى رافع بن أبى رافع الطائى أنه قال : كنت فيمن نفر مع أبى عبيدة بن الجراح ، وكنت رجلا أغير فى الجاهلية على أموال الناس ، فكنت أجمع فى البيض ــ بيض النعام ــ فأجعله فى أماكن أعرفها ، فإذا مررت بها وقد ظمئت استخرجتها فشربت منها . فلما نفرت فى ذلك البعث قلت : والله لأختارن لنفسى صاحبا ينفعنى الله به . فاخترت أبا بكر

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ .
(٢) النساء / ٢٩ .
(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٧٤ .

الصديق فصحبته ، وكانت له عباءة فدكية[1] فإذا ركب خلها[2] عليه بخلال ، وإذا نزلنا بسطها . فلما قفلنا قلت : يا أبا بكر رحمك الله علمنى شيئا ينفعنى الله به . قال قد كنت فاعلا ولو لم تسألنى ، لا تشرك بالله ، وأقم الصلاة ، وآت الزكاة وصم رمضان ، وحج البيت ، واعتمر ، ولاتتأمر[3] على اثنين من المسلمين .

قال : قلت : أما ما أمرتنى به من الصلاة والصوم والحج والزكاة والعمرة فأنا فاعله ، وأما الإمارة فإنى رأيت الناس لا يصيبون هذا الشرف وهذا الغنى وهذه المنزلة عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها . قال : إنك استنصحتنى فجهدت لك نفسى ، إن الناس دخلوا فى الإسلام طوعا وكرها . فأجارهم الله من الظلم ، ــ وهم عواد الله وجيران الله وفى أمانته ، فمن أخفر فإنما يخفر الله فى جيرانه ، وإن شاة أحدكم أو بعيره ليذهب فيظل ناتئا عضله غضبا لجاره ، والله من وراء جاره . قال فلما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر (رضى الله عنه) جئته فقلت : يا أبا بكر ، ألم تنهنى أن أتأمر على اثنين ؟ قال : بلى ، وأنا على ذلك ! قال : فما لك تأمرت على أمة محمد ؟ قال : اختلف الناس وخشيت عليهم الهلاك ، ودعوا إلى فلم أجد لذلك بداً[4] .

قتلى الفريقين فى معركة مؤتة

مما لا جدال فيه والذى أجمع عليه المؤرخون هو أن معركة (مؤتة) من أعنف المعارك ــ بل هى أعنف معركة خاضها المسلمون فى العهد النبوى ــ فقد التقى فيها ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين بمائتى ألف مقاتل ظلوا يروحونهم ويغادونهم القتال طوال ستة أيام كاملة .

---

(١) فدكية : نسبة إلى فدك وهى قرية كان يسكنها اليهود . قريب من خيبر بينها وبين المدهنة ست ليال (كذا قال فى وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٥٥) .

(٢) خلها عليه . قال فى النهاية فى غريب الحديث : أى جمع بين طرفيها بخلال من عود أو حديد .

(٣) تأمر عليهم : تسلط . كذا قاله فى الصحاح .

(٤) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٧٢ وما بعدها .

ولا أدل على عنف المعركة وضراوتها من استشهاد قادة الجيش الإسلامى وأمرائه الثلاثة . ومقتل قائد أعراب، النصارى مالك بن رافلة الذى كان يقود مائة ألف منهم .

لقد اندقت فى يد قائد الجيش خالد بن الوليد (كما ذكر البخارى فى صحيحه) تسعة سيوف . وهذا يدل على عنف المعركة وضراوة القتال وأن عدد القتلى بين الفريقين كان كبيراً .

كما أن سياق المؤرخين يدل على أن الجيش الإسلامى أنزل بالجيش الرومانى وأتباعه من المرتزقة من خليط الأعراب أشنع هزيمة شهدها جيش . وهذا يعنى أن قتالا ضارياً دار سجالا بين الفريقين .

كما يدل هذا السياق أيضا على أن المسلمين نزلت بهم هزيمة فى مؤتة لم يعرفوا مثلها فى تاريخهم فى تلك الحقبة من الزمن . حتى أنقذ خالد بن الوليد الموقف . وبحيلة حربية وخدعة عسكرية بارعة أوقع فى صفوف الجيش الرومانى خسائر فادحة .

وإليكم مقاطع من أقوال المؤرخين وأصحاب السير والمغازى التى تدل (ولا بد) على أن خسائر الفريقين فى معركة مؤتة كانت كبيرة جداً .

١ ـــ قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى ج ٢ ص ١٣٠ .. « ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا . فأخذ اللواء خالد ابن الوليد ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا » .

٢ ـــ روى البخارى فى صحيحه عن خالد بن الوليد أنه قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبتت فى يدى إلا صفيحة يمانية » قال ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٩ : « وهذا يقتضى أنهم أثخنوا فيهم قتلا ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم » .

٣ ـــ روى الواقدى عن عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه عن النبى ﷺ أنه قال : وهو يصف ضراوة معركة مؤتة ـــ بعد أن كشف الله له . وهو بالمدينة عن مكانها وقد أخذ خالد الراية وتولى القيادة : « الآن

حمى الوطيس »[1] وهو تعبير عن عنف القتال وضراوته . وقد عبر به ﷺ عن اشتداد الجلاد فى معركة حنين .

٤ ـ ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ أن موسى بن عقبة قال إن المسلمين والروم والعرب المتنصرة التقوا على زرع أحمر فاقتتلوا قتالا شديداً .

٥ ـ ذكر الواقدى فى مغازيه ج ٢ ص عن أبى هريرة أنه قال : « شهدت مؤتة فلما دنا المشركون رأينا مالا قبل لأحد من العدة والسلاح والديباج والحرير والذهب فبرق (بكسر الراء) بصرى ، فقال لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم . قال : إنك لم تشهد بدراً معنا . إنا لم ننصر بالكثرة » فمن ثنايا هذا الحديث يفهم أن المعركة كانت رهيبة ضارية .

٦ ـ قال المقريزى فى إمتاع الأسماع ص ٣٤٨ .. « وسقط اللواء ـ أى لواء المسلمين ـ فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة (وقتلوا) ، واتبعهم المشركون ، فجعل قطبة بن عامر يصيح يا قوم ، يقتل الرجل مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا ، فما يثوب إليه أحد ، ثم تراجعوا فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح .. يا للأنصار ، فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : إلىّ أيها الناس ، فلما نظر إلى خالد ابن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ؟ فقال : لا آخذه أنت أحق به . أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدراً ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك ، فأخذه خالد فحمله ساعة ، وجعل المشركون يحملون عليه فثبت حتى تكركر[2] المشركون . وحمل بأصحابه ففض جمعا من جمعهم ، ثم دهمه منهم بشر كثير فانحاش بالمسلمين » . ثم يقول المقريزى : « ثم انكشفوا ـ أى الرومان ـ منهزمين فقتلوا منهم مقتلة لم

(١) قال المقريزى : (حمى الوطيس) كلمة لم تسمع إلا من رسول الله ﷺ ، والوطيس حفيرة تحتفر فى الأرض فتوقد فيها النار ويصغر رأسها ، ويخرق فيها خرق للدخان ثم يوضع فيها اللحم ويسد ، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق ، ولحمها شواء وهذه الكلمة من بليغ المجاز فى شدة الحرب وقيامها واحتدامها .

(٢) كركره عن الشيء : ردّه ودفعه وحبسه . فتكركر : ارتد .

يقتلها قوم »[1] .

٧ ــ وقال ابن برهان الدين فى السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٢ .. أن خالداً لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقة . وساقته مقدمة وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فظن المشركون مجيء مدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم ، وكانت مدة القتال سبعة أيام وروى البخارى عن خالد . قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية اهـ[2] .

هذه المقاطع من أقوال المؤرخين وأصحاب الحديث توحى بأن القتال استمر عنيفا ضارياً بين الفريقين فى مؤتة لمدة سبعة أيام . وأن الحرب كانت خلال هذا القتال العنيف الضارى الرهيب سجالا بين المسلمين والرومان ــ وأن الضحايا من الفريقين كانت طوال الأيام الستة كثيرة دونما شك .

ثم انهزم المسلمون فى اليوم السادس ــ وبعد مصرع قادتهم وأمرائهم الثلاثة ــ هزيمة منكرة لم يصابوا بمثلها فى العهد النبوى .. فقد مزق الرومان صفوف المسلمين إلى درجة أنه لم ير اثنان من الجند مجتمعين . وكان القتل فى المسلمين ذريعا فى تلك الفترة الصعبة .

حتى تولى خالد بن الوليد قيادة الجيش . وأعاد تنظيمه فتغير الموقف وتحول ميزان المعركة لصالح المسلمين . حيث شن بهم خالد على الرومان وحلفائهم هجوما معاكسا صاعقا فكشفهم وأنزل بهم هزيمة منكرة جعلت جند الإسلام يركبونهم ويضعون فيهم سيوفهم حيث شاءوا مما مكنهم من أن يصرعوا عدداً هائلا من جنودهم ، وجعل أصحاب المغازى والسير والحديث يصفون ذلك (كما تقدم) بأنه مقتلة لم يقتلها قوم قط .

هذا هو منطوق المعركة كما ورد فى مصادر الحديث والتاريخ .. ومفهوم هذا المنطوق .. وحسب التقديرات والاستنتاجات فى العرف العسكرى

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٤٩ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٢ .

الذى به عادة تقدر حصائل المعارك .

لابد وأن يكون عدد القتلى من الفريقين قد بلغ المئات . لأن معركة تستمر بين عشرات الألوف لمدة سبعة أيام وبتلك الضراوة والعنف اللذين أجمع المؤرخون وأصحاب الحديث على أنهما كانا طابع المعركة منذ بدايتها حتى نهايتها .. لابد وأن تكون الإصابات عبر مراحلها كثيرة للغاية ليس من المستبعد أن تصل حدود الآلاف لا المئات .

عدد قتلى الأعداء فى مؤتة

وإذا كان المؤرخون لم يذكروا سوى هذا العدد القليل من شهداء المسلمين فى المعركة . فإنه لم يأت فى جميع المصادر — ضمن قائمة ضحايا هذه المعركة الطاحنة — ذكر لعدد قتلى الرومان وحلفائهم سوى رجلين اثنين هما .

١ — مالك بن رافلة قائد قوات العرب المتنصرة .

٢ — فارس رومانى . لم يذكر اسمه . قتله أحد اليمانيين .

وعدد هؤلاء القتلى الذين ذكرهم المؤرخون — سواء كانوا من المسلمين أو الرومان وحلفائهم — لا يتناسب كما قلنا مع ضراوة المعركة وشدة القتال فيها . الذى استمر (بإجماع المؤرخين) عدة أيام .

فمما لا جدال فيه والذى تفرض التسليم به حسابات وتقديرات هذه المعركة الضارية العنيفة التى (باتفاق المؤرخين) نزلت فيها بكل من الفريقين (المسلمين أولا ثم الرومان وحلفائهم ثانيا) هزيمة لم يشهد مثلها فى تاريخه الحربى فى تلك الفترة[1] وحدثت فيها مقتلة لم يعرف الفريقان لها مثيلا فى تلك الحقبة من الزمن . كما صرح بذلك المؤرخون أنفسهم . الذين صرحوا بأن المسلمين (عقب مصرع قادتهم الثلاثة) هزموا هزيمة لم يروا مثلها فى تاريخهم وأن الرومان وحلفاءهم (عقب تولى خالد بن الوليد قيادة المسلمين) نزلت بهم هزيمة لم يشهدوا لها مثيلا . وحدثت فيهم مقتلة لم

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٤ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ وإمتاع الأسماع ص ٣٤٨ — ٣٤٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٤ وما بعدها .

يحدث فى قوم مثلها قط[1] .

استدراك وتعقيب

إذن فالذى لا يمكن لأى باحث إلا أن يرجحه هو أن عدد ضحايا هذه المعركة الطاحنة (معركة مؤتة) من الفريقين قد بلغ المئات .. واقتصار المؤرخين على ذكر أسماء هذا العدد القليل من القتلى لا ينفى هذه الحقيقة التى لابد من التسليم بها .

فالمؤرخون الذين تحدثوا عن هذه المعركة الطاحنة لم ينفوا جسامة الخسائر فى هذه المعركة وضخامة عدد القتلى فيها . بل أثبتوا ذلك فى الجملة بكل وضوح كما تقدم .

ولكنهم كمؤرخين ثقات أمناء يقدرون مسئولية ما يكتبون للأجيال التى من بعدهم لم يذكروا إلا ما أوصل الرواة إلى علمهم أسماء هذا العدد الضئيل من القتلى . الذين هم (دونما شك) أقل عشرات المرات من العدد الحقيقى لضحايا هذه المعركة الطاحنة .

وكما قلنا فإن اقتصار المؤرخين على ذكر هذا العدد القليل من شهداء المسلمين ولأقل منه من قتلى الرومان لا ينفى وجود عدد ضخم من القتلى بين الفريقين لم يتمكن أحد من إحصائهم . لذلك اكتفى المؤرخون بالإشارة إلى ضخامة عددهم دونما إعطاء تفصيل بأعدادهم وأسمائهم ، كقولهم (كما تقدم) .. فكانت الهزيمة وقتل المسلمون واتبعهم المشركون — وكقولهم : — لما تولى خالد انكشف المشركون منهزمين فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم قط .

ولكن ما بين أيدينا من مصادر تاريخية لا تذكر من قتلى المسلمين سوى عدد قليل . ذكر الواقدى أنهم ثمانية فقط . وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق أنهم اثنا عشر شهيدا .. حسب رواية الواقدى أربعة من المهاجرين . وأربعة من الأنصار . وحسب رواية ابن إسحاق . أربعة من

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٦٤ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ وإمتاع الأسماع ص ٣٤٨ - ٣٤٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٤ وما بعدها .

المهاجرين وثمانية من الأنصار . وأسماؤهم كالتالى . من المهاجرين .

١ ــ جعفر بن أبى طالب(١) .

٢ ــ زيد بن حارثة(٢) .

٣ ــ مسعود بن الأسود بن حارثة العدوى(٣) .

٤ ــ وهب بن سعد بن أبى سرح العامرى(٤) .

ومن الأنصار

١ ــ عبد الله بن رواحة(٥) من الخزرج .

٢ ــ عبّاد بن قيس(٦) من الخزرج .

٣ ــ الحارث بن النعمان بن أساف(٧) من الأوس .

٤ ــ سراقة بن عمرو بن عطية(٨) من الخزرج .

٥ ــ أبو كليب بن عمرو(٩) من الأوس .

٦ ــ جابر بن عمرو بن زيد(١٠) من الأوس .

٧ ــ عمرو بن سعد(١١) من الأوس .

---

(١) تقدمت ترجمة جعفر فيما مضى من هذا الكتاب .

(٢) انظر ترجمة زيد بن حارثة فى كتابنا « غزوة بدر الكبرى » .

(٣) هو مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف العدوى القرشى .. معروف بابن العجماء هو وأخوه مطيع من السبعين الذين هاجروا . وشهدوا بيعة الرضوان . وكان من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ .

(٤) هو وهب بن سعد بن أبى سرح الفهرى القرشى ، أخو القائد الشهير عبد الله بن سعد بن أبى سرح . قال ابن سعد فى الطبقات : شهد بدراً فى قول موسى بن عقبة . آخى الرسول ﷺ بينه وبين سويد بن عمرو . وقتلا يوم مؤتة معا .. شهد وهب أحدا والخندق والحديبية وخيبر . استشهد وله من العمر أربعون سنة .

(٥) انظر ترجمة عبد الله بن رواحة فى كتابنا « غزوة بدر الكبرى » .

(٦) هو عباد بن قيس بن عبسة بن أمية بن مالك الخزرجى الأنصارى قال ابن سعد : شهد بدراً هو وأخوه سبيع .

(٧) هو الحارث بن النعمان بن أساف بن نضلة النجارى الأنصارى .

(٨) هو سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء الخزرجى . شهد بدراً وأحداً والخندق وخيبر والحديبية

(٩) قال فى الإصابة : أبو كليب ويقال له أبو كلاب بن عمرو بن زيد بن عوف الأنصارى .

(١٠) هو جابر بن عمرو بن زيد شقيق أبى كليب .

(١١) هو عمرو بن سعد بن الحرث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن أقصى بن حارثة . ذكره ابن =

٨ ــ عامر بن سعد[1]   من الأوس .

هذه هي الأسماء التي ذكر المؤرخون أن أصحابها استشهدوا من المسلمين . ثمانية فقط على ما قاله الواقدي . واثنا عشر على ما ذكره ابن إسحاق . وبقية المؤرخين لا يخرجون عن نطاق هذا العدد .

وهو عدد لا يتناسب وما وصف به المؤرخون (دونما استثناء) المعركة من ضراوة وعنف وشدة وطول جلاد استمرت سبعة أيام متوالية لا يفصل فيها بين عشرات الألوف من المتحاربين إلا ظلام الليل .

ويمكن أن يبرز هنا سؤال وهو .. أن عنف المعركة وضراوتها وعدم تمكن الجيش الإسلامي من البقاء في ساحاتها (بعد انتهائها) وقتا كافيا يمكنه من إحصاء عدد قتلى الأعداء من الرومان وحلفائهم من العرب غير المسلمين . الذين أكد المؤرخون أنه عدد كان ضخما للغاية . حيث وصفوا بأن مقتلة حدثت فيهم لم يحدث مثلها قط . فلماذا لم يذكر المؤرخون المسلمون سوى عدد قليل من قتلى المسلمين الذين لابد وأن يكونوا (تناسبا مع طول المعركة وضراوتها وعنفها) أكثر بكثير من هذا العدد القليل الذي لم يتجاوز الاثنى عشر شهيداً على ما جاء في سيرة ابن هشام ، وثمانية شهداء على ما جاء في مغازي الواقدي ؟؟

ويمكن الإجابة على التساؤل بما يلي :

١ ــ إن اقتصار بعض المؤرخين على ذكر هذا العدد القليل من قتلى المسلمين . لا ينفي (بصورة قاطعة) أن يكون عدد الشهداء أكثر بكثير من هذا العدد . فأصحاب السير لا يسجلون في سجلاتهم إلا ما ثبت لديهم من الأسماء .

٢ ــ يمكن القول أن جمهرة الجيش الإسلامي في مؤتة هم من أبناء البادية من مختلف القبائل الذين لم يكونوا من سكان المدينة المعروفين . بدليل أن قائد ميمنة المسلمين هو رجل من بني عذرة . وهي قبيلة بدوية . لم

= شهاب في مختصر السيرة النبوية .

(١) هو عامر بن سعد أخو عمرو بن سعد بن عامر بن ثعلبة .

يترجم له أصحاب معاجم تراجم الصحابة بسوى قولهم أنه عباية بن مالك العذرى .

٣ ــ يتضح للمتتبع لمراحل معركة مؤتة أن قادة وزعماء ووجوه المهاجرين والأنصار وأهل السابقة لم يأت ذكر لأسمائهم بين قادة وجنود جيش الإسلام فى مؤتة . إذا استثنينا زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وثابت بن أقرم وخالد بن الوليد الذى لم يمض على إسلامه يوم ذاك سوى ثلاثة أشهر : الأمر الذى يعضد القول : أن جمهرة الجيش الإسلامى هم من أهل البادية من مختلف القبائل الذين عمر الإسلام قلوبهم حديثا .فخاضوا تلك المعركة الضارية العنيفة الطويلة بتلك الشجاعة والبسالة المتناهيتين .

٤ ــ من هنا أمكن القول . ..إن شهداء كثيرين من مختلف أبناء القبائل (البادية) صرعوا فى هذه المعركة الطاحنة ، لم يتمكن أحد ممن هم مرجع لرواة الحديث والسير والتراجم من التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم وإحصاء عددهم . لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المسلمين لم يسيطروا على مكان المعركة (بأية صورة من الصور) بعد انتهائها ، يمكنهم من التعرف على كل القتلى وإحصاء عددهم . بل كان همهم الوحيد بعد أن صرع قادتهم الثلاثة وبعد أن استمر القتال سبعة أيام أن ينسحبوا ببقية الجيش سليماً من الميدان ودونما خسارة تذكر . وهذا هو الذى حدث بالفعل

فبالخدعة الحربية التى ذكرنا تفصيلها فيما مضى من هذا الكتاب تمكن خالد بن الوليد من أن يسحب الجيش الإسلامى ويخلصه من خطر الإبادة أو الوقوع فى الأسر .. فترك الميدان للرومان وحلفائهم فبقى مكان المعركة تحت سيطرة الرومان وحلفائهم . وهؤلاء (لبقائهم مسيطرين على ساحة الميدان بعد انتهاء المعركة وانسحاب المسلمين الذين انسحب بهم خالد على عجل وفى حذر شديد) يستطيعون أن يحصوا بحرية ودقة عدد القتلى من الفريقين . ويسجلوهم فى سجلات تاريخهم . ولكن ما بين أيدينا من مصادر التاريخ البيزنطى المترجم (وهو شىء قليل جداً) لم نجد فيه أى ذكر لمعركة مؤتة بل ولا حتى لمعركة اليرموك التاريخية الشهيرة .

وقد يكون البيزنطيون أرخوا لمعركة مؤتة وذكروا تفاصيلها وأعطوا إحصاءا دقيقا عن عدد قتلى الفريقين .ولكن هذا التاريخ ضاع كما ضاع العنصر البيزنطى نفسه وتلاشى بعد أن اختلط وامتزج بسلالات وشعوب أخرى حتى لم يعد له أى وجود كأمة مستقلة .كما هو الحال بالنسبة للعرب .

أما الشهداء الاثنا عشر فكلهم مشهورون معروفون فهم من الأنصار والمهاجرين ومن أهل المدينة .فعندما افتقدهم أهلوهم شاع خبر استشهادهم وسهل على رواة الحديث وكتاب التاريخ والسير أن يسجلوهم فى سجلاتهم . لاسيما وأن قطبى تدوين السيرة النبوية (محمد بن عمر الواقدى ومحمد بن إسحاق) هما من أهل المدينة .

أما الشهداء من أبناء القبائل من أهل البادية (وهم الأكثرون فيما نظن) فلم يكن (بالتأكيد) لشيوع ذكر استشهادهم ما كان لشيوع ذكر استشهاد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ، لأن ذويهم منتشرون متفرقون فى نواحى البادية . فصار من الصعب على المختصين فى تدوين السير والمغازى من أهل الحاضرة الحصول على أسمائهم وأعدادهم ، وليس هناك ديوان إحصاء للجند فى ذلك العهد يسجل فيه المنخرطون فى سلك الجيش . ثم إثبات أسماء الذين تم استشهادهم فى المعركة . حتى يحرص ذوو الشهداء من أهل البادية على تسجيلهم فى هذا الديوان . ويسهل بالتالى على كتاب السير والمغازى الحصول على أسمائهم وأعدادهم بصورة دقيقة كاملة .. فمما لا شك فيه (إذن) أن هناك جنودا للإسلام مجهولين كثيرين استشهدوا فى معركة مؤتة الطاحنة كلهم من أبناء القبائل البادية . لم يعرف عددهم ولم تعرف أسماؤهم للأسباب التى ذكرنا .

هذا مجرد اجتهاد واستنتاج وتقييم جعلنا نبديها استساغتنا للقاعدة الفلسفية التاريخية التى وضعها فيلسوف التاريخ والاجتماع الأول الإمام ابن خلدون والتى أخذنا بها ..والقائلة (وكما طبقها الإمام ابن خالدون فى مقدمته الشهيرة) أن على المؤرخ الباحث أن لا يجمد على النصوص المتعلقة بالتاريخ بل عليه أن يقيم الأحداث ويزن الأمور بميزان العقل ويستخرج

الحقائق أيضا من الواقع التاريخى والتى قد لا تكون النصوص كافية لإثباتها أو استخراجها كلها من واقع الأحداث التى عنها نتحدث .

واستنادا إلى قاعدة الفيلسوف ابن خلدون التى وضعها لتقييم التاريخ واستخدام العقل ـــ بالإضافة إلى النصوص ـــ للغربلة والاستدراك والاستنتاج . أدى بنا الاجتهاد والاستنتاج والمقارنة والتقييم إلى الاعتقاد بأن عدد القتلى التى ذكرتها النصوص فى كتب التاريخ (كحصيلة لمعركة مؤتة الفاصلة الرهيبة) لا تتناسب وضراوة هذه المعركة وعنفها والأعداد الهائلة من المحاربين الذين اشتركوا فيها وظلوا يتجالدون فيها طوال عدة أيام ، حسبما ذكره وأجمع عليه كافة المؤرخين وأصحاب المغازى والسير .

وعلى العموم فإن هذا القول منا . هو مجرد نظر واجتهاد واستنتاج ، قد نكون مخطئين فيه والكمال لله وحده وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تعقيب ابن كثير على عدد قتلى المسلمين فى المعركة

ويمكن القول أن إماما واحدا من أئمة كتاب التاريخ ـــ هو الإمام ابن كثير صاحب أكبر موسوعة فى التاريخ وهى البداية والنهاية ـــ قد عقب على قلة عدد القتلى المسلمين فى هذه المعركة الطاحنة . فاستعجب أن يكون عدد القتلى اثنا عشر فقط : مع ضراوة المعركة وشدتها وضخامة الأعداد الهائلة من المحاربين الذين اشتركوا فيها لعدة أيام . فقال (بعد أن ذكر أسماء الاثنى عشر شهيدا من المسلمين وكأنه قد استقل هذا العدد) .. وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان فى الدين ، أحدهما وهى الفئة التى تقاتل فى سبيل الله (عدتها ثلاثة آلاف) وأخرى كافرة (وعدتها مائتا ألف مقاتل) ، من الروم مائة ألف ، ومن نصارى العرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصاولون ، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلا ، وقد قتل من المشركين خلق كثير .. هذا خالد بن الوليد وحده يقول .. لقد اندقت فى يدى يومئذ تسعة أسياف وما صبرت فى يدى إلا صفيحة يمانية[1] فماذا ترى قد قتل (أى خالد) بهذه الأسياف كلها : دع غيره من الأبطال

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٩٥ طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

والشجعان . ثم يقول الإمام ابن كثير : « وهذا مما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ »(١) . اهـ(٢)

هل انتصر المسلمون فى مؤتة أم انهزموا ؟ .

إن سياق أصحاب المغازى والسير فيه اختلاف (بعض الشيء) فى وصف معركة مؤتة والحال التى كان عليها الجيش الإسلامى . فبعضهم يقول : إنهم انهزموا بعد مقتل قادتهم الثلاثة ومضوا فى هزيمتهم حتى المدينة وبعضهم يقول : إنهم صبروا وقاتلوا قتالًا شرساً ولم يتمكن الرومان من التغلب عليهم . حتى صُرع قادتهم الثلاثة . فأصابتهم الهزيمة . وأخذوا فى الفرار . إلا أنَّ خالد بن الوليد أنقذ الموقف حين تسلّم قيادة الجيش فأعاد المنهزمين وقام بتنظيم الجيش من جديد وشنَّ على الرومان هجوماً مضاداً أزال به صفوفهم وأشاع الرعب فى قلوبهم وأحدث فيهم مقتلة عظيمة ثم انسحب بالجيش سليماً دونما أيَّ فوضى أو اضطراب . وهذا هو الذى سماه بعض المؤرخين فتحاً .. وهذا الرأى الأخير هو الرأى الصحيح وهو ما شهد به النبى ﷺ فى حديث أدلى به من على منبر المسجد فى المدينة فقد قال ﷺ ــ وهو أصدق الصادقين ــ . قال وهو يصف معركة مؤتة لأهل المدينة كما أراها الله : « باب خير باب خير باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازى . إنهم انطلقوا فلقوا العدوَّ . فقُتِل زيد شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية جعفر . فشدَّ على القوم حتى قُتِل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قُتِل شهيداً فاستغفروا له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره . وفى لفظ ثم أخذ الراية خالد بن الوليد . نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين من

---

(١) آل عمران / آية ١٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٩ .

غير إمرة حتى فتح الله عليه »[1] .

ماحدث فى مؤتة هو فتح للمسلمين بدون شك :

والواقع أننا إذا نظرنا إلى أصل المهمة التى من أجل تحقيقها بعث النبى ﷺ هذا الجيش إلى الشام . لوجدنا أنها مهمة تأديبية فقط . ولم يكن وارد (إطلاقاً) فى تعليمات الرسول لقادة هذا الجيش أن يحتلوا أيَّة منطقة من الشام . بل كـان الهدف التأديب والانتقام من الغادرين الذين قَتَلوا (غدراً) رسول النبى ﷺ المبعوث إلى ملك الغساسنة فى الجولان . وغدروا بخمسة عشر من الصحابة قتلوهم داخل بلاد الشام وهم بعثة سلام مهمتهم دعوة الناس إلى الإسلام بالحسنى .

فهى (إذن مهمة تأديب وانتقام) على الجيش أن يقوم بها ثم يعود إلى المدينة . ولكن هذا الجيش الصغير (ثلاثة آلاف مقاتل) فوجىء بما لم يكن فى الحسبان . حين وجد نفسه أمام مائتى ألف مقاتل من الرومان والعرب المتنصرة . ولكن قادة الجيش (مع ذلك) واصلوا تحرّكهم حتى اصطدموا بالرومان وحلفائهم فى (مؤتة) على النحو الذى فصلناه . فقاتلوهم سبعة أيام (ورغم قلتهم وكثرة العدو) أنزلوا بالعدوِّ (وخاصة بعد تسلم القائد خالد قيادة الجيش) خسائر فادحة وقتلوا ضمن من قتلوا (سدوس) أخا شرحبيل ابن عمرو الذى غدر برسول النبى ﷺ الحارث بن عمير فقتله (صبراً) . كما قتلوا القائد العام لقوات العرب المتنصرة . مالك بن رافلة[2] .

كما أن القائد ابن الوليد (على أصح الروايات) لم ينسحب بالجيش من (مؤتة) إلى المدينة إلا بعد أن ترك الجيش الرومانى فى حالة اضطراب وهزيمة .

إذن فالجيش النبوى لم ينهزم ولم يفر من (مؤتة) . وإنما انسحب بعد أن قام بالمهمة التى أوكلها إليه الرسول القائد ﷺ .. وذلك الذى صنعه خالد بن الوليد هو عين الانتصار والفتح ، كما أكد ذلك رسول الله ﷺ كما تقدم .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٠ .

والواقع الذى لابد من أن يسلم به الباحث عقب تحقيقه فى مختلف النصوص المتعلقة بمعركة (مؤتة) هو أن جيش الإسلام قاتل ببسالة منقطعة النظير طوال ستة أيام . ولكنه فى اليوم السادس أصيب بهزيمة منكرة ، وتمزق تمزقاً مريعاً . ولكنه فى اليوم نفسه استعاد تنظيمه فتلاحمت صفوفه من جديد ، بعد أن تحمل القائد خالد بن الوليد مسئولية قيادته ، فأعاد إليه ثقته بنفسه . ثم قاده إلى القتال من جديد حتى جعله فى اليوم السابع ينزل بالرومان وحلفائهم أشنع هزيمة ، ويسجل لنفسه أروع انتصار . سماه النبى ﷺ — كما تقدم فى رواية البخارى — فتحاً . يضاف إلى ذلك ما رواه ابن سعد فى طبقاته الكبرى عن صاحب رسول الله ﷺ أبى عامر [1] أن المسلمين فى (مؤتة) هزموا أسوأ هزيمة عرفوها في تاريخهم عقب استشهاد قادتهم الثلاثة ، ثم هزموا (بعد ذلك) أعداءهم الرومان وحلفاءهم أشنع هزيمة عرفوها فى تاريخهم . حيث ركبهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف حيث شاءوا . وذلك بعد أن تولى خالد بن الوليد قيادة الجيش[2] .

رأى ابن كثير فى هزيمة المسلمين وانتصارهم

ومن المؤرخين الذين اعتبروا ما قام به المسلمون فى (مؤتة) هو فتحاً وانتصاراً .. الإمام ابن كثير الحجة والقدوة فى التاريخ وقد أيد رأيه هذا فى كتابه (البداية والنهاية) بعدة أدلة فقال :

لما قتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا ، وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته وميمنته ميسرته ، فأنكروا (أى الرومان) ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم (يعنى المسلمين) وقالوا : قد جاءهم مدد ،

---

(١) أبو عامر هذا ذكره ابن منده وأخرج من طريق عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه عن سالم ابن أبى الجعد عن أبى اليسر عن أبى عامر (نفسه) قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى الشام فذكر الحديث (الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ج ٤ ص ١٢٤) .

(٢) انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٣٠ .

فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم . ثم يسند ابن كثير رأيه هذا بقول إمام آخر فى التاريخ هو موسى بن عقبة فيقول .. وهذا يوافق ما ذكره موسى بن عقبة[1] رحمه الله فى مغازيه ، فإنه قال بعد عمرة الحديبية ثم صدر رسول الله ﷺ إلى المدينة فمكث بها ستة أشهر ، ثم أنه بعث جيشاً إلى مؤتة . فانطلقوا حتى إذا لقوا ابن أبى سبرة الغسانى بمؤتة وبها جموع من نصارى العرب والروم ، بها تنوح وبهراء فأغلق ابن أبى سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام ، ثم التقوا على زرع أحمر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقتل ، ثم أخذه جعفر فقتل ، ثم أخذه عبدالله بن رواحة فقتل ، ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومى فهزم الله العدو وأظهر المسلمين .

ثم يعلق ابن كثير على كلام موسى بن عقبة فيقول : فهذا السياق فيه فوائد كثيرة ليست عند ابن إسحاق ، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق من أن خالداً إنما حاش بالقوم حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى فقط . وموسى ابن عقبة والواقدى مصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم ، وهو ظاهر الحديث المتقدم عن أنس مرفوعاً .. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه ، ورواه البخارى ، وهذا هو الذى رجحه ومال إليه الحافظ البيهقى بعد حكاية القولين لما ذكر من الحديث . ثم يستطرد ابن كثير فيقول : قلت : ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين ، وهو أن خالداً ، لما أخذ الراية حاش بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدى الكافرين من الروم والمستعربة ، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ـــ كما ذكره الواقدى ـــ توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين ، فلما حمل عليهم خالد هزمهم بإذن الله ، والله وأعلم .

وفى موضع آخر يقول ابن كثير (معضداً رأيه بأن جيش الإسلام قد انتصر فى مؤتة) يقول : بعد أن يورد حديثاً مطولا رواه الإمام أحمد عن عوف

(١) هو موسى بن عقبة بن أبى عياش الأسدى ، يعتبر من أقدم وأوثق المؤرخين وكتابه فى المغازى من أهم المصادر لمن أتى بعده من المؤرخين . وهو من طبقة ابن إسحاق والواقدى . وأثنى عليه الإمام مالك فقال : عليكم بمغازى موسى بن عقبة .

ابن مالك الأشجعى عن معركة مؤتة وقصة الجندى اليمانى الذى قتل أحد فرسان الروم وغنم فرسه وسلاحه ، فصادر خالد كل ذلك من الجندى اليمانى . فشكاه إلى رسول الله ﷺ فأمر الرسول ﷺ خالداً أن يعيد إلى الجندى اليمانى ما كان قد صادره منه (فرس الرومى وسلاحه) ـــ يقول ابن كثير : وهذا يقتضى أنهم (أى المسلمين) غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم ، وقد تقدم فيما رواه البخارى أن خالداً (رضى الله عنه) قال : اندقت فى يدى يوم (مؤتة) تسعة أسياف وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية ، وهذا يقتضى أنهم أثخنوا فيهم قتلاً ، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم .

ثم يقول ابن كثير : وهذا هو اختيار موسى بن عقبة والواقدى والبيهقى ، وحكاه ابن هشام عن الزهرى . قال البيهقى رحمه الله : إنه اختلف أهل المغازى فى فرارهم (أى المسلمين) وانحيازهم ، فمنهم من ذهب إلى ذلك ، ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا على المشركين ، وأن المشركين انهزموا . قال : وحديث أنس بن مالك (أى الذى أخرجه البخارى) عن النبى ﷺ « ثم أخذها ـــ (أى الراية) ـــ خالد ففتح الله عليه » يدل على ظهورهم والله أعلم .

ثم يزيد الإمام ابن كثير رأيه تعضيداً فيقول : وقد ذكر ابن إسحاق أن قطبة بن قتادة العذرى ـــ وكان رأس ميمنة المسلمين ـــ حمل على مالك بن رافلة . وهو أمير أعراب النصارى فقتله ، وقال يفتخر .

طعنت ابن رافلة بن الأراش برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمه غداة رقوقين سوق النعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه لأن من عادة أمير الجيش إذا قتل أن يفر أصحابه ، ثم إنه صرح فى شعره أنهم سبوا من نسائهم ، وهذا واضح فيما ذكرناه والله أعلم . وأما ابن إسحاق فإنه ذهب إلى أنه لم يكن إلا المحاشاة والتخلص من أيدى الروم ، وسمى هذا نصرا وفتحا « أى باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو

بهم وتراكمهم وتكاثرهم وتكاثفهم عليهم ، فكان مقتضى العادات أن يصطلحوا بالكلية ، فلما تخلصوا منهم انحازوا عنهم ، كان هذا غاية المرام فى هذا المقام ، وهذا محتمل ، لكنه خلاف الظاهر من قوله عليه الصلاة والسلام « ففتح الله عليهم » والمقصود أن ابن إسحاق يستدل على ما ذهب إليه . فقال : وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد بن الوليد ومحاشاته بالناس وانصرافه بهم . قيس بن المحسر يعتذر عما صنع يومئذ وصنع الناس يقول :

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى ... على موقفى والخيلُ قابعة قُبُلْ
وقفتُ بها لا مستجيزا فنافذا ... ولا مانعاً من كان حُمَّ له القَتْلْ
على أننى أسيت نفسى بخالد ... ألا خالد فى القوم ليس له مَثل
وجاشت إلىَّ النفس من نحو جعفرٍ ... بمؤتة إذا لا ينفع النابل النَّبل
وضم إلينا حجزتيهم كليهما ... مهاجرة لا مشركون ولا عذل

قال ابن إسحاق : فبيّن قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك فى شعره أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت ، وحقق انحياز خالد بمن معه . قال ابن هشام : وأما الزهرى فقال ـــ فيما بلغنا عنه أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى رجع إلى المدينة[1] .

تحقيق المقام فى أن ما قام به خالد فى مؤتة نصر لا مثيل له

والواقع أن ما فعله جيش الإسـلام الصغير فى (مؤتة) وما قام به القائد الفذ خالد بن الوليد من انسحاب منظم بهذا الجيش حتى وصل به المدينة سليماً وعلى تعبئة تامة . بعد قتال ضار عنيف استمر سبعة أيام ، فى (مؤتة) هو عين البطولة ، ويمثل أعلى درجات النصر .. هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية فى كل عصر وزمان .

وإلا فماذا يريد الذين يصرون على تسمية ما حدث من جيش الإسـلام فى (مؤتة) هزيمة وانكساراً وفراراً ؟ .

هل يريدون من هذا الجيش الصغير أن يظل يصارع الرومان حتى يفنى عن آخره جوعاً أو قتلاً بالتقسيط .

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ .

إن بقاء الجيش الإسلامى يقاتل الرومان فى مؤتة إلى ما لا نهاية (بعد استمراره سبعة أيام يقاتلهم فيها بضراوة) يعتبر ضرباً من الانتحار . لايرضاه النبى ﷺ . ولهذا رأينا النبى ﷺ يثنى أعظم الثناء على القائد خالد بن الوليد ويسميه سيف الله . لأنه انسحب بالجيش انسحاباً منظماً جنبه ما كان يخشى عليه من إبادة وتمزيق .

أعلى وسام فى الدولة تمنحه بريطانيا للقائد الذى نجح فى الانسحاب من أدنكرك

وفى القرن العشرين رأينا كيف منحت ملكة بريطانيا القائد الإنكليزى فى (فرنسا) أعلى وسام فى الدولة لأنه نجح فى الانسحاب بالجيش من دانكرك فى فرنسا إلى بريطانيا بأقل خسارة ممكنة . انسحب من أمام جيش الألمان الذى هو مساو له فى العدد . ولكن الجيش البريطانى كان منهكاً فى القتال لبعد خطوط تموينه وعدم وجود من يخلفه ليأخذ شيئاً من الراحة .

فكيف إذن لا يسمى ما قام به خالد بن الوليد حين قام بسحب جيشه على ذلك النحو المشرف . وبذلك الأسلوب البارع أمام سمع وبصر مائتى ألف مقاتل من الأعداء وقفوا مشلولى الحركة لايحركون ساكناً ضد هذا الجيش الصغير وهو ينسحب من الميدان . مع أن عدده لايزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .. كيف لا يسمى ما قام به خالد بن الوليد نصراً وفتحاً ؟ ..

وما أعرف الرسول النبى والمحارب والقائد ﷺ وأبصره بالشئون العسكرية وما أقدره على تقدير ظروف وملابسات المعارك . ولقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمة فى المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد لقب (سيف الله) فى الوقت الذى تلقى فيه جمهور المدينة خالدا وجيشه بالحجارة يقذفونهم بها والتراب يحثونه فى وجوههم . ساعة عودتهم من معركة مؤتة .

إن تصرف الرسول القائد ﷺ إزاء القائد والجيش العائدين من (مؤتة) يدحض كل زعم قائل : إن جيش المسلمين قد فر وانهزم . أو أنه لم يحقق الأهداف التى تحرك من المدينة لتحقيقها .

دروس من معركة مؤتة

لقد كانت أحداث معركة (مؤتة) الخالدة دروسا يجب أن ينظر فيها بإمعان ويتلقاها بكل تفهم ؛ كل جيل من أبناء الإسلام يطمع حقاً فى نيل العزة والكرامة والرفعة والسمو بانتزاع عناصر الهزيمة والمزلة من النفوس .

نظرة وتحليل

لقد كانت هناك أعظم الدروس التى يمكن بل يجب استخلاصها مما حدث من الصحابة فى معركة (مؤتة) بالشام. فحرب الأيام الستة التى خاضها (بكل ضراوة وعنف واستبسال) ثلاثة آلاف مسلم ضد مائتى ألف من الرومان وأتبعهم الذين يفوقونهم (من الناحية البشرية) سبعين ضعفا . ويتفوقون عليهم فى التكنولوجيا (العلوم العسكرية) وحسن التسليح ووفرته بما لا جدال فيه لدى أى من المؤرخين (مسلمين كانوا أم غير مسلمين) هذه لحرب التى ثبت وقاتل واستبسل فيها المسلمون على ذلك النحو البطولى . ترك درساً خالداً لايزال حياً ويجب أن يتلقاه الجندى المسلم فى كل مراحل تدريبه العسكرى وتسقيفه الحربى وهو أن العقيدة السليمة المكينة التى تربط بين الإنسان وربه . وتجعله على صلة صحيحة صادقة بربه . غاية ما يتمنى الاستشهاد فى سبيله تعالى. يشترط تمركزها فى نفس كل محارب مسلم قبل كل شىء .

لأن تغلغل العقيدة الإسلامية الصحيحة فى النفس قد أعطت (عملياً) النتائج الإيجابية الرائعة المدهشة إلى درجة تقرب من المعجزة .

فلولا تغلغل هذه العقيدة فى أعماق الرجال الذين خاضوا معركة مؤتة ضد الرومان . لما فكروا فى البقاء لحظة داخل الأراضى الرومانية (فى البلقاء) فضلًا عن تفكيرهم فى مواصلة الزحف والاصطدام بالجيش الرومان . بعد أن أفادت تقارير استخباراتهم أن قوات هذا الجيش تتفوق عليهم فى العدد سبعين ضعفا .

إنه بالرغم من ضرورة الاهتمام بالإعداد المادى من رجال وخيل وسلاح لخوض المعارك كما حث على ذلك القرآن الكريم ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن

رباط الخيل ﴾[1] فقد أثبت أبطال (مؤتة) المسلمون من أصحاب محمد أن القوة المادية ليست كل شيء فى كسب النصر أو الحيلولة دون التعرض للهزائم الساحقة وإنما الشرط الأساسى لكسب النصر . أو الصمود والثبات لمنع وقوع الهزائم الساحقة المدمرة . هو توفر العقيدة السليمة الصادقة وتغلغلها فى قلب الإنسان المسلم .

كيف انتصرت العقيدة فى مؤتة

لقد كان كل شيء مادى يوحى على نحو لا يقبل النقاش على أن الهزيمة الساحقة المدمرة ستكون من نصيب الجيش الإسلامى فى مؤتة .

فمن وجهة النظر العسكرية وحسب المقاييس والموازين الحربية العادية التى بها يتم تقييم الموقف الحربى ويعطى بها (مقدما) ما يشبه الحساب الذى لا يخطئ . كان النصر مضموناً للرومان على المسلمين كنتيجة حتمية لتفوقهم الهائل الساحق على المسلمين فى كل شيء .

فجيش الإسلام (حسب هذه الموازين والمقاييس العسكرية) مقضى عليه فى (مؤتة) على أيدى الرومان إما بالموت وإما بالوقوع فى الأسر .

وهذا تقدير لايمكن لأى خبير عسكرى أن يطعن فى صحته من وجهة النظر العسكرية العادية التى عَبْرَها يضع القادة الخطط وينتظرون النتائج للمعارك .

فثلاثة آلاف مقاتل . مهما بلغوا من الشجاعة وقوة البأس وشدة المراس والصبر على الحرب لا يمكنهم (حسب المقاييس العادية الطبيعية) الصمود ساعة واحدة فى وجه مائتى ألف مقاتل بل لا يمكنهم النجاة من أن يُقتَلوا أو يقعوا جميعهم أسرى فى أيدى تلك القوات الكثيفة الغامرة الهائلة التى كانت تحيطهم كما يحيط البحر الهادر نقطة من اليابسة صغيرة .

ذلك هو التقدير الصحيح والمفهوم الذى لا غبار على صحته وسلامته لدى من ينظرون إلى المعارك على أنها قتال بين فريقين . هم من طينة واحدة

---

(١) الأنفال / ٦١ .

(طينة البشر) . تكون فيها (عادة) الغلبة والنصر للأكثر عدداً والأجود تسليحاً والأحسن تدريباً والأكثر علماً بفنون الحرب . وكل هذه العناصر المطلوب توفرها لكسب النصر الساحق . كانت متوفرة لدى قيادة الجيش الرومانى الذى تصادم مع جيش الإسلام فى مؤتة .

ولكن جيش الإسلام الصغير فى (مؤتة) قلب موازين النظريات العسكرية التقليدية التى تقول : إنه ــ لكى تضمن القيادة النصر ــ يجب إعداد المحارب إعداداً مادياً كاملًا من حيث التسليح والتدريب والإلمام بالعلوم العسكرية وفنونها (تكنولوجياً) والتفوق فى العدة والعدد .

فقد أثبت الصمود الرائع ــ الذى أبداه المسلمون فى معركة مؤتة والذى يمكن .. نظراً لعدم التكافؤ بين القوتين المتحاربتين وصفه بأنه أعلى نموذج للنصر المؤزر ــ . أثبت أن التفوق فى القوة المادية . بل وحتى العلوم والفنون العسكرية ليس هو كل شيء لكسب المعارك .

وإنما العامل الأساسى والأول لكسب النصر وتحقيق الأهدف فى المعارك هو العقيدة الصحيحة السليمة .

وهذا هو الذى أثبتته عملياً وخلدته فى سجل التاريخ ــ كحقيقة واقعة ــ أحداث معركة مؤتة التاريخية .. فمتانة العقيدة ورسوخها فى نفوس الجيش الإسـلامى . قد أبطلت عامل التفوق الهائل لدى الجيش الرومانى فى معركة (مؤتة) .

إذ جعلت العقيدة الإسـلامية ــ لا القوة الحربية لدى المسلمين ــ الجيش الرومانى يبدو وكأنه مصاب بالشلل .

وإلا فما هو التفسير لصمود ثلاثة آلاف مقاتل فى وجه مائتى ألف مقاتل سبعة أيام متوالية ثبت المسلمون خلالها . وظلوا يقاتلون الرومان فيها قتالًا شرساً ضارياً . موقفين تقدمهم ومنزلين بهم أفدح الخسائر .

وعندما قتل آخر قائد من قادة الجيش الإسلامى الثلاثة ورجحت كفة الجيش الرومانى وبدا وكأنه قد كسب المعركة نهائياً . وأن إبادة هذا الجيش

الصغير أصبحت أمراً مفروغاً منه . إذا بالقائد الجديد لهذا الجيش يعيد تنظيمه (فى تلك الساعات الحاسمة) من جديد ويشن به هجوماً كاسحاً يشيع الفوضى والهلع والارتباك فى صفوف الجيش الرومانى . ثم ينسحب بسلام وانتظام دون أن يخسر رجلًا واحداً . ودون أن يجرأ الجيش الرومانى على تعقبه وملاحقته أثناء انسحابه . مع علم قيادة الجيش الرومانى . أن الجيش الإسلامى الصغير المنسحب . تفصله عن عاصمته التى قرر الانسحاب إليها مسافة لا تقل عن ستمائة ميل . مزروعة كلها بعناصر معادية للجيش المسلم الأمر الذى يجعل (حسب المقاييس العسكرية العادية) من السهل على الجيش الرومانى تعقب الجيش الإسلامى المنسحب وتمزيقه وإبادته .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . بل ــ بدلًا من أن تفكر قيادة الجيش الرومانى فى مطاردة الجيش الإسلامى المنسحب ومهاجمته وهو ينسحب ــ كان سرورها عظيماً بانسحابه من الميدان . لأنها عانت منه خلال الأيام الستة فى مؤتة ما نسخ من أذهانها كل مفاهيمها عن المحارب العربى بعد أن أصبح مسلماً . له عقيدة يرى الاستشهاد فى سبيل نصرتها غاية ما يتمنى . فما هو السر فى كل هذا الذى حدث مما يمكن اعتباره من الخوارق للعادة ؟ .

إن الباحث العسكرى الخبير المنصف ــ وهو يضع أحداث معركة مؤتة فى المختبر للتحليل ــ لن يجد أية صعوبة (بعد ظهور عدم التكافؤ بين الجيشين المتصادمين فى مؤتة على النحو الذى فصلنا) . لن يجد أية صعوبة فى إصدار حكمه القاطع بأن ما حققه الجيش الإسلامى الصغير من انتصارات بصموده ذلك الذى بلغ ما يقرب الإعجاز . إنما كان يرجع إلى عامل واحد . هو عامل العقيدة . عقيدة الإسلام التى رسخت فى قلب كل جندى من جنود ذلك الجيش المسلم الصغير .

والتى كانت الإيجابية الرئيسية لرسوخ هذه العقيدة هو حرص كل واحد من هؤلاء الجنود على الموت فى سبيل الله أكثر من حرصه على الحياة .. هذه الإيجابية الرائعة التى عبر عنها أصدق تعبير القائد الثالث فى هذه المعركة التاريخية الخالدة بقوله : (والله ياقوم إن التى تكرهون لهى التى خرجتم تطلبون الشهادة فانطلقوا بنا إلى عدوّنا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما

شهادة) وذلك عندما تردد بعض الصحابة (بمدينة معان) فى مصادمة الرومان عندما بلغهم العدد الهائل الذين هم فيه .

إذن فالعامل الرئيسي فى الانتصارات الرائعة التى حققها المسلمون فى معركة (مؤتة التاريخية الخالدة إنما هو العقيدة الإسلامية الراسخة التى أبطلت فعاليتها العظيمة عامل التفوق المادى والعلمى الساحق لدى الجيش الرومانى وجعلت هذا التفوق (فى ميزان النتائج) يبدو وكأنه صفر من اليسار فى علم الحساب .

وعامل العقيدة الإسلامية الصادقة وتغلغلها ورسوخها فى نفس المحارب المسلم لم يكن فى معركة (مؤتة) وحدها العامل الرئيسى الأول فى إبطال عامل التفوق المادى الساحق الذى يواجهه المحارب المسلم فى العهود التى كانت عزة الإسلام فيها هى السائدة الغالبة المنتصرة .

بل لقد كان المحاربون المسلمون دائماً فى تلك العهود يتفوق عليهم أعداؤهم فى العدد والعدة وكل مستلزمات النصر المادية والفنية . ولكن النصر الساحق دائماً يكون للمسلمين على أعدائهم فى كل تلك المعارك .

هذه حقيقة واقعة ناصعة شهدتها (معارك بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين . واليمامة وبزاخة[١] واليرموك والقادسية ونهاوند[٢] وجبل الطارق وزلاقة[٣]

---

(١) بزاخة (بضم أوله وفتح ثانيه) ماء لبنى أسد بن خزيمة بنجد دارت فيه معركة فاصلة بين جيوش الخلافة بقيادة خالد بن الوليد وبين قوات المرتدين بقيادة طليحة بن خويلد الأسدى .

(٢) نهاوند (بفتح أوله وثانيه وسكون ثالثه) مدينة عظيمة فى فارس فتحها النعمان بن مقرن المزنى . ثم استشهد فى معركة فتحها . ومعركتها حاسمة تشبه معركة القادسية . واستشهد فيها أيضا عمرو بن معدى كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الأسدى وكلا الرجلين ارتدا عن الإسلام ثم تاب وجاهد فى سبيل الله حتى استشهد .

(٣) زلاقة (بفتح الزاى وتشديد اللام) موضع فى شمال الأندلس قرب الحدود الفرنسية . دارت فيها معركة طاحنة بين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين البربرى حاكم مراكش وعرب الأندلس من جهة وبين الملك الأذفونش من جهة أخرى . وقد انتصر فيها المسلمون بعد قتال مريع وبعد أن انهزمت بعض طلائعهم أمام النصارى وقد جرح فى هذه المعركة الملك الأذفونش . ثم مات – بعد ذلك – متأثراً بجراحه .

وحطين[1] والقسطنطينية[2] وذات الصوارى[3] فالانتصارات العظيمة فى تلك المعارك الحاسمة وأمثالها . والتى مكنت الإسلام وجعلت المسلمين (فترة من الزمن) أعز أمة فى الأرض . لم يكن العامل فى تحقيقها عامل التفوق المادى بكثرة العدد والعُدد . ولاعامل التفوق (التكنولوجى) بإجادة العلوم والفنون العسكرية . كلا فعامل التفوق فى كل هذه الأمور المادية والعلمية والفنية هو فى جانب أعداء الإسلام .. وإنما العامل الرئيسى والأول فى تحقيقها هو عقيدة الإسلام المكينة الصادقة الراسخة . التى بصلابتها ورسوخها فى القلوب سنة . غيَّر المسلمون (خلال تسعين سنة) مجرى التاريخ كله . إذ طوى خلالها جند الإسلام (على قلتهم وكثرة أعدائهم) بساط ثلاث إمبراطوريات كانت جميعها تتنازع سيادة العالم كله .

وبعد ؛ فإن المحارب المسلم (عربياً كان أو غير عربى) لا سبيل له يصل به إلى تحقيق الانتصارات الحاسمة على عدوه إلا بالتزام عقيدة الإسلام وعلى المستوى الذى التزم به رجال (مؤتة) واليمامة واليرموك والقادسية .

---

(١) حطين (بكسر أوله وثانيه مع التشديد) موضع فى فلسطين بين عكا وطبرية . وعلى بعد ثمانية أميال من بحيرة طبرية . موضع له تاريخ خالد .. حيث دارت فيه المعركة الحاسمة بين جيوش صلاح الدين وبين ملوك الصليبيين وأنزل بهم تلك الهزيمة المنكرة التى مكنته من استعادة فلسطين كلها وطرد الصليبيين منها . بعد أن حرر بيت المقدس منهم .

(٢) القسطنطينية : مدينة عظيمة تقع على خليج البوسفور كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (الروم الشرقية) فتحها السلطان محمد الفاتح التركى سنة ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد معركة رهيبة اشترك فيها ربع مليون جندى تركى قاموا عليها بالهجوم عن طريق البحر فاقتحموها .

(٣) ذات الصوارى : معركة بحرية هائلة دارت فى مياة البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم سابقا) بالقرب من الشواطئ التونسية ما بين الأسطول الإسلامى المؤلف من حوالى ثلاثمائة سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وما بين الأسطول الرومانى المؤلف من حوالى ألف سفينة بقيادة قسطنطين بن هرقل . وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة بعد قتال رهيب تماسك فيه الفريقان بالشعور واستخدموا الخناجر بدل السيوف . حتى احمرت مياة البحر من الدماء . وقد فر قائد الأسطول الرومانى قسطنطين منهزماً على سفينة القيادة إلى صقلية وهناك مات متأثراً بجراحه وقيل اغتاله نصارى صقلية حنقاً عليه لانهزامه أمام المسلمين .

خرافة التفوق التكنولوجي

لقد أبطَل أصحاب محمد ﷺ من خلال أحداث معركة (مؤتة التاريخية الخالدة) خرافة التفوق التكنولوجي – حجة المهزومين أمام شراذم اليهود فى معركة حزيران الفاضحة – أن الرومان لم يفشلوا فى معركة (مؤتة) من قلة فى العدد أو تأخر فى العلوم والفنون العسكرية (تكنولوجيا) .

كما أن المسلمين (فى هذه المعركة) لم يحققوا ذلك الانتصار التاريخى العظيم بسبب تفوقهم على الرومان فى شىء من هذه الأمور .

بل لقد كان كل شىء (هناك) عكساً . كما مر تفصيله أكثر من مرة . ومع ذلك فقد حقق المسلمون فى (مؤتة) كل الأهداف التى جاءوا لها من المدينة . فى حين فشل الرومان فشلاً ذريعاً . (وهو حسب الموازين العسكرية) أشنع أنواع الانهزام .

فقد صمد المسلمون فى (مؤتة) فى وجه قوات تفوقهم من ناحية العدد سبعين ضعفاً . وتتفوق عليهم فى العلوم والفنون العسكرية (تكنولوجياً) تفوقاً ساحقاً . هذا ما لا سبيل إلى إنكاره . فالعرب فى ذلك العصر لا يكادون يتقنون واحداً فى المائة مما يتقنه الرومان من العلوم والفنون العسكرية بالإضافة إلى تفوق الرومان الساحق فى وفرة السلاح وجودته .

ومع ذلك فقد كان النصر والفتح للمسلمين والفشل والاندحار للرومان وأتباعهم .

أى أن القلة المسلمة القليلة تغلبت على الكثرة الهائلة من أعدائها الذين يتفوقون عليها (تفوقاً ساحقاً) فى السلاح والعلوم والفنون العسكرية . وغادرت ميدان المعركة (بعد تحقيقها الأهداف) تاركة عدوها المتفوق عليها فى كل شىء فى حالة فشل وفوضى واضطراب هو عين الهزيمة الساحقة . يلعق جراحه قانعاً من الغنيمة بالإياب . لم يستطع أن ينال من هذه القلة المسلمة شيئاً رغم انسحابها وتراجعها إلى بلادها البعيدة .

لماذا انهزم العرب وانتصر اليهود فى حزيران

أما فى حرب الأيام فى (حزيران الأسود) فقد حدث العكس إذ هزمت القلة القليلة الفاجرة الداعرة الكافرة الكثرة الكثيرة الهائلة المنتسبة إلى الإسلام .

فالعرب كانوا فى معركة حزيران (مع كثرتهم الهائلة) أكثر عتادا وأقوى وأجود سلاحاً من اليهود بصفة عامة .

هذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها . حتى وإن حاول البعض إنكارها ؛ تبريراً للهزيمة الفاضحة المخجلة .

إذن فالعرب لم يهزموا فى حرب حزيران من قلة فى عدد الرجال أو نقص فى العتاد . أو ضعف فى السلاح .

فعندما توزن الأمور (فى حرب حزيران) بالموازين العسكرية العادية التقليدية ؛ تبدو النتيجة الحتمية (حسب هذه الموازين) أن النصر الساحق سيكون حليف العرب ضد اليهود . لأن كل مقومات النصر المادية المطلوب توفرها لتحقيق النصر متوفرة لدى العرب . تفوق ساحق على اليهود فى الدبابات وبقية الآليات والأساطيل البحرية والطائرات وكل أنواع الأسلحة .

فلماذا إذن (مع تلك) نزلت تلك الهزيمة الفاضحة بالعرب .

الجواب سهل وبسيط هو الخواء العقائدى .. فالعرب دخلوا المعركة وهم فى حالة انسلاخ يكاد يكون كلياً عن العقيدة الإسلامية الصادقة الراسخة ، التى يصنع المتمسكون بها فى قتالهم ما يشبه المعجزات . والتى كان تغلغلها فى النفوس وتمكنها من القلوب المؤمنة يسد كل نقص مادى أو علمى أو فنى يعانى منه المحاربون المسلمون فى ساحات الجهاد . كما حدث فى (مؤتة) واليرموك والقادسية وأمثالها .

ترى لو كان شيء من ذلك الإيمان الذى كان يعمر قلب زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وجنودهم الذين خاضوا معركة الأيام الستة فى مشارف (مؤتة) قد لامس قلوب الرجال الذين قادوا آلاف

الدبابات والطائرات وجثوا خلف آلاف المدافع والصواريخ فى البر والبحر فى حرب الأيام الستة من حزيران الأسود .. فهل يمكن للقلة القليلة من اليهود أن تنتصر علينا . أو حتى يبقى لها وجود اليوم على أرض المسرى والمعراج ؟؟

كلا . والله .. وألف كلا .

فغياب العقيدة الإسلامية عن قلوب المحاربين العرب . وترك هذه القلوب ؛ إما خاوية فارغة من هذه العقيدة السليمة المكينة الراسخة . وإما تلويث هذه القلوب بعقائد وشعارات فاسدة مستوردة هى من عجن وطبخ اليهود أنفسهم – شعارات وعقائد ماركس ولينين . هو السبب الأول فى التعجيل بتلك الهزيمة الفاضحة المدمرة التى نزلت بنا .

فلعل العرب عامة والمسئولين عن هزيمة حزيران خاصة .. يدركون هذه الحقيقة ويسلمون بها ويدعون المكابرة والمغالطة فى الاعتراف بها .. فيرجعون إلى ربهم .. محققين هذا الرجوع الصادق ؛ بتمسكهم بعقيدة الإسلام تمسكاً صحيحاً مكيناً ثابتاً بحيث تكون هذه العقيدة منطلقهم الوحيد فى كل ما يقولون أو يفعلون .. وهنا يكونون مسلمين ومؤمنين حقاً ، مضموناً لهم النصر على أعدائهم . والذى ضمنه الله تعالى بقوله ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .


خارطة تبين مواطن القبائل العربية
عند ظهور الاسلام وقبله
× هذا الرمز إشارة الى القبائل القحطانية
هذا الرمز إشارة الى القبائل البائدة
شمال
العراق
لخم
العمالقة
تنوخ
بكر تغلب
شيبان
بلاد فارس
غسان
سليم عاملة
قضاعة
دومة الجندل
طيء
قيس عيلان
جديلة
عبس
الأبلق
تبوك
تيما
خيبر
الحساء
القطيف
عبد القيس
العمالقة
عمان
اليمامة
الرياض
المدينة
هوازن
هذيل
ثقيف
خثعم
تبالة
الربع الخالي
ظفار
حضرموت
همدان
قضاعة
بكيل
صنعاء
مأرب
سبأ
اليمن
مذحج
عدن
وثينة
بحر العرب
المحيط الهندي
السودان
الحبشة

فهرس الأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

— ن —

— هـ —

— و —

— ى —

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث